تتمة

أضواء البيان

في إيضاح القرآن بالقرآن

تأليف الفقير إلى رحمة ربه وعفوه

محمد الأمين بن محمد المختار

الجكني الشنقيطي

طبع على نفقة المحسن صاحب المعالي الشيخ

محمد بن عوض بن لادن

رحمه الله

وقفاً لله على طلبة العلم

الجزء التاسع

والثاني من التتمة

الطبعة الثانية

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ، عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ، ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ، كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ .

عم أصله عن ما أدغمت النون فى الميم ، ثم حذف ألف الميم ، لدخول حرف الجر عليه للفرق بين ما الاستفهامية وما الموصولة .

والمعنى : عن أى شيء يتساءلون ، وقد يفصل حرف الجر عن ما ، فلا يحذف الألف .

وأنشد الزمخشرى قول حسان رضى الله عنه :

على ما قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرغ فى رماد

وقال فى الكشاف : وعن ابن كثير أنه قرأ عمه ، بهاء السكت ، ثم وجهها بقوله : إما أن يجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن يقف ويبتدىء يتساءلون عن النبإ العظيم ، على أن يضمر يتساءلون ، لأن ما بعده يفسره .

وقال القرطبى : قوله : عن النبإ العظيم : ليس متعلقا بيتساءلون المذكور فى التلاوة ، ولكن يقدر فعل آخر عم يتساءلون عن النبإ

العظيم ، وإلا لأعيد الاستفهام أعن النبإ العظيم ؟

وعلى كل ، فإن ماتساءلوا عنه أبهم أولا ، ثم بين بعده بأنهم يتساءلون عن النبإ العظيم ، ولكن بقي بيان هذا النبإ العظيم ما هو ؟

فقيل : هو الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعثته لهم .

وقيل : فى القرآن الذى أنزل عليه يدعوهم به .

وقيل : فى البعث بعد الموت .

وقد رجح ابن جرير : احتمال الجميع وألا تعارض بينها .

والواقع أنها كلها متلازمة ، لأن من كذب بواحد منها كذب بها كلها ، ومن صدق بواحد منها صدق بها كلها ، ومن اختلف فى واحد منها لا شك أنه يختلف فيها كلها .

ولكن السياق فى النبإ وهو مفرد . فما المراد به هنا بالذات ؟

قال ابن كثير والقرطبي : من قال إنه القرآن : قال بدليل قوله : (قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون)

ومن قال : إنه البعث قال بدليل الآتى بعدها : (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن أظهرها دليلا هو يوم القيامة والبعث ، لأنه جاء بعده بدلائل وبراهين البعث كلها ، وعقبها بالنص

على يوم الفصل صراحة ، أما براهين البعث فهى معلومة أربعة : خلق الأرض والسماوات ، وإحياء الأرض بالنبات ، ونشأة الإنسان من العدم ، وإحياء الموتى بالفعل فى الدنيا لمعاينتها وكلها موجودة هنا .

أما خلق الأرض والسماوات ، فنبه عليه بقوله (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا) ، وقوله : (وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا) ، فكلها آيات كونية دالة على قدرته تعالى كما قال : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) .

وأما إحياء الأرض بالنبات ففى قوله تعالى : (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا) كما قال تعالى : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيي الموتى) .

وأما نشأة الإنسان من العدم ، ففى قوله تعالى : (وخلقناكم أزواجا) أى أصنافا ، كما قال تعالى : (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

وأما إحياء الموتى فى الدنيا بالفعل ، فى قوله تعالى : (وجعلنا نومكم سباتا) والسبات : الانقطاع عن الحركة . وقيل : هو الموت ، فهو ميتة صغرى ، وقد سماه الله وفاة فى قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) ، وقوله تعالى : (وهو

الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه) ، وهذا كقتيل بنى إسرائيل وطيور إبراهيم ، فهذه آيات البعث ذكرت كلها مجملة

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه إيرادها مفصلة فى أكثر من موضع ، ولذا عقبها تعالى بقوله : (إن يوم الفصل كان ميقاتا) أى للبعث الذى هم فيه مختلفون ، يكون السياق مرجحا للمراد بالنبإ هنا .

ويؤكد ذلك أيضا كثرة إنكارهم وشدة اختلافهم فى البعث أكثر منهم فى البعثة ، وفى القرآن ، فقد أقر أكثرهم ببلاغة القرآن ، وأنه ليس سحراً ولا شعراً ، كما أقروا جميعاً بصدقه عليه السلام وأمانته ، ولكن شدة اختلافهم فى البعث كما فى أول سورة صٓ و قٓ ، ففى ص قال تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب) .

وفى قٓ قال تعالى : (بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب ، أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) ، فهم أشد استبعاداً للبعث مما قبله ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾

لم يبين هنا هل علموا أم لا . ولكن ذكر آيات القدرة الباهرة

على إحيائهم بعد الموت بمثابة إعلامهم بما اختلفوا فيه ، لأنه بمنزلة من يقول لهم : إن كنتم مختلفين فى إثبات البعث ونفيه ، فهذه هى آياته ودلائله فاعتبروا بها وقايسوه عليها ، والقادر على إيجاد تلك ، قادر على إيجاد نظيرها .

ولكن العلم الحقيقى بالمعاينة لم يأت بعد لوجود السين وهى للمستقبل ، وقد جاء فى سورة التكاثر فى قوله : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) ، وهذا الذى سيعلمونه يوم الفصل المنصوص عليه فى السياق ، (إن يوم الفصل كان ميقاتاً) .

قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ .

قرىء بالإفراد ، مهداً أى كالمهد للطفل . وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى : (الذى جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا) من سورة طه .

قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ، وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان هذه الثلاثة ، كون النوم سباتاً : راحة أو موتاً ، والليل لباساً ، ساتراً ومريحاً ، والنهار معاشاً لطلب المعاش ، وذلك عند كلامه على قوله تعالى من

سورة الفرقان : (وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً) وكلها آيات دالات على القدرة على البعث ، كما تقدمت الإشارة إليه

قوله تعالى ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ .

أى السماوات السبع ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى فى سورة قٓ (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) وساق النصوص مماثلة هناك .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ .

النفخ فى الصور للبعث ، وهذا معلوم ، وتأتون أفواجا : قد بين حال هذا المجىء مثل قوله تعالى : (يخرجون من الأجداث سراعا) ، وقوله : (كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع) والأفواج هنا قيل : الأمم المختلفة كقوله : (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه — الآية) ، ولكن الآية بتاء الخطاب : فتأتون مما يشعر بأن الأفواج فى هذه الأمة .

وقد روى القرطبي وغيره أثراً عن معاذ ، أنه سأل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يامعاذ ، سألت عن أمر عظيم من الأمور ، ثم أرسل عينيه وقال : تحشر عشرة أصناف من أمتى » وساقها ،

وكذلك ساقها الزمخشرى ، وقال ابن حجر فى الكافى الشافى فى تخريج أحاديث الكشاف : أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية محمد بن زهير ، عن محمد بن المهدى عن حنظلة السدوسى عن أبيه عن البراء ابن عازب عنه بطوله وهى : بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمياً ، وبعضهم صماً ، بكما ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم ، فهى مدلاّت على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم ملبسون جلباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم .

أما الذين على صورة الخنازير : فأهل السحت ، والمنكسون : أكلة الربا ، والعمى : الجائرون فى الحكم ، والصم : المعجبون بأعمالهم ، والذين يمضغون ألسنتهم : العلماء والقصّاص الذين خالف قولهم أعمالهم ، ومقطوع الأيدى : مؤذوا الجيران ، والمصلّبون : السعاة بالناس إلى السلطان ، والذين أشد نتناً : متبعوا الشهوات ، ومانعوا حق الله فى أموالهم ، ولابسوا الجلباب : أهل الكبر والفخر . انتهى بإيجاز بالعبارة ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ .

تقدم بيان أحوالها يوم القيامة ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك مفصلا ، عند قوله تعالى من سورة طه : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً) وعند قوله تعالى فى سورة النمل : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

قوله تعالى ﴿ لَّابِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً ، لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَاباً ، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقاً ﴾ .

لم يبين الأحقاب هنا كم عددها ، وهذه مسألة فناء النار ، وعدم فنــــائها .

وقيل : المراد بالأحقاب هنا جزء من الزمن لا كله ، وهى الأحقاب الموصوف حالهم فيها لما بعده من كونهم لا يذوقون فيها ، أى فى النار أحقاباً من الزمن ، لا يذوقون برداً ولا شراباً إلا حميا وغساقاً .

أما بقية الأحقاب فيقال لهم : فلن نزيدكم إلا عذاباً ، وهذه المسألة قد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى كتاب دفع إيهام الاضطراب ، عند الكلام على هذه الآية ، وفى سورة الأنعام على قوله تعالى : (قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله) الآية ، وهو بحث مطول ، وسيطبع الكتاب بإذن الله تعالى مع هذه التتمة .

وذكر القرطبى فى معنى الحقب : آثاراً عديدة منها : عن عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يكون فيها أحقاباً » الحقب : بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم ألف سنة مما تعدون . فلا يتكلن أحدكم على أنه يخرج من النار » . ذكره الثعلبي .

وقد رجح القرطبي دوامهم ، أي الكفار في النار أبد الآبدين . اهـ .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ .

قيل المراد بالشيء هنا : أعمال العباد ، أي أنه بعد قوله (جزاء وفاقا) أي وفق أعمالهم بدون زيادة ولا نقص ، قال : وقد أحصينا أعمالهم وكتبناها ، وهذا كقوله تعالى : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً) . وقوله : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقوله : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، وقوله : (أحصاه الله ونسوه) .

واللفظ عام في كل شيء ، ويشهد له قوله تعالى : (إنا كل شيء

خلقناه بقدر) وبقدر فيه معنى الإحصاء ، وفى السنة : حديث القلم المشهور ، وكقوله : (وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين) وتقدم فى سورة الجن قوله تعالى : (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً) .

وهذه الآية أعظم الدلالات على قدرته تعالى وسعة علمه ، وألا يفوته شيء قط ، وأنه يعلم بالجزئيات علمه بالكليات .

وكما تقدم فى سورة المجادلة (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) .

وكذلك التفصيل فى قوله : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة لا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ﴾ .

بينه بعده بقوله تعالى : (حدائق وأعناباً — إلى قوله — جزاء من ربك عطاء حساباً) .

قوله تعالى ﴿ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ .

فى حق الكفار ، قال : جزاء وفاقاً ، وفى حق المؤمنين ، قال عطاء حساباً .

ففى الأول بيان أن مجازاتهم وفق أعمالهم ولا يظلم ربك أحداً .

وفى الثانى بيان بأن هذا النعيم عطاء من الله وتفضل عليهم به من الأصل ، وهو المفاز المفسر فى قوله تعالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) .

ودخول الجنة ابتداء عطاء من الله كما فى حديث : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » ، وقوله : حساباً : إشعار بأن تفاوت أهل الجنة فى الجنة بالحساب ونتائج الأعمال . وقيل حساباً : بمعنى كفاية ، حتى يقول كل واحد منهم : حسبي حسبي . أى كافينى .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه ، عند الكلام على قوله تعالى من سورة الكهف : (وعرضوا على ربك صفاً) .

وقد ذكر ابن كثير لمعنى الروح هنا سبعة أقوال هى : أرواح بنى آدم ، أو بنو آدم أنفسهم ، أو خلق من خلق الله على صور بنى آدم ليسوا بملائكة ولا بشر ، ويأكلون ويشربون ، أو جبريل أو القرآن ، أو ملك عظيم بقدر جميع المخلوقات . ونقلها الزمخشرى وحكاها

القرطبي ، وزاد : ثامنا وهم حفظة على الملائكة ، وتوقف ابن جرير في ترجيح واحد منها .

والذي يشهد له القرآن بمثل هذا النص أنه جبريل عليه السلام ، كما في قوله تعالى : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ، ففيه عطف الملائكة على الروح من باب عطف العام على الخاص ، وفي سورة القدر عطف الخاص على العام . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ .

قال الزمخشري : لشدة هول الموقف ، وهؤلاء وهم أكرم الخلق على الله وأقربهم إلى الله ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، فغيرهم من الخلق من باب أولى .

وقال ابن كثير : هو مثل قوله تعالى : (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه) ومثله قوله تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)

والواقع أن هـــذا كله مما يدل على أن ذلك اليوم لا سلطة ولا سلطان لأحد فقط ، حتى ولا بكلمة إلا ما أذن فيها ، كما قال تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ .

هو يوم القيامة لاسم الإشارة ، وقد أشير إليه بالاسم الخاص بالبعيد ذلك بدلا من هذا ، مع قرب التكلم عنه ، ولكن إما لبعده زمانياً عن زمن التحدث عنه ، وإما لبعد منزلته وعظم شأنه ، كقوله تعالى : (الٓمٓ ذلك الكتاب) ، وفي هذا عود على بدء في أول السورة ، وهو إذا كانوا يتساءلون مستغربين أو منكرين ليوم القيامة ، فإنهم سيعلمون حقاً ، وها هو اليوم الحق لا لبس فيه ولا شك ليرونه عين اليقين .

قوله تعالى ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ .

المآب : المرجع ، كما تقدم مثله (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) ، فإذا كان هذا اليوم كائنا حقاً ، والناس فيه إما إلى جهنم ، كانت مرصاداً للطاغين مآبا ، وإما إلى مفازا حدائق وأعنابا ، فبعد هذا البيان ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، يؤب به عند ربه مآبا يرضاه لنفسه ، ومن شاء هنا نص في التخيير ، ولكن المقام ليس مقام تخيير ، وإنما هو بمثابة قوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً) الآية .

فهو إلى التهديد أقرب ، كما أن فيه اعتبار مشيئة العبد فيما يسلك ، والله تعالى أعلم .

ويدل على التهديد ما جاء بعده .

قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ .

وقوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، وهـذا كله تحذير شديد ، وحث أكيد على السعى الحثيث لفعل الخير ، وطلب النجاة فى اليوم الحق ، نسأل الله السلامة والعافية .

قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ .

قد بيّن تعالى نتيجة هذا النظر إما المسرة به وإما الفزع منه ، كما فى قوله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء ، تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴾.

الواو للقسم ، والمقسم به محذوف ، ذكرت صفاته فى كل المذكورات ، إلى قوله : (فالمدبرات أمرا).

وقد اختلف فى المقسم به فيها كلها ، على ما سيأتى بيانه إن شاء الله .

والنازعات : جمع نازعة ، والنزع : جذب الشيء بقوة من مقره ، كنزع القوس عن كبده ، ويستعمل فى المحسوس والمعنوى ، فمن الأول نزع القوس كما قدمنا ، ومنه قوله : ونزع يده ، وقوله : (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) وينزع عنهما لباسهما ، ومن المعنوى قوله تعالى : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) ، وقوله : (فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول) ، والحديث : لعله نزعه عرق .

والإغراق المبالغة ، والاستغراق : الاستيعاب

أما المراد بالنازعات غرقا هنا ، فقد اختلف فيه إلى حوالى عشرة

أقوال منها : أنها الملائكة تنزع الأرواح ، والنجوم تنتقل من مكان إلى مكان آخر ، والأقواس تنزع السهام ، والغزاة ينزعون على الأقواس ، والغزاة ينزعون من دار الإسلام إلى دار الحرب للقتال، والوحوش تنزع إلى الطلا ، أى الحيوان الوحشى .

والناشطات : قيل أصل الكلمة : النشاط والخفة ، والأنشوطة : العقدة سهلة الحل ، ونشطه بمعنى ربطه ، وأنشطه حله بسرعة وخفة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « كأنما أنشط من عقال » .

أما المراد به هنا فقد اختلف فيه على النحو المتقدم تقريباً ، فقيل : الملائكة تنشط الأرواح ، وقيل : أرواح المؤمنين تنشط عند الفزع ، ولم يرجح ابن جرير معنى منها ، وقال : كلها محتملة ، وحكاها غيره كلها .

وقد ذكر فى الجلالين المعنى الأول منها فقط ، والذى يشهد له السياق والنصوص الأخرى : أن كلا من النازعات والناشطات : هم الملائكة ، وهو مما روى عن ابن عباس ومجاهد ، وهى صفات لها فى قبض الأرواح .

ودلالة السياق على هذا المعنى : هو أنهما وصفان متقابلان : الأول نزع بشدة ، والآخر نشاط بخفة ، فيكون النزع غرقا لأرواح

الكفار ، والنشط بخفة لأرواح المؤمنين ، وقد جاء ذلك مفسراً فى قوله تعالى فى حق نزع أرواح الكفار (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) الآية . وقوله تعالى : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق)
وقال تعالى فى حق المؤمنين : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) ، وقوله : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) .

وهذا يتناسب كل المناسبة مع آخر السورة التى قبلها إذ جاء فيها : (إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، ونظر المرء ماقدمت يداه يبدأ من حالة النزع حينما يثقل اللسان عن النطق فى حالة الحشرجة ، حين لا تقبل التوبة عند المعاينة لما سيئول إليه ، فينظر حينئذ ما قدمت يداه ، وهذا عند نزع الروح أو نشطها ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ، فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴾ .

قيل : السابحات النجوم . وقيل : الشمس والقمر والليل والنهار ،

والسحاب والسفن والحيتان فى البحار ، والخيل فى الميدان .

وذكرها كلها أيضاً ابن جرير ولم يرجح . وقال : كلها محتملة ، وذكرها غيره كذلك .

والواقع ، فإنها كلها آيات عظام تدل على قدرته تعالى ، إلا أن السياق فى أمر البعث والمعاد ، وأقرب مايكون إليه الآيات الكونية : الشمس والقمر والنجوم ، وقد وصف الله الشمس والقمر بالسبحات فى قوله تعالى : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) والسابقات من النجوم ، السيارة .

قوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .

اتفق المفسرون على أنها الملائكة ، وذكر الفخر الرازى رأياً له بعيدا ، وهو أنها الأرواح ، وأنها قد تدبر أمر الإنسان فى المنامات ، وهو قول لا يعول عليه كما ترى .

والذى يشهد له النص أنها الملائكة ، كما فى قوله تعالى : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) وكما وصف الله الملائكة بقوله : (لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ .

هما النفختان فى الصور ، الراجفة هى الأولى ، والرادفة هى الثانية ، كما فى قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة يس عند قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) ، وسميت الأولى الراجفة ، لما يأخذ العالم كله من شدة الرجفة ، كما فى قوله تعالى : (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ، وقوله (فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض) .

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد رحمه الله بسنده : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه. فقال رجل : يا رسول الله : أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال : إذاً يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك » وسنده قال أحمد : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن أبى الطفيل ابن أبى بن كعب عن أبيه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — الحديث » .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴾ .

قال ابن كثير : يستنكر المشركون البعث بعد الموت ، والحافرة الحياة بعد موتهم ومصيرهم إلى القبور .

ونقل أن الحافرة النار ، وأكثر المفسرين على أنها الحياة الأولى : يقال : عاد فى حافرته رجع فى طريقه ، كأن محياه الأول حفر طريقه بمشيه فيها ، وعليه لاعلاقة له بحفرة القبر ، وإنما هو تعبير عربى عن العودة فى الأمر ، ويشهد له قول الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب معاذ الله من صلع وعار

أى أرجع إلى الصبا بعد الصلع والشيب .

وقول الآخر :

أقدم أخا نهم على الأساوره ولا يهولنك رءوس نادره
فإنما قصرك ترب الساهره حتى تعود بعدها فى الحافره
* من بعد ماصرت عظاما ناخره *

وقد دلت الآية بعدها ، إلى أن المراد بالحافرة العودة إلى الحياة مرة أخرى ، فى قوله : (قالوا تلك إذاً كرة خاسرة) .

والكرة : هى العودة إلى الحياة الأولى ، وهى ماقبل حفرة القبر من تكرار الحياة السابقة . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴾ .

العظام النخرة البالية ، والتى تخللها الريح ، كما فى قول الشاعر :

وأخليتها من مخها فكأنها قوارير فى أجوافها الريح تنخر

ونخرة الريح شدة صوتها ، ومنه المنخر ، لأخذ الهواء منه ، ويدل لهذا قوله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم) .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ .

بين تعالى هذا الحديث وموضوعه ومكانه بقوله تعالى بعده : (إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى إذهب إلى فرعون إنه طغى — إلى قوله — فقال أنا ربكم الأعلى) .

قوله تعالى : (ناداه ربه بالواد المقدس) بين القرآن الكريم ، أنه الطور فى قوله تعالى : (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا — إلى قوله — فلما آتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة) والمباركة تساوى المقدس .

فبين تعالى أن المناداة كانت بالطور وهو الواد المقدس ، وهو طوى ، وفى البقعة المباركة . وقد بين تعالى ما كان فى ذلك المكان من مناجاة وأمر العصا والآيات الأخرى فى سورة طه من أول قوله تعالى (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا — إلى قوله — اذهب إلى فرعون) .

وقد فصّل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القول فى ذلك

الموقف فى سورة مريم عند قوله تعالى : (وناديناه من جانب الطور الأيمن) .

وقد بين تعالى فى سورة طه ، كامل قصة المناداة من قوله : (إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله لا إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية) .

ثم قصة العصا والآية فى يده عليه السلام ، وإرساله إلى فرعون إنه طغى ، وسؤال موسى : (رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى) واستوزار أخيه معه ، دون التعرض إلى أسلوب الدعوة ، وفى هـذه السورة الكريمة بيان لمنهج الدعوة ، وماينبغى أن يكون عليه نبى الله موسى مع عدو الله فرعون .

وأسلوب العرض : هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ، ثم تقديم الآية الكبرى ، ودليل صحة دعواه مما يلزم كل داعية اليوم أن يقف هذا الموقف ، حيث لايوجد اليوم أكثر من فرعون ، ولا أشد طغياناً منه حيث ادعى الربوبية والألوهية معاً فقال : (أنا ربكم الأعلى) ، وقال : (ماعلمت لكم من إله غيرى) ، ولايوجد اليوم أكرم على الله من نبى الله موسى وأخيه هارون .

ومع ذلك فيكون منهج الدعوة من أكرم خلق الله إلى أكفر عباد الله بهذا الأسلوب الهادىء اللين الحكيم منطلقا من قوله تعالى :

(فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) فكانا كما أمرهما الله ، وقالا كما علمهما الله ، (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى) ، وهذا المنهج هو تحقيق لقوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وقد وضع القرآن منهجاً متكاملا للدعوة إلى الله ، وفصله العلماء بما يشترط فى الداعى والمدعو إليه ، ومراعاة حال المدعو .

وقد قدم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) من سورة المائدة .

وقوله تعالى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) فى سورة هود .

وقوله تعالى : (وجادلهم بالتى هى أحسن) فى سورة النحل .

ومجموع ذلك كله يشكل منهجاً كاملا لمادة طريق الدعوة إلى الله تعالى ، فيما يتعلق بالداعى والمدعو وما يدعو إليه ، وكيفية ذلك والحمد لله

قوله تعالى . ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْأَيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ، فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴾

ذكر هنا الآية الكبرى فقط ، وذكر تعالى هنا ان فرعون جمع بين التكذيب والعصيان ، وتقدم سورة القمر قوله : (ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك هناك .

قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ .

النكال : هو اسم لما جعل نكالا للغير ، أى عقوبة له حتى يعتبر به ، والكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل القيد. قاله القرطبى .

واختلف فى الآخرة والأولى : أهم الدنيا والآخرة ؟ أم هم الكلمتان العظيمتان اللتان تكلم بهما فرعون فى قوله (ماعلمت لكم من إله غيرى) .

والثانية قوله : (أنا ربكم الأعلى) .

قال ابن عباس : وكان بينهما أربعون سنة . وقد اختار ابن كثير الأول ، واختار ابن جرير الثانى ، ومعه كثير من المفسرين .

ولكن يرد على اختيار ابن كثير : أن السياق قدم الآخرة ، مع أن تعذيب فرعون مقدم فيه نكال الأولى ، وهى الدنيا .

كما يرد على اختيار ابن جرير ، أن الله تعالى جعل أخذه إياه نكالا ، ليعتبر به من يخشى ، والعبرة تكون أشد بالمحسوس ، وكلمتاه قيلتا فى زمنه .

والقرآن يشهد لما قاله ابن كثير ، فى قوله تعالى : (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) ، وهذا هو محل الاعتبار .

وقد قال تعالى بعد الآية (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى).

واسم الإشارة فى قوله : إن فى ذلك : راجع إلى الأخذ والنكال المذكورين ، أى المصدر المفهوم ضمناً فى قوله تعالى (فأخذه الله) وقوله: نكال ، بل إن نكال مصدر بنفسه ، أى فأخذه الله ونكل به ، وجعل نكاله به عبرة لمن يخشى .

قوله تعالى ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ .

لما كان فرعون على تلك المثابة من الطغيان والكفر ، وكان من أسباب طغيانه الملك والقوة ، كما فى قوله تعالى : (وفرعون ذى الأوتاد) ، وقوله : (إن فرعون علا فى الأرض) ، وقوله عنه : (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) .

وهذه كلها مظاهر طغيانه وعوامل قوته ، خاطبهم الله بما آل إليه هذا الطغيان ، ثم خاطبهم فى أنفسهم محذراً من طغيان القوة (أأنتم أشد خلقاً أم السماء) حتى لو ادعيتم أنكم أشد قوة من فرعون ، الذى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فهل أنتم أشد خلقاً أم السماء؟.

وقد جاء الجواب مصرحاً بأن السماء أشد خلقاً منهم فى قوله تعالى : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون) .

وبين ضعف الإنسان فى قوله فى نفس المعنى (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب) .

وفى هذا بيان على قدرته تعالى على بعثهم بعد إماتتهم وصيرورتهم عظاماً نخرة .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، شيء من ذلك عند آية الصافات (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا) .

قوله تعالى : ﴿ بَنَٰهَا ، رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك . فى سورة ق عند قوله تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ، أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ، وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة وصف الأرض بأن الله تعالى : دحاها ، وجاء فى آية أخرى أنه طحاها بالطاء ، وجاء فى آية أخرى أنه بسطها ، وهى قوله تعالى : (وإلى الأرض كيف سطحت).

وقد اختلف فى تفسير قوله : دحاها ، فقال ابن كثير : تفسيره مابعده (أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها) وهذا قول ابن جرير عن ابن عباس .

وقال القرطبي : دحاها أى بسطها .

والعرب تقول : دحا الشيء إذا بسطه .

وقال أبوحيان: دحاها بسطها ومهدها للسكنى والاستقرار عليها، ثم فسر ذلك التمهيد بما لابد منه من إخراج الماء والمرعى، وإرسائها بالجبال.

ومما ذكر يتأتى أمر السكنى والمعيشة حتى الملح والمأكل والمشرب، وهذا هو كلام الزمخشرى بعينه.

وقال الفخر الرازى: دحاها بسطها، فترى أن جميع المفسرين تقريباً متفقون على أن دحاها بمعنى بسطها.

وقول ابن جرير وابن كثير: إن دحاها فسر بما بعده لايتعارض مع البسط والتمهيد، كما قال أبوحيان: إنه ذكر لوازم التمسكن إلى المعيشة عليها من إخراج مائها ومرعاها لأن بهما قوام الحياة.

ومما يستأنس به أن الدحو معروف بمعنى البسط، قول ابن الرومى:

ما أنس لا أنس خبازا مررت به
يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
مابين رؤيتها فى كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ماتنداح دائرة
فى صفحة الماء ترمى فيه بالحجر

وقد أثير حول هذه الآية مبحث شكل الأرض أمبسوطة هى أم كروية مستديرة ؟

وإذا رجعنا إلى أمهات كتب اللغة نجد الآتى :

أولا : فى مفردات الراغب : قال دحاها ، أزالها من موضعها ومقرها .

ومنه قولهم : دحا المطر الحصى من وجه الأرض أى جرفها ، ومر الفرس يدحو دحواً : إذا جر يده على وجه الأرض فيدحو ترابها .

ومنه أدحى النعام ، وقال : الطحو كالدحو ، وهو بسط الشىء والذهاب به والأرض وما طحاها ، وأنشد قول الشاعر :

* طحا بك قلب فى الحسان طروب *

أى ذهب بك .

وفى معجم مقاييس اللغة ، مادة دحو : الدال والحاء والواو أصل واحد يدل على بسط وتمهيد .

يقال : دحى الله الأرض يدحوها دحواً إذا بسطها .

ويقال : دحا المطر : الحصا عن وجه الأرض ، وهذا لأنه إذا كان كذلك فقد مهد الأرض .

ويقال للفرس ، إذا رمى بيده رمياً لا يرفع سنبكه عن الأرض كثيرا : مر يدحو دحواً ، ومن الباب أدحى النعام الموضع الذى يفرخ فيه

أفعول من دحوت ، لأنه يدحوه برجله ثم يبيض فيه ، وليس للنعامة عش .

وفى لسان العرب مادة دحا ، والدحو : البسط ، دحى الأرض يدحوها دحواً : بسطها.

وقال الفراء فى قوله عز وجل (والأرض بعد ذلك دحاها) قال بسطها ، وذكر الأدحى مبيض النعام فى الرمل ، لأن النعامة تدحوه برجلها ، ثم تبيض فيه .

وذكر حديث ابن عمر : فدحا السيل فيه بالبطحاء ، أى رمى وألقى .

قال : وسئل ابن المسيب عن الدحو بالحجارة ، فقال : لابأس به ، أى المراماة بها والمسابقة .

وعن ابن الأعرابى : هو يدحو بالحجر ، أى يرمى به ويدفعه ، والداحى : الذى يدحو الحجر بيده ، وأنشد لأوس بن حجر بمعنى ينزع قوله :

ينزع جلد الحصا أحسين مبترك كأنه فاحص أو لاعب داح ؟

وفى حديث أبى رافع : « كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحى ، هى أحجار أمثال القرصة ، كانوا يحفرون حفرة يدحون فيها بتلك الحجارة ، فإذا وقع الحجر فيها غلب صاحبها ، وإن لم يقع غلب .

والدحو : هو رمى اللاعب بالحجر والجوز وغيره . اهـ .

وما ذكره صاحب اللسان عن أبى رافع لازال موجودا حتى الآن بالمدينة ، ويسمى الدحل باللام ، كما وصف تماما .

وبعد إيراد أقوال أصول مراجع اللغة ، وما تقدم من أقوال المفسرين . فإننا نواجه الجدل القائم بين بعض علماء الهيئة ، وبعض العلماء الآخرين ، فى موضوع شكل الأرض ، ولعلنا نوفق بفضل من الله إلى بيان الحقيقة فى ذلك ، حتى لا يظن ظان تعارض القرآن ، وما يثبت من علوم الهيئة أو يغتر جاهل بما يقال فى الإسلام .

وبتأمل قول المفسرين نجدها متفقة فى مجموعها : بأن دحاها مهدها وسهل الحياة عليها ، وذكر لوازم التمكين من الحياة عليها من إخراج الماء ، والمرعى ، ووضع الجبال ، وهو المتفق مع نصوص القرآن فى قوله : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتادا) .

وقوله : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) .

وكل ذلك من باب واحد ، وهو تمهيدها والتمكين للعيش عليها ، وليس فيه معنى التكوير والاستدارة .

وإذا جئنا إلى كتب اللغة نجدها كلها ، تنص على أن الدحو :

البسط ، والرمى ، والإزالة ، والتمهيد ، فالبسط والتمهيد والرمى بالحجر المستدير فى الحفرة الصغيرة معانٍ مشتركة ؟ وكلها تفسر دحاها ، بمعنى بسطها ومهدها . وأن الأدحية مبيض النعام لا بيضه ، كما يقولون . وسمى بذلك لأنها تدحوه بيدها لتبيض فيه ، إذ لا عش لها .

وعليه ، فلا دليل من كتب اللغة على أن الدحْو هو التكوير ، ولكن ما قول العلماء فى شكل الأرض ، بصرف النظر عن كون القرآن تعرض له أو لم يتعرض ؟

إذا رجعنا إلى كلام من نظر فى علم الهيئة من المسلمين ، فإنا نجدهم متفقين على أن شكل الأرض مستدير .

وقبل إيراد شىء من أقوالهم ننبه على أنه لا علاقة لهذا البحث بموضوع الحركة ، سواء للأرض أو غيرها ، فذاك بحث مستقل ، ليس هذا محله ، وإنما البحث فى الشكل .

أما أقوال العلماء فى شكل الأرض ، فإن أجمع ما وقفت عليه ، وأصرح وأبين ، هو كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى رسالة الهلال ، جاء فيها : قال فى موضع منها قوله ، وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من علماء الأمة ، أن الأفلاك مستديرة ، قال تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) وقال : (وهو الذى

خلق الليل والنهار والشمس والقمر فى فلك يسبحون) وقال تعالى : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) .

قال ابن عباس : فى فلكة مثل فلكة المغزل . وهكذا هو فى لسان العرب : الفلك الشىء المستدير . ومنه يقال : تفلك ثدى الجارية إذا استدار . قال تعالى : (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) والتكوير هو التدوير . ومنه قيل : كار العمامة وكورها ، ولهذا يقال للأفلاك : كروية الشكل ؛ لأن أصل الكرة كورة تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا .

وقال : (والشمس والقمر بحسبان) مثل حسبان الرحى ، وقال : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) وهذا إنما يكون فيما يستدير من أشكال الأجسام دون المضلعات من المثلث أو المربع أو غيرهما ، فإنه يتفاوت لأن زواياه مخالفة لقوائمه .

والجسم المستدير متشابه الجوانب والنواحى ، ليس بعضه مخالفاً لبعض .

وجاء فيها قوله أيضاً : وقال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادى ، من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار ، فى متون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد : لاخلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة ، وأنها تدور بجميع ما فيها

من الكواكب ، كدورة الكرة على قطبين ثابتين غير متحركين ، أحدهما فى الشمال ، والآخر فى ناحية الجنوب .

قال : ويدل على ذلك أن الكواكب جميعها تدور من المشرق تقع قليلا على ترتيب واحد فى حركتها ومقادير أجزائها ، إلى أن تتوسط السماء ، ثم تنحدر على ذلك الترتيب ، فكأنها ثابتة فى كرة تديرها جميعها دوراً واحداً .

هذه نبذة من أقوال علماء المسلمين فى شكل الأفلاك ، ثم قال : وهذا محل القصد بالذات ، وكذلك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثل الكرة .

قال : ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب ، لا يوجد طلوعها وغروبها على جميع من فى نواحى الأرض فى وقت واحد ، بل على المشرق قبل المغرب .

قال : فكرة الأرض مثبتة فى وسط كرة السماء ، كالنقطة فى الدائرة ، يدل على ذلك أن جرم كل كوكب يرى فى جميع نواحى السماء ، على قدر واحد ، فيدل ذلك على بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد ، فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء اهـ . بلفظه .

فهذا نقل لإجماع الأمة ، من إمام جليل فى علمى المعقول والمنقول ،

على أن الأرض على شكل الكرة ، وقد ساق الأدلة الاضطرارية من حركة الأفلاك على ذلك .

ومن جهة العقل أيضاً يقال : إن أكمل الأجرام هو المستدير كما قال فى قوله : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) .

وعليه ، فلو قدر لسائر على وجه الأرض ، وافترضنا الأرض مسطحة كسطح البيت أو القرطاس مثلا ، لكان لهذا السائر من نهاية ينتهى إليها ، وهى منتهى التسطيح أو يسقط فى هاوية ، وباعتبارها كرة ، فإنه يكمل دورته ، ويكررها ولو سار طيلة عمره لما كان لمسيره منتهى ، لأنه يدور على سطحها من جميع جهاتها . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه

كان من الممكن أن نقدم هذه النتيجة من أول الأمر مادامت متفقة فى النهاية مع قول علماء الهيئة ، ولا نطيل النقول من هنا وهناك ، ولكن قد سقنا ذلك كله لغرض أعم من هذا كله ، وقضية أشمل وهى من جهتين :

أولاهما : أن علماء المسلمين مدركون ما قال به علماء الهيئة ،

ولكن لا من طريق النقل أو دلالة خاصة على هذه الجزئية من القرآن، ولكن عن طريق النظر، والاستدلال، إذ علماء المسلمين لم يجهلوا هذه النظرية، ولم تخف عليهم هذه الحقيقة.

ثانيهما: مع علمهم بهذه الحقيقة وإدراكهم لهذه النظرية، لم يعز واحد منهم دلالتها النصوص الكتاب أو السنة.

وبناء عليه نقول: إذا لم تكن النصوص صريحة فى نظرية من النظريات الحديثة، لا ينبغى أن نقحمها فى مباحثها نفياً أو إثباتاً، وإنما نتطلب العلم من طريقه، فعلوم الهيئة من النظر الاستدلال، وعلوم الطب من التجارب والاستقراء، وهكذا يبقى القرآن مصاناً عن مجال الجدل فى نظرية قابلة للثبوت والنفى، أو التغيير والتبديل، كما لا ينبغى لمن لم يعلم حقيقة أمر فى فنه أن يبادر بإنكارها مالم تكن مصادمة لنص صريح.

وعليه أن يتثبت أولا وقد نبهنا سابقا على ذلك فى مثل ذلك فى قصة نبى الله سليمان مع بلقيس والهدهد حينما جاءه، فقال: (أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبإ بنبإ يقين) وقصَّ عليه خبرها مع قومها، فلم يبادر عليه السلام بالإنكار. لكون الآتى بالخبر هدهداً، ولم يكن عنده علم به ولم يسارع أيضاً بتصديقه، لأنه ليس لديه مستند عليه، بل أخذ فى طريق التثبت بواسطة الطريق الذى

جاءه الخبر به قال : (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) ، وأرسله بالكتاب إليهم ، فإذا كان هذا من نبي الله سليمان ولديه وسائل وإمكانيات كما تعلم ؛ فغيره من باب أولى .

تنبيه آخر

إذا كان علماء الإسلام يثبتون كروية الأرض ، فماذا يقولون فى قوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ـ إلى قوله ـ وإلى الأرض كيف سطحت) . وجوابهم كجوابهم على قوله تعالى : (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) أى فى نظر العين ، لأن الشمس تغرب عن أمة ، وتستمر فى الأفق على أمة أخرى ، حتى تأتى مطلعها من الشرق فى صبيحة اليوم الثانى ، ويكون بسط الأرض وتمهيدها ، نظراً لكل إقليم وجزء منها لسعتها وعظم جرمها .

وهـذا لايتنافى مع حقيقة شكلها ، فقد نرى الجبل الشاهق ، وإذا تسلقناه ووصلنا قمته وجدنا سطحاً مستوياً ، ووجدنا أمة بكامل لوازمها ، وقد لا يعلم بعض من فيه عن بقية العالم ، وهكذا ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ .

العشية : ما بين الزوال إلى الغروب ، والضحى : ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ، وهذا تحديد بنصف نهار .

وقد جاء التحديد بساعة من نهار .

وجاء (يوماً أو بعض يوم .

وجاء : (إن لبثتم إلا عشراً) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك عند قوله تعالى في سورة يونس : (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) ، وأحال على دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، وسيطبع إن شاء الله مع هذه التتمة .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ، أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ .

سبب نزول هذه السورة باتفاق المفسرين ، أنه صلى الله عليه وسلم كان مشغولا بدعوة صناديد قريش ، فأتاه ابن أم مكتوم ، وهو رجل أعمى وقال : « أقرئنى يا رسول الله ، وعلّمنى مما علمك الله » وكرر ذلك ، فلم يتفق ذلك وما هو مشتغل به صلى الله عليه وسلم ، ومايرجوه مما هو أعظم ، فعبس وتولى عنه منصرفا ، لما هو مشتغل به .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب على قوله تعالى : (أن جاءه الأعمى) ما نصه : عبّر تعالى عن هذا الصحابى الجليل الذى هو عبد الله ابن أم مكتوم ، بلقب يكرهه الناس ، مع أنه قال : (ولا تنابزوا بالألقاب) .

والجواب : هو مانبه عليه بعض العلماء : من أن السر فى التعبير عنه بلفظ الأعمى ، للاشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو كان يرى ما هو مشتغل به مع صناديد الكفار لما قطع كلامه . ا هـ . منه بلفظه .

وقال الفخر الرازى : إنه وإن كان أعمى لا يرى ، فإنه يسمع وبسماعه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإقدامه على مقاطعته يكون مرتكبا معصية ، فكيف يعاتب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكلامه هذا يشعر بأنه إن كان معذوراً لعدم الرؤية ، فليس معذوراً لإمكان سماعه ، ولكن ذكره بوصفه ليوجب العطف عليه والرفق به .

والظاهر والله تعالى أعلم : أن كلام الرازى ليس بعيداً عما ذكره الشيخ ، لأن معناه أنه عاقبه لعدم رفقه به . ومراعاة حالة عماه .

فعليه ، يكون ذكره بهذا الوصف من باب التعريض بغيره من أولئك الصناديد وسادة القوم ، وكأنه يقول لهم : (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ، فهذا كفيف البصر ، ولكن وقاد البصيرة أبصر الحق وآمن ، وجاء مع عماه يسعى طلباً للمزيد ، وأنتم تغلقت قلوبكم وعميت بصائركم فلم تدركوا الحقيقة ولم تبصروا نور الإيمان ، كما فى الآية الكريمة : (إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) والعلم عند الله تعالى .

تنبيــه

مما اتفق عليه المحدثون : جواز ذكر مثل هـذه الأوصاف إذا كانت للتعريف لا للتنقيص ، فقالوا : الأعمى والأعور والأعرج . وفي الحرف قالوا : الخراز ، والخرقي ، ونحو ذلك ، وهذا ما فيه مصلحة لترجمة الرجال في السند .

ومثله : ليس تنابزاً بالألقاب في هذا الفن . والله تعالى أعلم .

ومثله : إذا كان للتعريف في غرض سليم دون تنقص كما قدمنا .

وقوله تعالى (عبس وتولى) ، فان فيه مثل مافي قوله تعالى : (أن جاءه الأعمى) لأن العبوسة أمر لايتفق في الظاهر مع قوله تعالى في حقه صلى الله عليه وسلم ، (وإنك لعلى خلق عظيم) ، وقوله : (واخفض جناحك للمؤمنين) ؛ ولم أقف على جواب لذلك ، ولم يتعرض له الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب .

والذي يظهر والله تعالى أعلم ، أنه لايتأتى معه ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بما يسيء إلى هـذا الصحابي في نفسه بشيء يسمعه فيزعجه ، كل ما كان منه صلى الله عليه وسلم إنما هو تقطيب الجبين ، وهذه حركة مرئية لامسموعة .

والحال : أن هذا أعمى لايرى تلك الحركة ، فكأنه لم يلق إساءة منه صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم مطمئن له لما هو عليه من خير فى دينه. كما قال فى حنين: وأ كل أقواما إلى مافى قلوبهم، أى لما أعطى المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار على ماهو معروف فى القصة، فلم يعاتبه الله على ذلك؛ ورضى الأنصار وبكوا فرحاً ورضا.

ثم إن تقطيب الجبين وانبساط أسارير الوجه لحزن أو فرح، يكاد يكون جبليا مما كان منه صلى الله عليه وسلم، فهو من باب الجبلية تقريباً، كأن المثير له غرض عام من خصوص الرسالة ومهمتها.

ومع ذلك فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان بعد نزولها يقول له: « مرحباً فيمن عاتبنى فيه ربى »، ويكرمه، وقد استخلفه على المدينة مرتين.

وعلى هذا يكون المراد بهذا أمران:

الأول: التسامى بأخلاقه صلى الله عليه وسلم إلى ما لانهاية له، إلى حد اللحظ بالعين، والتقطيب بالجبين، ولو لمن لا يراه، كما قال صلى الله عليه وسلم « ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين » وذلك فى صلح الحديبية.

والثانى: تأديب للأمة وللدعاة خاصة، فى شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما علمهم فى شخصيته فى بر الوالدين، فى قوله تعالى: (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما).

وهذا السياق بكامله من أول السورة إلى قوله تعالى : (كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره) بيان لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يراعى فى الدعوة إلى الله غنياً ولا فقيرا ، وأن يصبر على ضعفة المؤمنين . لأن الرسالة تبليغ وليس عليه ما وراء ذلك من مسئولية ، فلا يتكلف لهم .

وقد حثه الله تعالى على الصبر مع المؤمنين ، لإيمانهم فى قوله تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

ومثله قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ومامن حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، شىء من هذا البيان عند هذه الآية ، وبين أن هذه التنبيه قد وقع من نبى الله نوح إلى قومه ، حينما ازدروا ضعفة المؤمنين فى قوله تعالى : (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادِىَ الرأى - إلى قوله - وأما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون) .

وقد دلت هذه الآية وأمثالها ، على صدق مقالة هرقل حينما سأل أبا سفيان ، عن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم : أهم سادة القوم أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم . فقال : هكذا هم أتباع الرسل .

وقال العلماء فى ذلك : لأنهم أقرب إلى الفطرة ، وأبعد عن السلطان والجاه ، فليس لديهم حرص على منصب يضيع ، ولا جاه يهدر ، ويجدون فى الدين عزاً ورفعة ، وهكذا كان بلال وصهيب وعمار ، وهكذا هو ابن أم مكتوم رضى الله عنهم .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ، فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ .

بيان لموقفه صلى الله عليه وسلم من جميع الأمة ، وحرصه على إسلام الجميع حتى من أعرض واستغنى ، شفقة بهم ورحمة ، كما بين تعالى حاله صلى الله عليه وسلم بقوله : (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) وكقوله (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

وقوله : (وما عليك ألا يزكى) بيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس عليه ممن لا يتزكى ، وقد صرح تعالى بذلك فى قوله (إنما أنت منذر) وقوله (إن عليك إلا البلاغ) ، وقوله : (ليس عليك هداهم) ، ومثل ذلك .

وقد جمع الأمرين من الجانبين فى قوله تعالى عن نوح عليه السلام (وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين) .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ، فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ، بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

معلوم أن كلمة : كلا : ردع عما سبق ، وهو فى جملته منصب على التصدى لمن استغنى ؟ والإلحاح عليهم والحرص على سماعهم منه ، ولكن الله تعالى يقول : إن منزلة القرآن والوحى والدين أعلى منزلة من أن تبذل لقوم هذه حالتهم فهى على ما هى عليه من تكريم ورفعة وطهرة وصيانة ، وما عليها من حفظة سفرة كرام بررة أحرى بأن يسعى إليها ، والخير لمن أتاها يطلبها

(فمن شاء ذكره) ، وهذا للتهديد لا للتخيير بدليل ما بعده (قتل الإنسان ما أكفره) قتل الإنسان : دعاء عليه ، والإنسان : للجنس الكافر ، وما أكفره : أى ما أشد كفره بها ، بعد هذا كله من علو منزلتها .

وقوله تعالى : (قتل الإنسان ما أكفره) قيل : ما أكفره هنا ، ما أفعله أى ما أشد كفره .

وقال الزمخشرى : هى تعجب من إفراطه فى كفران نعم الله .

وقيل : أى شىء حمله على التكذيب والكفر ؟ وكلها محتملة .

ولعل المعنى الأول أظهر لقوله قبله : قتل الإنسان ، ولمجىء هذا المعنى فى مواضع أخر : إن الإنسان لظلوم كفار ، وكذلك قوله فى قوله : (وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور) ، وهكذا صفة الجاحدين لآيات الله ، كما فى قوله (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) .

ثم رد تعالى عليه ذلك برده إياه إلى أصل خلقته ، ليتعظ من نفسه فى قوله تعالى (من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدّره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره) ، لأن هذه الثلاثة مسلم بها ، ورتب عليها الرابعة (ثم إذا شاء أنشره) .

وقوله : (من نطفة خلقه فقدره) تقدم مراراً بيان أصل خلق الإنسان وأطواره .

وقوله : (ثم السبيل يسره) قيل : السبيل إلى خروجه من بطن أمه ، حيث أدار رأسه إلى جهة الخروج ، بدلا مما كان عليه إلى أعلى ، وهذا من التيسير فى سبيل خروجه ، وهذا مروى عن ابن عباس وغيره ، وهو اختيار ابن جرير .

وقيل : السبيل : أى الدين فى وضوحه ، ويسر العمل به ، كقوله تعالى : (إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً) .

وهو مروى عن الحسن وابن زيد ، ورجحه ابن كثير .

ولعل ما رجحه ابن كثير هو الأرجح ، لأن تيسير الولادة أمر عام فى كل حيوان ، وهو مشاهد ملموس ، فلا مزية للانسان فيه على غيره ، كما أن ما قبله دال عليه أو على مدلوله ، وهو القدرة فى قوله تعالى : (من نطفة خلقه فقدره)

وقد يكون تيسير الولادة داخلا تحت قوله : فقدره . أى قدر تخلقه وزمن وجوده وزمن خروجه ، وتقديرات جسمه وقدر حياته ، وقدر مماته ، كما هو معلوم .

أما تيسير سبيل الدين ، فهو الخاص بالإنسان . وهو المطلوب التوجه إليه . وهو الذى يتعلق بغيره ما بين تخلقه من نطفة وتقديره . وبين إماتته وإقباره . أى فترة حياته فى الدنيا ، أى خلقه من نطفة وقدر مجيئه إلى الدنيا . ويسر له الدين فى التكاليف . ثم أماته ليرى ماذا عمل (ثم إذا شاء أنشره) .

ولذا جاء فى النهاية بقوله : كلا لما يقض ما أمره . وليس هنا ما يدل على الأمر . إلا السبيل يسره . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ، أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ

حَبًّا ، ثمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعِنَبًا وَقَضْبا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .

بعد ما بين له مم خلق ، بين له هنا كيف يطعمه ، وفى كليهما آية على القدرة .

وقد اتفقت الآيتان على خطوات ثلاث متطابقة فيهما . فصب الماء من السماء إلى الأرض . يقابل دفق الماء فى الرحم . وشق الأرض للنبات . يقابل خروجه إلى الدنيا . وإنبات أنواع النباتات ، يقابل تقادير الخلق المختلفة .

وفى التنصيص على أنواع النبات من حب وقضب وعنب ورمان وزيتون ونخيل وفواكه متعددة . وحدائق ملتفة . لظهور معنى المغايرة فيها ، مع أنها من أصلين مشتركين : الماء من السماء . والتربة فى الأرض ، يسقى بماء واحد .

ومرة أخرى . يقال للشيوعيين والدهريين : (قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه) . (أفرأيتم ماتمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾ . (أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً) .

إنهم بلا شك لايدعون لأنفسهم فعل شىء من ذلك . وإنهم ليعلمون أن لها خالقاً مدبراً . ولكنهم يكابرون .

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) صدق الله العظيم ، وكذب كل كفار أثيم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان خلق الإنسان فى مواطن متعددة سابقة آخرها فى سورة الرحمن (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) ، وبيان طعامه فى كل من سورتى الواقعة والجاثية .

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ .

الإسفار : الإضاءة، وهو تهلل الوجه بالسرور ، كما قال تعالى : (ولقاهم نضرة وسروراً) والاستبشار من تقدم البشرى فى قوله تعالى : (تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) .

وقوله تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشرا كم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار).

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك فى سورة الحديد .

وقوله تعالى : (ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة) بينهم تعالى بأنهم هم الكفرة الفجرة .

وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، فى سورة الرحمن على الكلام على قوله تعالى : (يعرف المجرمين بسيماهم) .

وقد جمع لهم هنا بين الكفر والفجور ، وهما الكفر فى الاعتقاد والفجور فى الأعمال ، كما فى قوله تعالى : (ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .

اختلف في معنى كورت هنا أكثر من عشرة أقوال ، وكلها تدور على نهاية أمرها :

فقيل : كورت : لف بعضها على بعض ، فانطمس نورها .

وقيل : حجبت بكارة ، أي لفت بها .

وقيل : ألقيت في البحر .

وقيل : دخلت في العرش

وقيل : اضمحلت .

وقيل : نكست .

وقال ابن جرير : نقول كما قال الله تعالى : (كورت) .

والذي يشهد له القرآن ، أن هذا كله راجع إلى تغير حالها في آخر أمرها ، لأن الله تعالى جعل لها أجلا مسمى ، ومعنى ذلك أنها تنتهي إليه على الوجه الذي يعلمه سبحانه وتعالى ، كما في قوله تعالى : (وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى) .

فمفهومه : أنه إذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها .

وهو ما يشير إليه قوله تعالى : (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر) أى بعد أن لم يجتمعا قط ، وما كان لهما أن يجتمعا قبل ذلك الوقت ، كما قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) .

ولعل أقرب الأقوال المنقولة فى ذلك : هو القول بأنه بمعنى نكست . أى ردت إلى حيث أتت ، كما فى الحديث ، فتطلع من مغربها ، وعليه فتجتمع مع القمر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ .

قيل : انكدرت انصبت ، وقيل: تغيرت من الكدرة ، وكلها متلازمة ولا تعارض .

ويشهد للأول قوله تعالى : (وإذا الكواكب انتثرت) .

ويشهد للثانى (فإذا النجوم طمست) لأنها إذا تناثرت وذهبت من أماكنها وتغير نظامها ، فقد ذهب نورها وطمست .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ .

أى ذهب بها من مكانها .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان حالة الجبال

فى نهاية الدنيا فى عدة مواطن . من أهمها عند قوله تعالى فى سوررة طه (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) ، وعنـد قوله تعالى من سورة الكهف : (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

الوأد : الثقل ، كما فى قوله تعالى : (ولا يؤوده حفظهما) .

والموءودة : المثقـلة بالتراب حتى الموت ، وهى الجارية ، كانت تدفن حية ، فكانوا يحفرون لها الحفرة ويلقونها فيها ، ثم يهيلون عليها التراب .

وقوله تعالى (: بأى ذنب قتلت) إشعار بأنه لاذنب لها ، فتقتل بسببه ، بل الجرم على قاتلها .

ولـكن لعظم الجرم يتوجه السؤال إليها تبكيتاً لوائدها .

وقد جاء عن عمر رضى الله عنه قوله : أمران فى الجاهلية . أحدهما : يبكينى والآخر يضحكنى .

أما الذى يبكينى : فقد ذهبت بابنة لى لوأدها ، فكنت أحفر لهـا الحفرة وتنفض التراب عن لحيتى وهى لاتدرى ماذا أريد لهـا ، فإذا تذكرت ذلك بكيت .

والأخرى : كنت أصنع إلهـاً من التمر أضعه عند رأسى يحرسنى ليلا ، فإذا أصبحت معافًى أكلته ، فإذا تذكرت ذلك ضحكت من نفسى .

أما سبب إقدامهم على هذه الجريمة الشنيعة وما دفعهم على ارتكابها، فقد ناقشه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بتوسع، عند قوله تعالى من سورة النحل (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم مايشتهون، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألاساء مايحكمون).

وبهذه المناسبة، فإن هنا تنبيهين لابد من إيرادهما.

الأول منهما : مايشبه الوأد فى هذه الآونة الحديثة، وهو التعرض لمنع الحمل بأى وسيلة كانت.

وقد بحثت هذه المسألة قديماً وحديثاً. أما قديماً ففى عملية العزل، وجاء فيه حديث جابر « كنا نعزل والقرآن ينزل » رواه مسلم.

زاد إسحاق قال سفيان : لو كان شيئا ينهى عنه لنهانا عنه القرآن. وجاء فيه : فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا.

كما جاء التحذير الشديد فى حديث جذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناس قال : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يغيلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً »، فسألوه عن العزل، فقال : « ذلك الوأد الخفى »

زاد عبد الله فى حديثه عن المقرى زيادة وهى : وإذا الموءودة سئلت

ففى الحديث الأول : مايفيد التقرير .

وفى الثانى : مايفيد شدة النكير .

وجاء فى صحيح مسلم أيضاً عن أبى سعيد « غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بنى المصطلق ، فسبينا كرائم العرب ، فطالت علينا الغربة ، ورغبنا فى الفداء ، فأردنا أن نستمتع ونعزل ، فقلنا : نفعل ذلك ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، لانسأله ، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لاعليكم ألا تفعلوا ما كتب الله خلق نسمة هى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون » .

وفى رواية : « إن الله كتب من هو خالق إلى يوم القيامة »

وفى رواية : « فقال لنا : وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون ، وإنكم لتفعلون . مامن نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا هى كائنة »

وفى رواية : « لاعليكم ألا تفعلوا ، فإنما هو القدر » .

قال أبو محمد : وقوله : لاعليكم أقرب إلى النهى .

وقال الحسن : والله لكان هذا زجراً ، فأنت ترى قوله صلى الله عليه وسلم : وإنكم لتفعلون ، مشعر بعدم علمه سابقاً ، مما يتعارض مع

الزيادة فى حديث جابر ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينهنا ، فبقى قول جابر ، مما يستدل به المجوزون ، ويعارضه : وهى الموءودة ، أو الوأد الخفى .

وكان الوأد عند العرب فى الجاهلية سببان :

الأول : اقتصادى ، خشية إملاق ، ومن إملاق حاضر .

والثانى : حمية وغيرة .

وقد رد القرآن عليهم فى السبب الأول ، فى قوله تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا) .

وقوله : (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) .

وأخيراً كان هذا التساؤل شديد التوبيخ لهم ، (وإذا الموءودة سئلت) .

وفى هـذه الآية أثيرت مرة أخرى وبشكل آخر أثارها أعداء المسلمين مكيدة للسذج ، فأثيرت من الناحية الاقتصادية .

وكان مبدؤها المعروف عند كتاب هذا العصر بنظرية « مالتس » والآن لغرض عسكرى لتقليل عدد جنود المسلمين ، حينما علم العدو أن الإسلام يبيح تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع ، فأرادوا أن يوقفوا هذا النمو .

ويكفى أن نورد هنا قوله صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تناسلوا فإنى مباهٍ بكم الأمم » .

وفى رواية « مكاثر بكم الأمم » .

وفيه « تزوجوا الولود الودود » ونحو ذلك .

وقد كنت جمعت فى ذلك بحثاً فى محاضرة وافية فى هذا الغرض ، من حيث السياسة والاقتصاد ، والدفاع مع عمل إحصائيات للدول التى تطالب بهذا العمل ، مما يدفع رأى كل قائل به .

والذى يهمنا فى هذا المقام تنبيه المسلمين ، إلى أن هذه الدعوة إلى تحديد أو تنظيم النسل منشؤها من اليهود ، وتشجيعها فى الشرق من دول الغرب ، وكثير من الدول الغربية تبذل المال الطائل لتفشى هذا الأمر فى دول الشرق الأوسط وخاصة الإسلامية والعربية .

التنبيه الثانى

وهو حول مايصرح به دعاة تحرير المرأة فى صورة مناصرة لها ، والواقع أنهم دعاة شقائها ومعاداة لها ، وهدم لما مكنها الله منه فى ظل الإسلام .

وذلك أن المرأة فى الجاهلية كانت هذه حالة من حالاتها توأد حية ، وتورث كالمتاع ، ومهملة الشخصية إلى غير ذلك . فحباها الإسلام مايثبت شخصيتها ابتداء من إيفائها حقها فى الحياة كالرجل ، ثم اختيارها فى الزواج ، وحقها فى الميراث إلى غير ذلك .

وقد تقدم الحديث عن ذلك فى عدة محلات، منها للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، عند قوله تعالى: (الرجال قوامون على النساء).

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴾.

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، بيان هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى من سورة الحج: (ومن الناس من يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير).

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾.

الزلفى: القربى، وأزلفت: قربت، وتقدم بيان ذلك للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة قٓ عند قوله تعالى: (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد).

قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾.

المراد بالنفس هنا: العموم، أى كل نفس، كما فى قوله تعالى: (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا) الآية.

قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ، ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ، وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ، إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾.

ظاهر قوله تعالى: (فلا أقسم) نفى القسم، ولكنه قسم قطعا،

بدليل التصريح بجواب القسم فى قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم) .

وبهذا يترجح ما تقدم فى أول سورة القيامة (لا أقسم بيوم القيامة) .

ومثل الآتى (لا أقسم بهذا البلد) .

تنبيه

يجمع المفسرون أن لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، لأنها دالة على قدرته ، وليس للمخلوق أن يحلف لا بالله تعالى .

ولكن هل فى المغايرة بما يقسم الله تعالى به معنى مقصود ، أم لمجرد الذكر ، وتعدد المقسم به ؟

وبعد التأمل ، ظهر والله تعالى أعلم ، أنه سبحانه لا يقسم بشىء فى موضع دون غيره ، إلا لغرض يتعلق بهذا الموضع ، يكون بين المقسم به ، والمقسم عليه مناسبة وارتباط ، وقد يظهر ذلك جلياً ، وقد يكون خفياً .

وهذا فعلا ما تقتضيه الحكمة والإعجاز فى القرآن ، وإن كنت لم أقف على بحث فيه .

ولكن مما يشير إلى هذا الموضوع ، ما جاء بالإقسام بمكة مرتين ، وفى حالتين متغايرتين .

الأولى : قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان فى كبد) .

والموضع الثانى : قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) .

فالمقسم به فى الموضعين : مكة المكرمة ، والمقسم عليه فى الموضعين خلق الإنسان ، ولكن فى الموضع الأول كان المقسم عليه مكابدة الإنسان من أول ولادته إلى نشأته ، إلى كده فى حياته ، إلى نهايته ومماته .

من ذلك مكابدته صلى الله عليه وسلم منذ ولادته إلى حيث مات أبوه قبله ، ولحقت به أمه ، وهو فى طفولته ، وبعد الوحى كابد مع قومه ولقى منهم عنتاً شديداً ، حتى تآمروا على قتله ، فلكأنه يقول له : اصبر على ذلك ، فإن المكابدة لابد منها ، وهى ملازمة للانسان كملازمتك لهذا البلد منذ ولادتك .

وفى ذكر (والد وما ولد) إشعار ببدء المكابدة ، وبأشدها من حالة الولادة وطبيعة الطفولة ، ولذا ذكر هنا هذا البلد بدون أى وصف .

أما فى الموضع الثانى : فالمقسم عليه ، وإن كان هو خلق الإنسان ، إلا أنه فى أحسن تقويم ، وهى أعظم نعمة عليه جاء بالمقسم به عرضا

للنعم ، وتعددها من التين والزيتون ، سواء كان المراد بهما الفاكهة المذكورة أو أماكنها ، وهو بيت المقدس مع طور سينين .

فجاء بمكة أيضاً ولكن بوصف مناسب فقال : (وهذا البلد الأمين) ، فكأنه يقول : إن من أنعم على تلك البقاع بالخير والبركة والقداسة ، أنعم على الإنسان بنعمة حسن خلقته وحسن تقويمه وفضله على سائر مخلوقاته . والله تعالى أعلم .

وهنا يقسم بحالات الكواكب على أصح الأقوال ، فى ظهورها واختفائها وجريانها ، وبالليل إذا عسعس : أقبل وأدبر ، أو أضاء وأظلم ، والصبح إذا تنفس : أى أظهر وأشرق ، وهما أثران من آثار الشمس فى غروبها وشروقها .

والمقسم عليه : هو أن القرآن قول رسول كريم كأنه يقول : إن القرآن المقسم عليه حاله فى الثبوت والظهور ، وحال الناس معه . كحال هذه الكواكب الثوابت لديكم فى ظهورها تارة ، واختفائها أخرى .

وكحال الليل والصبح ، فهو عند أناس موضع ثقة وهداية كالصبح فى إسفاره ، قلوبهم متفتحة إليه وعقولهم مهتدية به ، فهو لهم روح ونور ، وعند أناس مظلمة أمامه قلوبهم عمى عنه بصائرهم ، وفى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، وأناس تارة وتارة كالنجوم أحياناً ، وأحياناً ، تارة ينقدح نوره فى قلوبهم ، فتظهر معالمه فيسيرون معه ، وتارة يغيب

عنهم نوره فتخنس عنه عقولهم وتكنس دونه قلوبهم ، كما قال تعالى عنهم : (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) .

وليس بعيداً أن يقال : إنه من وجه آخر ، تعتبر النجوم كالكتب السابقة ، مضى عليها الظهور فى حينها والخفاء بعدها .

والليل إذا عسعس : هو ظلام الجاهلية .

والصبح إذا تنفس : يقابله ظهور الإسلام ، وأنه سينتشر انتشار ضوء النهار ، ولا تقوى قوة قط على حجبه ، وسيعم الآفاق كلها ، مهما وقفوا دونه (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) .

وقد يكون فى هذا الإيراد غرابة على بعض الناس ، ولاسيما وأنى لم أقف على بحث مستقل فيه ، ولا توجيه يشير إليه ، ولكن مع التتبع وجدت اطراده فى مواضع متعددة ، وجدير بأن يفرد برسالة

ومما اطرد فيه هذا التوجيه سورة الضحى ، يقول الله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وماقلى) فإن المقسم عليه عدم تركه صلى الله عليه وسلم ولا التخلى عنه ، فجاء بالمقسم به قسمى الزمن ليلا ونهاراً ، كأنه يقول له : ماقلاك ربك ولا تخلى عنك ، لا فى ضحى النهار حيث تنطلق لسعيك ، ولا فى ظلمة الليل حين تأوى إلى بيتك .

ومعلوم ما كان من عمه أبى طالب حينما كان يجعله ينام مع أولاده ليلا ، حتى إذا أخذ الجميع مضاجعهم يأتى خفية فيقيمه من مكانه . ويضع أحد أولاده محله ، حتى لو كان أحد نواه بسوء ، وقد رآه فى مكانه الأول يصادف ولده ، ويسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (وللآخرة خير لك من الأولى) أى من كل ماطلعت عليه الشمس وسجاه الليل .

ومنه أيضاً : وهو أشد ظهوراً فى سورة العصر قال تعـــالى : (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا) إلى آخر السورة . فإن المقسم عليه هو حالة الإنسان ، الغالية عليه من خسر ، إلا من استثنى الله تعالى ، فكان المقسم به ، والعصر للعاصر للانسان : طيلة حياته وهو محل عمله ، الذى به يخسر ويربح ، وهو معاصر له وأصدق شاهد عليه .

وكنت قد سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه يقول : أن العمر وزمن الحياة حجة على الانسان كالرسالة والنذارة سواء ، وذكر قوله تعالى : (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) ، فجعل فى الآية التعمير ، وهو إشغال العمر موجباً للتذكر والتأمل ، ومهلة للعمل ، كما تخبر إنساناً بأمر ثم تمهله إلى أن يفعل ما مر به ، فهو أمكن فى الحجة عليه .

فكان القسم في العصر على الربح والخسران ، أنسب مايكون بينهما ، إذ جعلت حياة الانسان كسوق قائمة والسلعة فيه العمل والعامل هو الانسان . كما قال تعالى : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله) .

وفي الحديث الصحيح عند مسلم : « سبحان الله تملأ الميزان ، وفيه كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ، فإن كان يشغل عمره في الخير فقد ربح ، وأعتق نفسه وإلا فقد خسر وأهلكها » .

ويشير لذلك أيضاً قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) .

فصح أن الدنيا سوق ، والسلعة فيها عمل الإنسان ، والمعاملة فيه مع الله تعالى ، فظهر الربط والمناسبة مع المقسم به ، والمقسم عليه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

أجمعوا على أن المراد بالقول هو القرآن ، وأما المراد بالرسول الكريم جبريل عليه السلام بدليل قوله تعالى : (ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثمّ أمين . وما صاحبكم بمجنون) .

فصاحبكم هنا : هو محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي صحبهم منذ ولادته وذو القوة عند ذي العرش : هو جبريل عليه السلام ، وفي إسناد القول

إليه ماقد يثير شبهة أن القول منه ، مع أنه كلام الله تعالى .

وقد أجاب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب ، بإيراد النصوص الصريحة فى أن القرآن كلام الله تعالى ، وقال : وإن فى نفس هذه الآية مايرد هذه الشبهة ، ويثبت تلك الحقيقة ، وهى قوله تعالى : (لقول رسول) لأن الرسول لا يأتى بقول من عنده ، وإنما القول الذى جاء به هو ما أرسل به من غيره، إلى ما أرسل إليه به .

تنبيه

فى وصف جبريل عليه السلام بتلك الأوصاف

نص فى تمكينه من حفظ ما أرسل به ، وصيانته عن التغيير والتبديل ، لأنه مكين ، فلايصل إليه مايخل برسالته ، ولأنه مطاع ثم . والمطاع لايؤثر عليه غيره ، والأمين لايخون ولا يبدل ، فكان القرآن الذى جاء به مصوناً من أن يتسلط أحد عليه فيغيره، ومن أن يغيره الذى جاء به ، وهذا كله بمثابة الترجمة لسند تلقى القرآن الكريم .

وقوله : (وما صاحبكم بمجنون) بيان لتتمة السند ، حيث قال : (ولقد رآه بالأفق المبين وماهو على الغيب بضنين) ، فنفى عنه صلى الله عليه وسلم نقص التلقى بنفى آفة الجنون ، فهو فى كمال العقل

وقوة الإدراك ، ومن قبل أثبت له كمال الخلق (وإنك لعلى خلق عظيم) .

وأثبت له اللقيا ، فلم يلتبس عليه جبريل بغيره ، وهى أعلى درجات السند ، فاجتمع له صلى الله عليه وسلم الكمال الخلقى .

والكمال الخلقى — بضم الخاء وكسرها — أى الكمال حساً ومعنى ، ثم نفى عنه التهمة بأن يضن بشىء مما أرسل به مع نفاسته وعلو منزلته وجليل علومه ، وأنه كلام رب العالمين .

وفى الختام إفهامهم : بأنه ليس بقول شيطان رجيم ، حيث تقدم (إنهم عن السمع لمعزولون) .

وأن من يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، فلم يبق لهم موجب للانصراف عنه ، وألزموا بالأخذ به حيث أصبح من الثابت أنه كلام الله ، جاء به رسول كريم ، وبلغه لصاحبكم صاحب الخلق العظيم ، وليس بقول شيطان رجيم .

فلزمهم الأخذ به ، وإلا فأين تذهبون . أين تسيرون عنه ، بعد أن ثبت لكم سنده ومصدره ؟

ونظير هذا السند فى تمجيد القرآن وإثبات تيانه من الله ، قوله تعالى فى أول سورة النجم : (وما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى) .

وقوله تعالى : (فأين تذهبون) بمثابة من يسد عليهم الطريق إلا له لأنه — أى القرآن — ليس فى نزوله من الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم أى شبهة ولا تهمة ، فليس للعاقل أن يحيد عنه ، وكل ذهاب إلى غيره لطرق مسدود ، وضلال وهلاك .

قوله تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ .

أى بعد هذا البيان وقوة هذا السند ، ولظهار ثبوت الرسالة ، فقد أعذر من أنذر ، لمن شاء منكم أن يستقيم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فيه قضية القدر والإرادة الكونية والقدرية .

وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى عدة مواطن .

منها فى سورة الزخرف عند قوله تعالى : (لوشاء الرحمن ماعبدناهم) وفيها مناظرة المعتزلى مع السنى .

ومنها فى سورة الذاريات : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق) ، والفرق بين الإرادة الكونية والقدرية .

تنبيه

إذا كان الكثيرون يستدلون فى قضية القضاء والقدر بهذه الآية ،

فإنه ينبغى ألا تغفل أهميتها فى جانب الضراعة إلى الله دائما ، بطلب التفضل من الله تعالى علينا بالمشيئة بالاستقامة فضلا من عنده ، كما أمرنا فى الصلاة فى كل ركعة منهـا أن نطلبه هـذا الطلب (اهدنا الصراط المستقيم) .

تنبيه آخر

لقد أجملت الاستقامة هنا ، وهى منبه عليها فى سورة الفاتحة : إلى صراط الذين أنعم الله عليهم ، كما هو معلوم . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ انفَطَرَتْ ﴾ .

أي انشقت ، كما في سورة الانشقاق (إذا السماء انشقت) قيل: هيبة لله .

وقيل : لنزول للملائكة ، كقوله تعالى : (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، في سورة الشورى عند الكلام على قوله تعالى في وصف أهوال القيامة (يوما يجعل الولدان شيبا . السماء منفطر به) .

ومثل الانفطار والتشقق الانفراج ، كقوله : (فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ .

أي بعثر من فيها . كما في قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور) .

وقد دل هذا اللفظ على سرعة الانتشار ، كبعثرة الحب من الكف

كما فى قوله تعالى : (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة قٓ عند قوله تعالى : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا)

قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

أى كل نفس ، كما تقدم فى سورة التكوير .

وقد تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه على ذلك فى دفع إيهام الاضطراب فى سورة الانفطار هذه ، عند نفس الآية .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك فى سورة الكهف عند قوله تعالى : (قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) أى هذه أطوار الإنسان فى خلقته .

ومما يشهد لحسن الخلقة ، وكمال الصورة قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) .

واختلاف الصور إنما هو من آيات الله وابتداء من الرحم ،

كما قال : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) .

وتقدم فى سورة الحشر (هو الله الخالق البارىء المصور) .

وفى اختلاف الصور على تشابهها من أعظم آيات الله تعالى

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ، كِرَامًا كَاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك فى سورة قۤ عند الكلام على قوله تعالى : (إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وأحال عندها على بعض ماجاء فى سورة مريم عند قوله تعالى : (كلا سنكتب مايقول) .

وبين رحمة الله تعالى علينا وعليه أن هذه الكتابة لإقامة الحجة على الإنسان ، كما فى قوله : (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) .

وقيل فى حافظين : يحفظون بدن الإنسان .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الأنعام عند الكلام على قوله تعالى : (ويرسل عليكم حفظة) مستدلا بقوله تعالى : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله)

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن فى وصف الحفظة هنـا بهذه الصفات ، من كونهم حافظين كراما يعلمون ، فاجتمعت لهم كل صفات التأهيل ، لا على درجات الـكناية من حفظ وعلو منزلة ، وعلم بما يكتبون .

وكأنه توجيه لما ينبغى لولاة الأمور مراعاته فى استكتاب الكتاب والأمناء .

ولذا قالوا : على القاضى أن يتخير كاتباً أميناً حسن الخط فاهما .

ومن هذا الوصف يعلم أنه لايختلط عليهم عمل بعمل ، وكونهم حفظة لايضيعون شيئـاً ، ولوكان مثقال الذرة (فمن يعمل مثقـال ذرة خير يره) الآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ .

أى دائم ، كما فى قوله تعالى : (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً) .

قوله تعالى ﴿ وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾

دال من دلة خلود الـكفار فى النار .

لقوله : (وإن الفجـار لفى جحيم ، يصلونهـا يوم الدين ، وماهم عنها بغائبين) .

كقوله تعالى : وقال الذين تبعوا لو ان لنا كرة فنتبرأ منهم ،

كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار) .

وهكذا غالبا أسلوب المقابلة بين الفريقين ومآلهما .

ثم بين أن ذلك يوم الدين وهو يوم الجزاء ، كما تقدم فى سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) .

ثم بين تعالى شدة الهول فى ذلك اليوم (وما أدراك ما يوم الدين).

وتقدم فى (الحاقة ما الحاقة) .

ومثله قوله تعالى : (القارعة ما القارعة) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ .

أى لشدة هوله وضعف الخلائق ، كما تقدم فى قوله تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) ، وقوله : (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

ولحديث الشفاعة : « كل نبى يقول : نفسى نفسى ، إلى أن تنتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها » .

وحديث فاطمة : « اعملى .... »

وقوله تعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) ، ونحو ذلك .

وقوله : (والأمر يومئذ لله) ظاهر هذه الآية تقييد الأمر بالظرف المذكور ، ولكن الأمر لله فى ذلك اليوم ، وقبل ذلك اليوم ، كما فى قوله تعالى : (لله الأمر من قبل ومن بعد) .

و بقوله : (ألا له الخلق والأمر) أى يتصرف فى خلقه بما يشاء من أمره لايشركه أحد ، كما لايشركه أحد فى خلقه .

ولذا قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (قل إن الأمر كله لله) .

وقال : (ليس لك من الأمر شىء) ونحو ذلك .

ولكن جاء الظرف هنا لزيادة تأكيد ، لأنه قد يكون فى الدنيا لبعض الناس بعض الأوامر ، كما فى مثل قوله تعالى : (وأمر أهلك بالصلاة) .

وقوله : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

وقوله : (فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد) ، وهى كلها فى الواقع أوامر نسبية . وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

ولكن يوم القيامة حقيقة الأمر كله ، والملك كله لله تعالى وحده ، لقوله تعالى : (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

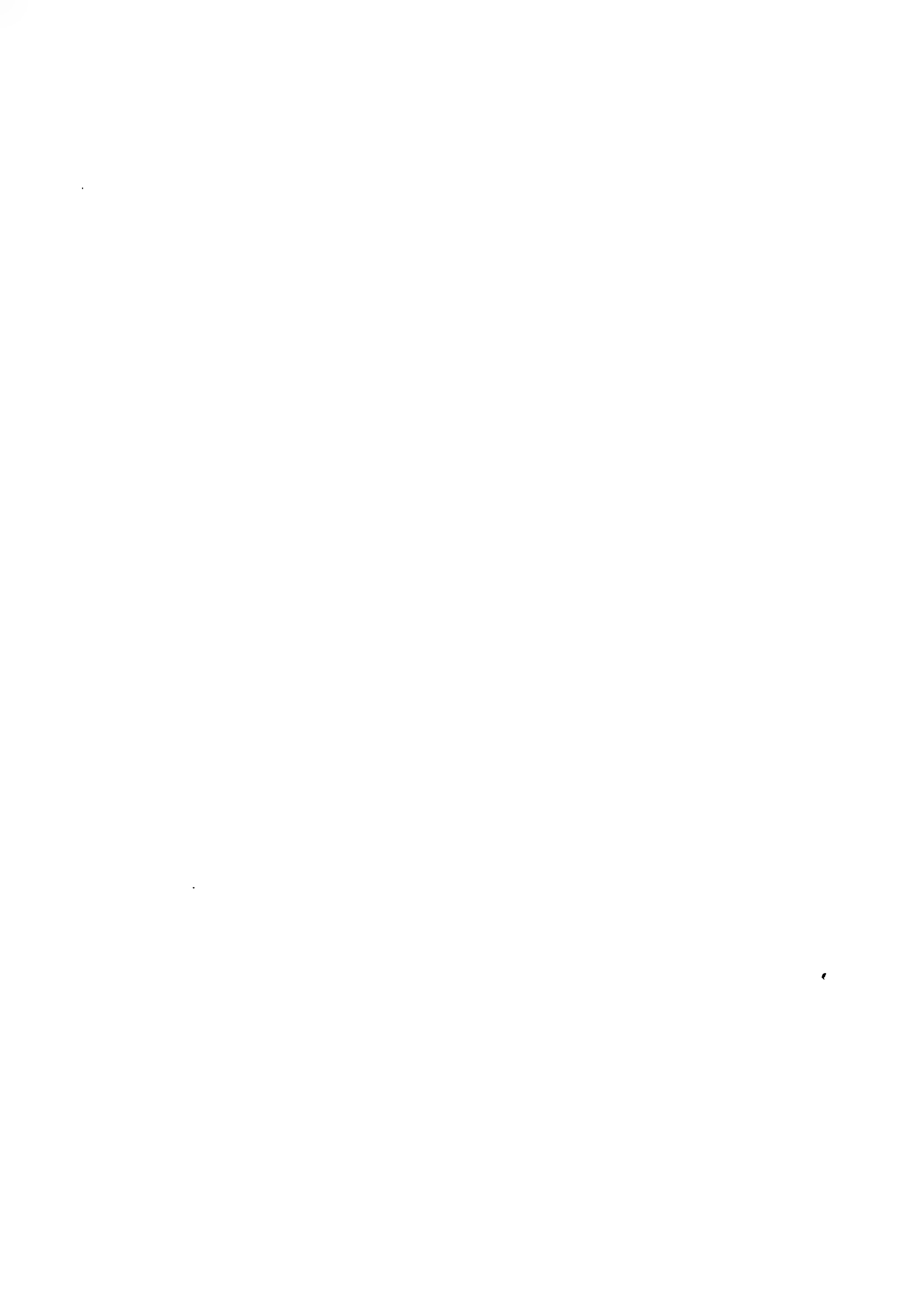
فلا أمر مع أمره ، ولا متقدم عليه حى ولا بكلمة ، إلا من أذن

له الرحمن وقال صوابا ، وهو كقوله : (الملك يومئذ الحق للرحمن) مع أن هنـا فى الدنيـا ملوكا ، كما فى قصـة يوسف ، (وقال الملك : ائتونى به) .

وفى قصة الخضر وموسى (وكان وراءهم ملك)

أما يوم القيامة فيكونون كما قال تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم) .

وكقوله : (هلك عنى سلطانيه) ، فقـد ذهب كل سلطان وكل ملك ، والملك يومئذ لله الواحد القهار .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المطففين



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .

التطفيف : التنقيص من الطفيف ، وهو الشىء القليل .

وقد فسره ما بعده فى قوله تعالى (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) .

قالوا : نزلت فى رجل كان له مكيالان كبير وصغير ، إذا اكتال لنفسه على غيره ، اكتال بالمكيل الكبير ، وإذا كال من عنده لغيره ، اكتال بالمكيل الصغير ، ففى كلتا الحالتين تطفيف ، أى تنقيص على الناس من حقوقهم .

والتقديم فى افتتاحية هذه السورة بالويل للمطففين ، يشعر بشدة خطر هذا العمل ، وهو فعلا خطيراً ، لأنه مقياس اقتصاد العالم وميزان التعامل ، فإذا اختل أحدث خللا فى اقتصاده ، وبالتالى اختلال فى التعامل ، وهو فساد كبير .

وأكبر من هذا كله ، وجود الربا إذا بيع جنس بجنسه ، وحصل تفاوت فى الكيل أو الوزن .

وفيه كما قال تعالى : (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) .

ولذا فقد ورد ذكر الكيل والوزن ، والحث على العناية بهما في عدة مواطن ، بعدة أساليب منها الخاص ومنها العام .

فقد ورد في الأنعام والأعراف وهود وبني إسرائيل والرحمن والحديد ، أي في ست سور من القرآن الكريم .

أولا في سورة الأنعام ، في سياق ما يعرف بالوصايا العشر : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) . وذكر برّ الوالدين والنهي عن قتل الأولاد والقرب من الفواحش ، وقتل النفس التي حرم الله ، والنهي عن مال اليتيم .

ثم قال : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها . وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عندها كلاماً موجزاً مفيداً ، بأن الأمر هنا بقدر الوسع ، ومن أخل من غير قصد التعدي ، لا حرج عليه .

وقال : ولم يذكر هنا عقوبة لمن تعمد ذلك ، ولكنه توعده بالويل في موضع آخر ، وساق أول هذه السورة : (ويل للمطففين) .

كما بين عاقبة الوفاء بالكيل بقوله : (ذلك خير وأحسن تأويلا) أى مآلا .

وهنا يلفت كلامه رحمه الله النظر إلى نقطة هامة . وهى فى قوله تعالى : (لا نكلف نفساً إلا وسعها) حيث إن التطفيف الزيادة الطفيفة ، والشىء الطفيف القليل .

فكأن الآية هنا تقول : تحروا بقدر المستطاع من التطفيف ولو يسيراً .

وبعد بذل الجهد لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وهذا غاية فى التحرى مع شدة التحذير والتوعد بالويل ، وإذا كان الوعيد بالويل على الشىء الطفيف ، فما فوقه من باب أولى .

الموضع الثانى فى سورة الأعراف من قوله تعالى : (وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين) .

فاقترن الأمر بالوفاء بالكيل ، بالأمر بعبادة الله وحده ، لأن فى الأمرين إعطاء كل ذى حق حقه ، من غير ما نقص .

وبين أن فى عدم الإيفاء المطلوب بخس الناس أشياءهم ، وفساد فى الأرض بعد إصلاحها .

الموضع الثالث فى سورة هود ، ومع شعيب أيضاً : (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) .

وبنفس الأسلوب أيضاً كما تقدم ، ربطه بعبادة الله تعالى وحده ، وتكرار الأمر بعد النهى ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، ثم أوفوا الكيل والميزان بالقسط نهى عن نقصه ، وأمر بإيفائه نص على المفهوم بالتأكيد . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، مع التوجيه بأن ما عند الله خير لهم .

الموضع الرابع فى سورة بنى إسرائيل (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) أى اعتدال فى الإنفاق مع نفسه ، فضلا عن غيره ، ثم إن الله يبسط الرزق لمن يشاء ، ثم (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) وكلها فى مجال الاقتصاد وبعدها (ولا تقربوا الزنا) (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) .

وقد يكون الباعث عليهما أيضاً غرض مالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) ، وهو من أخص أبواب المال .

ثم الوفاء بالعهد ثم (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا) ، فمع ضروريات الحياة حفظ النفس والعرض والمال يأتى الحفاظ على الكيل والوزن .

الموضع الخامس فى سورة الشورى وهو أعم مما تقدم ، وجعله مقرونا بإنزال الكتاب فى قوله تعالى : (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ومايدريك لعل الساعة قريب) .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند هذه الآية ، بما أشرنا إلى أنه عام ، فقال : الميزان هنا مراد به العدل والإنصاف ، وأن هذا المعنى متضمن آلة الوزن وزيادة .

وأورد بقية الآيات هنا فى مبحث مفصل ، فذكر آية الرحمن وآية الحديد ، وتكلم على الجميع بالتفصيل .

وفى قوله تعالى فى سورة الرحمن : (والسماء رفعها ووضع الميزان) مقابلة عظيمة بين رفع السماء الذى هو حق وعدل وقدرة ، والميزان وضعه فى الأرض ، لتقوموا بالعدل والإنصاف ، وبهذا العدل قامت السماوات والأرض .

وفى سورة الحديد اقتران الميزان بإرسال الرسل وإنزال الكتب (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) .

ومعلوم أن الميزان الذى أنزل مع الكتاب هو ميزان الحق

والعدل ، والنهى عن أكل أموال الناس بغير حق ، وعدم بخس الناس أشياءهم .

فكانت هذه الآية أعم وأشمل آيات الوفاء فى الكيل والوزن، بمثابة قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) .

وقد جمع لفظ الأمانة ليعم به كل ما يمكن أن يؤتمن الإنسان عليه .

وكذلك هنا الميزان مع الكتاب المنزل ، وبه يستوفى كل إنسان حقه فى أى نوع من أنواع التعامل ، فكل من غش فى سلعة أو دلّس أو زاد فى عدد ، أو نقص أو زاد فى ذر ، أو نقص فهو مطفف للكيل ، داخل تحت الوعيد بالويل .

فمن باع ذهباً مثلا على أنه صافٍ من الغش وزن درهم، وفيه من النحاس عشر الدرهم ، فقد نقص وطفف لنفسه فأخذ حق درهم كامل . ذهبا ، ونقص حيث أعطى درهما إلا عشراً

ومن باع رطلا سمنا وفيه عشر الرطل شحماً ، فقد طفف بمقدار هذا العشر لنفسه ، ونقص وبخس المشترى بمقدار ذلك :

وهكذا من باع ثوبا عشر أمتار وهو ينقص ربع المتر فقد طفف وبخس بمقدار هذا الربع .

وهكذا فى القسمة بين الناس وبين الأولاد ، وبين الأهل وكل ما فيه عطاء ، وأخذ بين اثنين ، والله تعالى أعلم .

ومن باب مايذكره العلماء فى مناسبات السور بعضها من بعض .

فقد قال أبوحيان لما ذكر السورة التى قبلها مصير الأبرار والفجار يوم القيامة ، ذكر هنا من موجبات ذلك وأهمها تطفيف الكيل ، وبخس الوزن ، وهذا فى الجملة متوجه ، ولكن صريح قوله تعالى فى السورة السابقة (وإذا القبور بعثرت علمت نفس ماقدمت وأخرت) فهو وإن كان عاما فى كل ماقدمه لنفسه من عمل الخير ، وما أخر من أداء الواجبات عليه ، فإنه يتضمن أيضاً خصوص ماقدم من وفاء فى الكيل ورجحان فى الوزن ، وما أخر من تطفيف فى الكيل وبخس طمعاً فى المال وجمعاً للتراث ، كما قال تعالى : (وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حباً جما ، كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول ياليتنى قدمت لحياتى) .

ومن هنا يعلم للعاقل أن ماطفف من كيل أو بخس من وزن ، مهما جمع منه ، فإنه يؤخره وراءه ومسئول عنه ، ونادم عليه ، وقائل: ياليتنى قدمت لحياتى ، ولات ساعة مندم .

قوله تعالى ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

تقريع وتوبيخ لهؤلاء الناس ، وفيه مسألتان :

الأولى : أن الباعث على هذا العمل هو عدم اليقين بالبعث أو

اليقين موجود ، لكنهم يعملون على غير الموقنين أى غير مبالين ، كما قال الشاعر فى مثل ذلك ، وهو مايسمى فى البلاغة بلازم الفائدة :

جاء شقيق عارضا رمحه إن بنى عمك فيهم رماح

فالمتكلم يعلم أن شقيقا عالم بوجود الرماح فى بنى عمه ، وأنهم مستعدون للحرب معه ، ولكنه رأى منه عدم المبالاة وعدم الاستعداد ، بأن وضع رمحه أمامه معترضا فهو بمنزلة من لايؤمن بوجود الرماح فى بنى عمه ، وهو لم يرد بكلامه معه أن يخبره بأمر يجهله ، ولكنه أراد أن ينبهه لما يجب عليه فعله من التأهب والاستعداد ، وهكذا هنا ، وهذا عام فى كل مسوّف ومتساهل كما جاء : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » إلخ .

أى وهو مؤمن بالإيمان ولوازمه من الجزاء والحساب .

المسألة الثانية من قوله تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) يفهم أن مطفف الكيل والوزن وهم يعلمون هذا حقيقة غالبا ولا يطلع عليه الطرف الآخر ، فيكون الله تعالى هو المطلع على فعله ، فهو الذى سيحاسبه ويناقشه ، لأنه خان الله الذي لاتخفى عليه خافية سبحانه ، ولذا قال تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين ولم يقل : يوم يقتص لكل إنسان من غريمه ، ويستوفى كل ذى حق حقه .

تحـــــذير شديد

قال القرطبي عند هذه الآية : وعن عبـد الملك بن مروان أن أعرابيا قال له : قد سمعت ما قال الله في المطففين ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن . ا هـ .

إنها مقالة ينبغي أن تقال لكل آ كل أموال الناس بغير حق أياً كان هو ، وبأى وجه يكون ذلك .

تنبيـــــه

من المعلوم أن كل متبايعين يطلب كل منهما الأحظ لنفســه ، فالمطفف لابد أن يخفى طريقه على غريمه .

وذكر علمــاء الحسبة طرقا عديدة مما ينبغي لولى الأمر خاصة ، والمتعامل مع غيره عامة ، أن يتنبه لهـا .

من ذلك قالوا ، أولا من ناحية المكيال قد يكون جرم المكيال ليناً فيضغطه بين يديه ، فتتقــارب جوانبه فينقص مايحتوى عليه ، ولذا يجب أن يكون إناء الـكيل صلبـا ، والغالب جعله من الخشب أو مايعادله .

ومنها : أنه قد يـكون خشباً منقوراً من جوفه ، ولـكن لايبلغ

بالتجويف إلى نهاية المقدار المطلوب ، فيرى من خارجه كبيرا ، ولكنه من الداخل صغير لقرب قعره .

ومنها : قد يكون منقوراً إلى نهاية الحد المطلوب ، ولكنه يدخل فيه شيئاً يشغل فراغه من أسفله ، ويثبته فى قعره . فينقص مايكال بقدر مايشغل الفراغ المذكور ، فقد يضع ورقا أو خرقا أو جبسا أو نحو ذلك .

ثانياً : من ناحية الميزان قد يبرد السنج ، أى معايير الوزن حتى ينقص وزنها ، وقد يجوف منها شيئاً ويملأ التجويف بمادة أخف منها .

ولذا يجب أن يتفقد أجزاء المعايير ، وقد يتخذ معايراً من الحجر فتتناقص بكثرة الاستعمال بسبب مايتحتت منها على طول الأيام .

ومنها : أن يضع تحت الكفة التى يزن فيها السلعة شيئاً مثقلا لاصقا فيها ، لينتقص من الموزون بقدر هذا الشيء .

ولكيلا يظهر هذا ، فتراه دائما يضع المعيار فى الكفة الثانية لتكون راجحة بها .

وهناك أنواع كثيرة ، كأن يطرح السلعة فى الكفة بقوة ، فترجح بسبب قوة الدفع ، فيأخذ السلعة حالا قبل أن ترجع إلى أعلا ، موهما الناظر أنها راجحة بالميزان .

أما آلة الذرع فقد يكون المقياس كاملا وافيا ، ولكنه بعد أن يقيس المتر الأول يدفع بالآلة إلى الخلف ، ويسحب بالمذروع إلى الأمام بمقدار الكف مثلا ، فيكون النقص من المذروع بقدر ماسحب من القماش .

وكلها أمور قد تخفى على كثير من الناس ، وقد وقع لى مع بائع أن لاحظت عليه فى ميزان مما يرفعه بيده حتى أعاد الوزن خمس مرات فى كل مرة ، يأتى بطريقة تغاير الأخرى ، حتى قضى ماعنده فالتفت إلىّ وقال لى : لا أبيع بهذا السعر ، فقلت له : خذ ماتريد وزن كما أريد ، فطلب ضعف الثمن فأعطيته فأعطانى الميزان لأزن بنفسى .

وهنا ينبغى أن ننبه على حالات الباعة حينما يكون السعر مرتفعا ونجد بائعا يبيع برخص ، فقد يكون لعلة فى الوزن أو فى السلعة أو مضرة الآخر .

تنبيه آخر

بهذه الأسباب وحقائقها وشدة خطرها كان عمر رضى الله عنه يتجول فى السوق بنفسه ، ويتفقد المكيال والميزان . يخرج من السوق من يجد فى مكياله أو ميزانه نقصانا ، ويقول : لاتمنع عنا المطر .

وهكذا يجب على ولاة الأمور تفقد ذلك باستمرار ، ولا سيما فى البلاد التى يقل فيها الوازع الدينى وتشتد فيها الأسعار ، بما يلجىء الباعة إلى التحايل أو العناد .

وقد منع عمر بائع زبيب أرخص السعر لعلمه أن تاجراً قدم ومعه زبيب بكثرة ، فقيل لعمر : لماذا منعت البيع برخص ؟ فقال : لأنه يفسد السوق ، فيخسر القادم فيمتنع من الجلب إلى المدينة ، وهذا قد رجح من قبل .

تنبيه آخر

مما ينبغى أن يعلم أن نوع المكيال ومقداره ونوع الميزان ومقداره مرجعه إلى السلطان ، كما قال علماء الحسبة : أن على الأمة أن تطيع السلطان فى أربع : فى نوع المكيال والميزان ، ونوع العملة التى يطرحها للتعامل بها ، وإعلان الحرب أو قبول الصلح .

فإذا اتخذ الصاع أو المد أو الكيلة أو الويبة أو القدح ، أو أى نوع كبيراً كان أو صغيرا ، فيجب التقييد به فى الأسواق .

وكذلك الوزن اتخذ الدرهم والأوقية والرطل أو الأقة أو اتخذ الجرام والكيلو فكل ذلك له .

أما إذا كان الأمر بين اثنين فى قسمة مثلا كقسمة صبرة من حب فتراضوا على أن يقتسموها بإناء كبير للسرعة وكان مضبوطا ، لاتختلف به المرات ، بأن يكون صلبا ويمكن الكيل به .

أو كذلك الوزن اتفقوا على قطعة حديد معينة ، لكل واحد وزنها

عدة مرات فلا بأس بذلك ، لأن الغرض قسمة المجموع لامثامنة على
على الأجزاء .

أما المكاييل الإسلامية الأساسية والموازين، فقد تقدم بيانها من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى زكاة مايخرج من الأرض ، وزكاة النقدين ، وقدمنا بيان مقابلها بالوزن الحديث فى زكاة الفطر ، عند قوله تعالى : (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وبالله تعالى التوفيق .

غريبـة

فى ليـلة الفراغ من كتابة هذا المبحث رأيت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيما يرى النـائم ، وبعد أن ذهب عنى رأيت من يقول لى : إن التطفيف الكيل والوزن دخلا فى الربا ، فألحقته فى أول البحث ، بعد أن تأملته فوجدته صحيحاً بسبب المفاضلة .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

ران : بمعنى غطى كما فى الحديث « إذا أذنب العبد نكت فى قلبه نـكتة سوداء ، ومايزال كذلك حتى يغطيه » الحديث .

وقال الشاعر :

وكم ران من ذنب على قلب فاجر   فتاب من الذنب الذى ران فانجلى

وقال أبوحيان : وأصل الرين : الغلبة : يقال : رانت الخمر على عقل شاربها واشتدت :

ثم لما رآه رانت به الخمـــر وألا يريه باتقاء

بيان القراءات فى هذه الآية :

قال أبوحيان : قرىء بل ران بإدغام اللام فى الراء وبالإظهار وقف حفص على بل وقفاً خفيفاً يسيراً ليتبين الإظهار .

وقال أبوجعفر بن الباذش : وأجمعوا ، يعنى القراء ، على إدغام اللام فى الراء ، إلا ما كان من سكت حفص على بل ، ثم يقول : ران .

وهذا الذى ذكره كما ذكر من الإجماع .

ففى كتاب اللوامع عن قالون من جميع طرقه : إظهار اللام عند الراء نحو قوله : بل رفعه الله إليه بل ربكم .

وفى كتاب ابن عطية . وقرأ نافع : بل ران من غير مدغم .

وفيه أيضاً : وقرأ نافع أيضاً : بالادغام والإمالة .

وقال سيبويه : البيان والإدغام حسنان .

وقال الزمخشرى : وقرئ بإدغام اللام فى الراء ، وبالإظهار والإدغام أجود ، وأميلت الألف وفخمت . اهـ .

أما المعنى فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان ذلك وافيا فى سورة الكهف عند الكلام على قوله تعالى : (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) الآية .

قوله تعالى : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ .

توجيه إلى ما ينبغى أن تكون فيه المنافسة ، وهى بمعنى الرغبة فى الشىء .

قال أبو حيان : نافس فى الشىء رغب فيه ، ونفست عليه بالشىء أنفس نفاسة ، إذا بخلت به عليه ولم تحب أن يصير إليه .

والذى يظهر لى والله تعالى أعلم : أن ذلك من المطالبة والمكاثرة بالشىء النفيس ، فكل يسابق إليه ليحوزه لنفسه .

وفى هذه الآية الكريمة لفت لأول السورة ، إذا كان أولئك يسعون لجمع المال بالتطفيف ، فلهم الويل يوم القيامة .

وإذا كان الأبرار لفى نعيم يوم القيامة ، وهذا شرابهم ، فهذا هو محل المنافسة ، لا فى التطفيف من الحب أو أى مكيل أو موزون .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ .

وصفهم بالإجرام هنا يشعر بأنه السبب فى ضحكهم من المؤمنين

وتغامزهم بهم ، وتقدم فى سورة البقرة بيان موجب آخر فى قوله تعالى :
(زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا) .

وقد بين تعالى فى سورة البقرة أن الذين اتقوا فوق هؤلاء يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب .

وتكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هناك ، وأحال على هذه الآية فى البيان لنوع السخرية ، وزاد البيان فى سورة الأحقاف على قوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه) .

ومن الدافع لهم على هذا القول ونتيجة قولهم ، وساق آية المطففين عندها ، وكذلك عند أول سورة الواقعة على قوله تعالى (خافضة رافعة) .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن هذه الحالة ليست خاصة بهذه الأمة ، بل تقدم التنبيه على أنها فى غيرها ممن تقدم من الأمم .

ففى قوم نوح : (ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه)

وكان نفس الجواب عليهم : (قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم)

وجاء بما يفيـد أكثر من ذلك حتى بالرسل فى قوله تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك لحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ .

ومثلها فى سورة الأنبياء بنص الآية المذكورة .

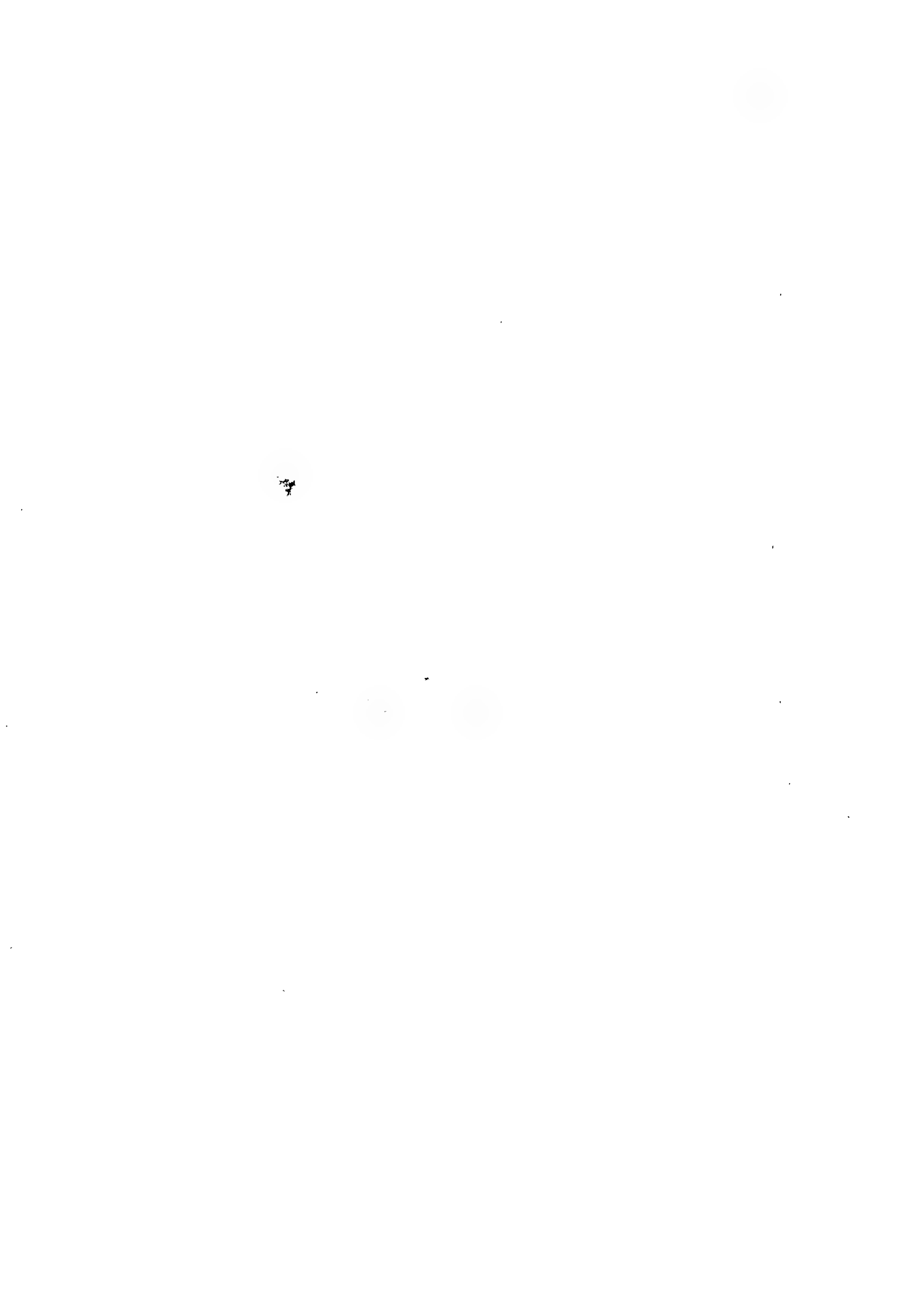
تنبيـه

إذا كان هذا حال بعض الذين أجرموا مع بعض ضعفة المؤمنين ، وكذلك حال بعض الأمم مع رسلها ، فإن الداعية إلى الله تعالى يجب عليه ألا يتـأثر بسخرية أحد منه ، ويعلم أنه على سنن غيره من الدعاة إلى الله تعالى ، وأن الله تعالى سينتصر له إما عاجلا وإما آجلا ، كما فى نهاية كل سياق من هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ، عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ، هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وهذا رد على سخرية المشركين منه فى الدنيا ، وهو كما قال تعالى : ﴿ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه فى سورة المؤمنون على الكلام على قوله ﴿ إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ والحمد لله رب العالمين .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَآءُ انْشَقَّتْ ﴾ .

تقدم الكلام عليه فى أول سورة الانفطار ، عند قوله تعالى : (إذا السماء انفطرت) ، والإحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورتى الشورى وق

قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾

تقدم بيان مادة أذن فى سورة الجمعة ، عند الكلام على الأذان ، وأذنت هنا بمعنى استمعت وأطاعت ، وحقت أى حق لها أو هى محقوقة بذلك ، أى لايوجد ممانع لهذا الأمر .

وقد حمله بعض المفسرين على المعنى المجازى فى أذنت ، أى لما لم يكن ممانعة من تشققها ، كان ذلك بمثابة الامتثال والاستماع .

وقد قدمنا أن للجمادات بالنسبة إلى الله تعالى حالة لا كهى بالنسبة للمخلوقين ، فى مبحث أول الحشر فى معنى التسبيح من الجمادات .

وقد جاء صريحاً فى حق السماء والأرض من ذلك قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها

وأشفقن منها) ، وقال تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ .

أى سويت وأزيلت جبالها ، وسويت وهادها ، كما قال تعالى : (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا) .

ومن هذا الحديث عن ابن عباس وعن على . وساق هذا الثانى ابن كثير عن ابن جرير بسنده إلى ء بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم ، حتى لايكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ، فأكون أول من يدعى » الحديث .

وعن ابن عباس « تمد كما يمد الأديم العكاظى » .

وعند القرطبى عن ابن عباس « يزاد فيها كذا وكذا » .

وقال الرازى : هو بمعنى تبدل الأرض غير الأرض ، والواقع أن استبدال الأرض غير الأرض ليس على معنى الذهاب بهذه الموجودة والإتيان بأرض جديدة ، لما جاء فى حديث الأذان : « مامن حجر ولا مدر ولا شجر ، يسمع صوت المؤذن إلا سيشهد له يوم القيامة » والذى يؤتى . من جديد ، لايتأتى له أ يشهد على شىء لم يشهده ،

وعلى كل فإن تسيير الجبال وتسوية الأرض لاشك أنه يوجد زيادة في وجه الأرض ومساحتها ، فسواء مدت بكذا وكذا . كما قال ابن عباس ، أو مدت بتوسعة أديمها وزيد في بسطها ، بعد أن تلقي مافي جوفها كالشيء السميك إذا ماضغط ، نخفت سماكته وزادت مساحته ، كما يشير إليه قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) .

وقوله : (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) .

فيكون مد الأرض بسبب دكها ، فيزاد في بسطها ، ولعل هذا الوجه هو مايشهد له القرآن لجمع الأمرين هنا ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء ، فهو وفق ما في هذه السورة (إذا السماء انشقت) ، وبعدها (وإذا الأرض مدت) والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .

قيل : ألقت كنوزها وتخلت عنها ، ورد هذا بأن ذلك قد يكون قبل الساعة .

وقيل : ألقت الموتى وتخلت عنهم بعد قيامهم وبعثهم من قبورهم فلم يبق في جوف الأرض أحد .

وقوله تعالى : وتخلت : أى بعد أن كانت لهم كفاتاً أحياء وأمواتا ، وبعد أن كانت لهم مهادا ، لفظتهم وتخلت عنهم ، وهذا مايزيد فى رهبة الموقف وشدته والتضييق على العباد ، وألا ملجأ لهم ولا منجى إلا إلى الله ، كما قال تعالى : (كلا لاوزر إلى ربك يومئذ المستقر)

قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ .

أى كما أذنت السماء ، فالكون كله إذن مطيع منقاد لأوامر الله ، طوعاً أو كرهاً.

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ .

قيل : الإنسان للجنس وقيل لفرد ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن السياق يدل للأول للتقسيم الآتى ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، وأما من أوتى كتابه بشماله ، لأنه لايكون لفرد ، وإنما للجنس وعلى أنه للجنس فالكدح العمل جهد النفس .

وقال ابن مقبل :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

وقال غيره مشيراً إلى أن الكدح فيه معنى النصب :

ومضت بشاشة كل عيش صالح وبقيت أكدح للحياة وأنصب

ويشهد لهذا قوله تعالى : (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) كما قدمنا فى محله .

تنبيـــه

من هذا العرض القرآنى الكريم من مقدمة تغيير أوضاع الكون سماء وأرضاً ، ووضع الإنسان فيه يكدح إلى ربه كدحاً فملاقيه ، أى بعمله الذى يحصل عليه من خلال كدحه ، فإن العاقل المتبصر لايجعل كدحه إلا فيما يرضى الله ويرضى هو به ، إذا لقى ربه مادام أنه كادح ، لامحالة كما هو مشاهد .

تنبيه آخر

قوله تعالى : (يأيها الإنسان) عام فى الشمول لكل إنسان مهما كان حاله من مؤمن وكافر ، ومن بر وفاجر ، والكل يكدح ويعمل جاهد التحصيل ماهو مقبل عليه ، كما فى الحديث : « اعملوا كل ميسر لما خلق له » أى ومجد فيه وراض به ، وهذا منتهى حكمة العليم الخبير .

ومما هو جدير بالتنبيه عليه ، هو أنه إذا كانت السماء مع عظم جرمها ، والأرض مع مساحة أصلها أذنت لربها وحقت ، مع أنهما لم تتحمل أمانة ، ولن تسأل عن واجب فكيف بالإنسان على ضعفه ، (أأنتم أشد خلقا أم السماء) ، وقد تحمل أمانة التكليف فأشفقن

منها وحملها الإنسان ، فكان أحق بالسمع والطاعة فى كدحه ، إلى أن يلقى ربه لما يرضيه ·

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ، فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ، وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ، إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ، إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ

فى هذا التقصيص بيان لمصير الإنسان نتيجة كدحه ، وماسجل عليه فى كتاب أعماله ، وذلك بعد أن تقدم فى الانفطار قوله : (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم) ·

وجاء فى المطففين (كلا إن كتاب الفجار لفى سجين) ثم بعده (كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين) ·

جاء هنا بيان إتيانهم هذه الكتب مما يشير إلى ارتباط هذه السور بعضها ببعض ، فى بيان مآل العلم كله ومصير الإنسان نتيجة عمله ·

وتقدم للشيخ مباحث إتيان الكتب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر ، عند كل من قوله تعالى : (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) فى سورة الإسراء — إلى قوله تعالى — (فمن أوتى كتابه بيمينه)

وبين أحوال الفريقين أهل اليمين وأهل الشمال ، وأحال على أول السورة .

وقوله (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) فى سورة الكهف وهنا ذكر سبحانه وتعالى حالة من حالات كلا الفريقين .

فالأولى محاسب حساباً يسيراً وهو العرض فقط دون مناقشة ، كما فى حديث عائشة رضى الله عنها « من نوقش الحساب عذّب »

والثانية : يدعو على نفسه بالثبور وهو الهلاك ، ومنه : المواطأة على الشىء سميت مثابرة ، لأنه كأنه يريد أن يهلك نفسه فى طلبه .

وهنا مقابلة عجيبة بالغة الأهمية ، وذلك بين سرورين أحدهما آجل والآخر عاجل .

فالأول فى حق من أوتى كتابه بيمينه ، أنه ينقلب إلى أهله مسروراً ينادى فرحا (هؤم اقرءوا كتابيه) ، وأهله آنذاك فى الجنة من الحور والولدان ، ومن أقاربه الذين دخلوا الجنة ، كما فى قوله تعالى (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم)

وقوله : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) ، فهم وإن كانوا ملحقين بهم إلا أنهم من أهلهم ، وهذ من تمام النعمة أن يعلم بها من يعرفه من أهله ، وهذا مما يزيد سرور العبد ، وهو السرور الدائم .

والآخر سرور عاجل ، وهو لمن أعطوا كتبهم بشمالهم ، لأنهم كانوا فى أهلهم مسرورين فى الدنيا ، وشتان بين سرور وسرور .

وقد بين هنا نتيجة سرور أولئك فى الدنيا ، بأنهم يصلون سعيرا ، ولم يبين سبب سرور الآخرين ، ولكن بينه فى موضع آخر وهو خوفهم من الله فى قوله تعالى : (قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ، فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم) .

وهنا يقال : إن الله سبحانه لم يجمع على عبده خوفان ، ولم يعطه الأمنان معاً ، فمن خافه فى الدنيا أمنه فى الآخرة (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

(فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى) .

ومن أمن مكر الله وقضى كل شهواته وكان لايبالى فيؤتى كتابه بشماله ويصلى سعيرا ، كما فى قوله تعالى : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم لابارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) تكذيبا للبعث.
وقوله هذا هو بعينه المذكور فى هذه الآيات (إنه ظن أن لن يحور) .

وقوله : (إنه ظن أن لن يحور) ، هذا الظن مثل ما تقدم فى حق المطففين (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) مما يشعر أن عدم الإيمان بالبعث أو الشك فيه ، هو الدافع لكل سوء والمضيع لكل خير ، وأن الإيمان باليوم الآخر هو المنطلق لكل خير والمانع لكل شر ، والإيمان بالبعث هو منطلق جميع الأعمال الصالحة كما فى مستهل المصحف (هدى للمتقين) الآيات .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ، وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ، لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ .

الشفق لغة : رقة الشىء .

قال القرطبي : يقال شىء شفيق ، أى لا تماسك له لرقته ، وأشفق عليه أى رق قلبه عليه ، والشفقة الاسم من الإشفاق وهو رقة القلب ، وكذلك الشفق .

قال الشاعر :

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزال على الحرم

فالشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها ، فكأن تلك الرقة من ضوء الشمس .

ونقل عن الخليل : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة إذا ذهب ، قيل : غاب الشفق . اهـ .

وهذا ماعليه الأئمة الثلاثة فى توقيت وقت المغرب من غروب الشمس إلى غياب الشفق ، وهو الحمرة بعد الغروب ، كما قال الخليل .

وعند أبى حنيفة رحمه الله : أن الشفق هو البياض الذى بعده .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى بيان أوقات الصلوات الخمس عند قوله تعالى : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون) ورجح أن الشفق : الحمرة .

ونقل القرطبي قولا ، قال : وزعم الحكماء أن البياض لايغيب أصلا .

وقال الخليل : صعدت منارة الاسكندرية فرمقت البياض فرأيته يتردد من أفق لى أفق ولم أره يغيب .

وقال ابن أويس : رأيته يتمادى إلى طلوع الفجر ، ثم قال : قال علماؤنا : فلما لم يتجدد وقته سقط اعتباره . اه .

فهو بهذا يرجح مذهب الجمهور فى معنى الشفق ، والنصوص فى ذلك من السنة فيها مقال .

فقد روى الدارقطنى حديثاً مرفوعا : الشفق الحمرة .

وتكلم عليه الشوكانى ثم ذكر من يقول به من الصحابة وهم ابن عمر ، وابن عباس ، وأبوهريرة ، وعبادة . ومن الأئمة : الشافعى ،

وابن أبى ليلى ، والثورى ، وأبو يوسف ومحمد ، من الفقهـاء ، والخليل والفراء من أهل اللغة .

فأنت ترى أن أبا يوسف ومحمداً من أصحـاب أبى حنيفة وافقا الجمهور .

وفى شرح الهداية أيضاً : رواية عن أبى حنيفة .

أما ماذكره القرطبى ففيه نظر ، أى من جهة عدم غياب البياض ، فإن المعروف عند علماء الفلك أن بين الأحمر والأبيض مقدار درجتين، والدرجة تعادل أربع دقائق ، وعليه فالفرق بسيط ، والله تعالى أعلم

وقوله : (والليل وما وسق) هو الجمع والضم للشىء الكثير ، ومنه سمى الوسق بمقدار معين من مكيل الحب ، وهو ستون صاعا . وقيل : فيه معانٍ أخرى ، ولـكن هذا أرجحها .

والمعنى هنا : والليل وما جمعه من المخلوقات . قيل : كأنه أقسم بكل شىء كقوله تعالى : (فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) .

وقوله : (والقمر إذا اتسق) أى اتسع أى تكامل نوره ، وهو افتعل من وسق ، والقاعدة الصرفية أن فاء الفعل المثـالى، أى الذى فاؤه واو ، إذا بنى على افتعل تقلب الواو تاء وتدغم التاء فى التاء ، كما فى : وصلته فاتصل ووزنته فاتزن ، أو تصل أو تزن ، وهكذا هنـا أو تسق .

وقوله : (لتركبن طبقاً عن طبق) .

قال ابن جرير : اختلف القراء فى قراءته ، فقرأه عمر بن الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وعامة قراء مكة والكوفة لتركبن بفتح التاء والباء ، واختلف قارؤا ذلك فى معناه ، فقال بعضهم : يعنى يامحمد ، ويعنى حالات الترقى والعلو والشدائد مع القوم ، وهذا المعنى عن مجاهد وابن عباس .

وقيل : طبقا عن طبق : يعنى سماء بعد سماء ، أى طباق السماء ، وهو عن الحسن وأبى العالية ومسروق .

وعن ابن مسعود : أنها السماء تتغير أحوالها تتشقق بالغمام ، ثم تحمر كالمهل ، إلى غير ذلك . وقد رجح القراءة الأولى والمعنى الأول .

وقرأ عامة قراء المدينة وبعض الكوفيين : لتركبن بالتاء وبضم الباء على وجه الخطاب للناس كافة .

وذكر المفسرون لمعناه حالا بعد حال معان عديدة طفولة وشباباً وشيخوخة ، فقراً وغنى ، وقوة وضعفا ، حياة وموتا وبعثاً ، رخاء وشدة ، إلى كل ماتحتمله الكلمة .

وقال القرطبى : الكل محتمل ، وكله مراد ، والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن ذلك إنما هو بعامة الناس ويكون يوم القيامة ، إذ السياق فى أصول البعث ، إذا السماء انشقت ، وإذا الأرض مدت ،

فأما من أوتى كتابه بيمينه وذكر الحساب المنقلب ، ثم التعبير بالمستقبل لتركبن ، ولو كان لأمر الدنيا من تغير الأحوال لكان أولى به الحاضر أو الماضى ، وإن كان من المستقبل ماسيأتى من الزمن لكنه ليس بجديد ، إذ تقلب الأحوال فى شأن الحياة أمر مستقر فى الأذهان ، ولايحتاج إلى هذا الأسلوب .

أما أمور الآخرة من بعث ، وحشر ، وعرض ، وميزان وصراط وتطاير كتب ، واختلاف أحوال الناس باختلاف المواقف ، فى عرصات القيامة فهى الحرية بالتنبيه عليها والتحذير منها والعمل لأجلها فى كدحه إلى ربه ، فلذا جاء بذلك وهو مشعر باستمرار حالة الإنسان بعد الكدح إلى حالات متعددة ودرجات متفاوتة .

ولو اعتبرنا حال المقسم به من حيث تطور الحال من شفق أو آخر ضوء الشمس ثم ليل ، وما جمع وغطى بظلامه ، ثم قمر يبدأ هلالا إلى اتساق نوره ، لكان إنتقالا من تغير حركات الزمن إلى تغير أحوال الإنسان قطعا ، وأن القادر على ذلك فى الدنيا قادر على ذلك فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

قيل : المن : القطع والنقص ، ومنه قول الشاعر :

لمعفر قهد تنازع شلوه عبس كواسب ما يمن طعامها

والقهد : ضرب من الضأن تعلوه حمرة صغيرة آذانه ، والكواسب : الوحوش ، أى ذئاب أو سباع لا ينقطع طعامها .

وقال القرطبي : منتت الحبل إذا قطعته .

وسأل نافع بن الأزرق ، ابن عباس عنها فقال : غير مقطوع ، فقال هل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم ، قد عرفه أخو يشكر ، حيث يقول :

فترى خلفهن من سرعة الرجـــع منيناً كأنه أهباء

قال المبرد : المنين الغبار لأنها تقطعه وراءها .

وقيل : غير ممنون أى غير ممنون به عليهم ، لتكمل النعمة عليهم .

وقال ابن جرير : غير ممنون : أى غير محسوب ولا منقوص . وذكره عن ابن عباس ومجاهد .

وقال ابن كثير : غير مقطوع ، كقوله تعالى (عطاء غـــير مجذوذ) ورد قول من قال إنه غير ممنون به عليهم ، لأن لله تعالى أن يمتن على عبـاده وهم ما دخلوا الجنة إلا بفضـل من الله ومنـه عليهم . انتهى.

ومما يشهد لقول ابن جرير غير محسوب عموم قوله تعالى : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) وخصوص قوله تعالى : (ومن

عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يرزقون فيها بغير حساب) .

وقوله تعالى : (جزاء من ربك عطاء حسابا) فهو بمعنى كافيا من قولك : حسبي بمعنى كافيني .

والذى يظهر والله تعالى أعلم أن كلا من المعنيين مقصود ولا مانع منه ، وما ذهب إليه ابن كثير لايتعارض مع قول الآخرين ، لأن المن الممنوع هو مافيه أذى وتنقيص ، كما فى قوله : (ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولاأذى) أما المن من الله تعالى على عبده ، فهو عين الإكرام والزلفى إليه سبحانه . والعلم عند الله تعالى .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البروج



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ .

البروج : جمع برج ، واختلف فى المعنى المراد به هنا هل هى المنازل أو الكواكب أو قصور فى السماء عليها حراسها ؟

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك فى سورة الحجر ، عند الكلام على قوله تعالى (ولقد جعلنا فى السماء بروجا) ، وفى سورة الفرقان عند قوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً) .

وقال : إن أصل هذه المادة من الظهور ، ومنه تبرج المرأة ، وساق بيان المعنى المقصود من بروج السماء وعدد المنازل المذكورة .

وبمناسبة ارتباط السور بعضها ببعض ، فإن بعض المفسرين يقول : لما ذكر مآل الفريقين وتطاير الصحف فى السورة الأولى ، ذكر هنا عملا من أشد أعمال الكفار مع المؤمنين فى قصة الأخدود .

والذى يظهر أقوى من هذا ، هو والله تعالى أعلم : أنه لما ذكر

سابقا انفطار السماء وتناثر النجوم وانشقاق السماء ، وإذنها لربها وحق لها ذلك ، جاء هنا بيان كنه هذه السماء أنها عظيمة البنية بأبراجها الضخمة أو بروجها الكبيرة ، فهى مع ذلك تأذن لربها وتطيع وتنشق لهول ذلك اليوم وتنفطر ، فأولى بك أيها الإنسان ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴾ .

هو يوم القيامة بإجماع المفسرين ، وقد كانوا يوعدون به فى الدنيا فهو اليوم الموعود به كل من الفريقين ، كما قال تعالى فى حق المؤمنين (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) وفى حق الكفار (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) وسيعترفون بذلك عند البعث حينما يقولون : (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

فاليوم الموعود هو يوم القيامة الموعود به لمجازات كلا الفريقين على عملهم .

قوله تعالى : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ .

لم يصرح هنا من الشاهد وما المشهود ، وقد ذكر الشاهد فى القرآن بمعنى الحاضر ، كقوله تعالى : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، وقوله : (عالم الغيب والشهادة) .

وذكر المشهود بمعنى المشاهد باسم المفعول ، كقوله تعالى : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) .

فالشاهد والمشهود قد يكونان من المشاهدة ، وذكر الشاهد من الشهادة ، والمشهود من المشهود به أو عليه ، كما فى قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

فشهيد الأولى : أى شهيد على الأمة التى بعثت فيها ، وشهيد الثانية : أى شاهد على الرسل فى أممهم .

ومن هنا اختلف أقوال المفسرين إلى ما يقرب من عشرين قولا .

قال ابن جرير : ما ملخصه : الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة أو النحر ، وعزاه لعلى وأبى هريرة ، والشاهد محمد

صلى الله عليه وسلم ، والمشهود يوم القيامة . وعزاه لابن عباس والحسن ابن علي .

والشاهد الإنسان ، والمشهود يوم القيامة . وعزاه لمجاهد وعكرمة .

والشاهد هو الله ، والمشهود هو يوم القيامة ، وعزاه لابن عباس .

ثم قال : والصواب عندي أنه صالح لكل ما يقال له مشاهد ، ويقال له مشهود فلم يفصل ما إذا كان بمعنى الحضور ، أو الشهادة ، ومثله القرطبي وابن كثير .

وقد فصل أبو حيان على ما قدمنا ، فقال : إن كان بمعنى الحضور ، فالشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة ، ولما ذكر اليوم الموعود ناسب أن يذكر كل من يشهد في ذلك اليوم ، ومن يشهد عليه ، وذكر نحواً من عشرين قولا .

وقال : كل له متمسك ، والذي يظهر والله تعالى أعلم : أنه من باب الشهادة لأن ذكر اليوم الموعود وهو يكفي عن اليوم المشهود ، بل إنه يحتاج إلى من يشهد فيه وتقام الشهادة على ما سيعرض فيه لإقامة الحجة على الخلق لا لإثبات الحق .

وقد جاء فى القرآن تعداد الشهود فى ذلك اليوم ، مما يتناسب مع العرض والحساب .

ومجمل ذلك أنها تكون خاصة وعامة وأعم من العامة ، فمن الخاصة شهادة الجوارح على الإنسان كما فى قوله تعالى : (حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) ، وقوله (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وهذه شهادة فعل ومقال لا شهادة حال ، كما بينها قوله تعالى عنهم : (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون) ، ورد الله زعمهم ذلك بقوله : (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) .

وتقدم للشيخ بيان شهادة الأعضاء فى سورة يس وفى سورة النساء عند قوله تعالى : (ولا يكتمون الله حديثا ، وشهادة الملائكة وهم الحفظة كما فى قوله تعالى : (وقال قرينه هذا ما لدى عتيد) ، وقوله : (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) ، ثم شهادة الرسل كل رسول على أمته ، كما فى قوله عن عيسى عليه وعلى نبينا أفضل

الصلاة والتسليم ،(وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم) فهذا وإن كان فى الحياة فسيؤديها يوم القيامة .

وكقوله فى عموم الأمم (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) .

ومنها : شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على جميع الرسل كما فى قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

ومنها : شهادة هذه الأمة على سائر الأمم ، كما فى قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) .

ومنها : شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الأمة لقوله تعالى : (ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

ومنها : شهادة الله تعالى على الجميع .

وهذا ما يتناسب مع ذكر اليوم الموعود وما يكون فيه من الجزاء والحساب على الأعمال ومجازاة الخلائق عليها : وسيأتى فى نفس السياق قوله (والله على كل شىء شهيد) ، وهو كما ترى لا يتقيد بشاهد واحد ، وأيضا لا يعارض بعضها بعضا .

فاختلاف الشهود وتعددهم باختلاف المشهود عليه ، وتعدده من فرد إلى أمة إلى رسل ، إلى غير ذلك . وكلها داخلة فى المعنى وواقعة بالفعل .

وقد ذكرت أقوال أخرى ، ولكن لا تختص بيوم القيامة .

ومنها : أن الشاهد الله والملائكة وأولوا العلم ، والمشهود به وحدانية الله تعالى .

ومنها : الشاهد المخلوقات ، والمشهود به قدرة الله تعالى ، فتكون الشهادة بمعنى العلامة .

وأكثر المفسرين إيرادا فى ذلك الفخر الرازى حيث ساقها كلها بأدلتها إلا ما ذكرناه من السنة فلم يورده .

وقد جاء فى السنة تعيين الشهادات لغير ما ذكر .

منها الشهادة للمؤذن : ما يسمع صوته شجر ولا حجر ولا مدر ، إلا شهد له يوم القيامة .

ومنها : شهادة الأرض على الإنسان بما عليها المشار إليه فى قوله تعالى : (يومئذ تحدث أخبارها) .

ومنها : شهادة المال على صاحبه فيم أنفقه .

ومنها : شهادة الصيام والقرآن وشفاعتهما لصاحبهما . ونحو ذلك والله تعالى أعلم .

تنبيـــه

فى هذا العرض إشعار يتعلق بالقضاء وكمال العدالة ، وهو إذا كان رب العزة سبحانه وتعالى ، وهو على كل شىء شهيد ، وبكل شىء عليم ، وموكل حفظة يكتبون أعمال العباد ، ومع ذلك لم يقض بين الخلائق بمـا يعلمه منهم ولا بما سجلته ملائـكته ويستنطق أعضاءهم ، ويستشهد الرسل على الأمم والرسول صلى الله عليه وسلم على الرسل ، أى بأنهم بلَّغوا أممهم رسالات الله إليهم ، فلأن لا يقضى القاضى بعلمه من باب أولى . والعلم عند الله تعالى .

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « إنـكم تحتـكمون إلىّ ، وإنما أنا بشر أقضى لـكم على نحو ما أسمع ، فمن اقتطعت له شيئا من حق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من نار » الحديث . أى كان من الممـكن أن ينزل عليه الوحى ، ولا سيما فى تلك القضية بعينها ، إذ قالوا فى مواريث درست معالمها ولا بينة بينهما ، ولـكن إذا نزل الوحى عليه صلى الله عليه وسلم فيهـا ، فمن بالوحى لمن يأتى بعــــده فى القضاء ؟

ولذا قال صلى الله عليه وسلم « البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر » .

ومعلوم أن البينة فعيلة من البيان ، فتشمل كل ما يبين الحق من شهادة وقرينة ، كما فى قصة يوسف من القرائن مع إخوته ومع امرأة العزيز . إلخ .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ، ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴾ .

قال أبو حيان ، وجواب القسم فى قوله تعالى : (والسماء ذات البروج) ، قيل : محذوف ، فقيل : لتبعثن ونحوه ، وقيل : مذكور ، فقيل : إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ونحوه ، وقيل : قتل ، وهذا نختاره ، وحذفت اللام أى لقتل وحسن حذفها كما حسن فى قوله : (والشمس وضحاها) ، ثم قال : (قد أفلح من زكاها) أى لقد أفلح ، ويكون الجواب دليلا على لعنة الله على من فعل ذلك ، وتنبيها لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم .

وإذا كان قتل هى الجواب فهى جملة خبرية ، وإذا كان الجواب غيرها فهى جملة إنشائية ، دعاء عليهم .

وقرىء : قتّل بالتشديد ، قرأها الحسن وابن مقسم ، وقرأها الجمهور بالتخفيف اهـ .

والأخدود : جمع خد ، وهو الشق فى الأرض طويلا . وقوله : (النار ذات الوقود)الوقود بالضم وبالفتح ، والقراءة بالفتح كالسحور ، والوضوء. فبالفتح ماتوقد به كصبور والماء المتوضأ به والطعام المتسحر به ، وبالضم المصدر ، والفعل والوقود بالضم ما توقد به .

ذكر صاحب القاموس ، والنار ذات الوقود : بدل من الأخدود .

وقيل فى معناها : عدة أقوال ، حتى قال أبو حيان : كسلت عن نقلها .

ونقل الفخر الرازى ثلاثة منها .

والمشهور عند ابن كثير ما رواه أحمد ومسلم : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم ملك ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إنى قد كبر سنى وحضر أجلى ، فادفع إلىّ غلاما لأعلِّمه السحر ، فدفع إليه غلاما كان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر والملك راهب ، فأتى الغلام الراهب فسمع من كلامه فأعجبه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه ، وقال ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ماحبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا أراد الساحر ضربك فقل : حبسنى أهلى ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك ، فقل : حبسنى الساحر ، فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة عظيمة فظيمة

قد حبست الناس ، فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم أمر الساحر ؟ قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبُّ إليك وأرضى من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة ، حتى يجوز الناس ورماها فقتلها ، ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك ، فقال : أى بنى أنت أفضل منى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل علىّ ، فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان للملك جليس أعمى فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : اشفنى . فقال : ما أنا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك ، فآمن فدعا الله فشفاه ، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يافلان من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربى ، فقال : أنا . قال : لا ، ربى وربك الله ، قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربى وربك الله ، فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الغلام ، فبعث إليه فقال : أى بنى بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص ، وهذه الأدواء ، فقال : أما أشفى أحداً إنما يشفى الله عز وجل ، قال : أنا . قالا : لا ، قال : أو لك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله فأخذه أيضاً بالعذاب حتى دل على الراهب فأوتى بالراهب فقيل : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه ، وقال للأعمى : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرقه أيضاً ، وقال للغلام : ارجع عن دينك فأبى ،

فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغتم ذروته ، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه ، فذهبوا به فلما علوا به الجبل ، قال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون ، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك . فقال : ما فعل أصحابك؟ فقال : كفانيهم الله تعالى ، فبعث به نفراً إلى البحر فى قرقور ، فقال : إذا لججتم به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه ، فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت فغرقوا هم ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، قال : ماهو؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ، ثم تصلبنى على جذع وتأخذ سهما من كنانتى . ثم قل : بسم الله رب الغلام ، فإنك إن فعلت ذلك قتلتنى ففعل ، ووضع السهم فى قوسه ورماه به صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس آمنا برب الغلام ، فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ، فقد والله وقع بك ، قد آمن الناس كلهم فأمر بأفواه السكك ، نخدت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع فى النار ، فقال الصبي : اصبرى يا أماه فإنك على الحق . وقد قيل : إن الغلام دفن فوجد زمن عمر بن الخطاب ويده على صدغه ، كلما رفعت خرج الدم من جرحه ، وإذا تركت أعيدت على الجرح » .

وقد سقنا هذه القصة ، وهى من أمثل ما جاء فى هذه المعنى لما فيها من العبر ، والتى يمكن أن يستفاد منها بعض الأحكام ، حيث إن ابن كثير ، عزاها للامام أحمد بن ومسلم ، أى لصحة سندها مرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك الآتى :

الأول : أن السحر بالتعلم كما جاء قصة الملكين ببابل ، هاروت وماروت يعلمان الناس السحر .

الثانى : إمكان اجتماع الخير مع الشر : إذا كان الشخص جاهلا بحال الشر ، كاجتماع الإيمان مع الراهب مع تعلم السحر من الساحر .

ثالثاً : إجراء خوارق العادات على أيدى دعاة الخير ، لبيان الحق والتثبت فى الأمر ، كما قال الغلام : اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم أمر الساحر ؟

الرابع : أنه كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب ، إذ قال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك ، فسأل عن أمر الراهب ولم يسل عن أمر الساحر ؟

الخامس : اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه ، كاعتراف الراهب للغلام .

السادس : ابتلاء الدعاة إلى الله ووجوب الصبر على ذلك ، وتفاوت درجات الناس فى ذلك .

السابع : إسناد الفعل كله لله ، إنما يشفى الله .

الثامن : رفض الداعى إلى الله الأجر على عمله وهدايته (قل لا أسألكم عليه أجراً) .

التاسع : بيان ركن أصيل فى قضية التوسل ، وهو أن مبناه على الإيمان بالله ثم الدعاء وسؤال الله تعالى .

العاشر : غباوة الملك المشرك المغلق قلبه بظلام الشرك ، حيث ظن فى نفسه أنه الذى شفى جليسه . وهو لم يفعل له شيئاً ، وكيف يكون وهو لا يعلم ؟

الحادى عشر : اللجوء إلى العنف والبطش عند العجز عن الإقناع والإفهام ، أسلوب الجهلة والجبابرة .

الثانى عشر : منتهى القسوة والغلظة فى نشر الإنسان ، بدون هوادة .

الثالث عشر : منتهى الصبر وعدم الرجوع عن الدين ، وهكذا كان فى الأمم الأولى ، وبيان فضل الله على هذه الأمة ، إذ جاز لها التلفظ بما يخالف عقيدتها وقلبها مطمئن بالإيمان .

وقد جاء عن الفخر الرازى قوله : الآية تدل على أن المكره على

الكفر بالإهلاك العظيم الأولى به أن يصبر على ماخوف منه ، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة فى ذلك ، وقال . وروى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما : تشهد أنى رسول الله ؟ فقال : نعم ، فتركه ، وقال للآخر مثله ، فقال : لا بل أنت كذاب . فقتله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما الذى ترك فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه ، وأما الذى قتل فأخذ بالأفضل فهنيئاً له » .

وتقدم بحث هذه المسألة للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

الرابع عشر : إجابة دعوة الغلام ونصرة الله لعباده المؤمنين : اللهم اكفنيهم بما شئت .

الخامس عشر : التضحية بالنفس فى سبيل نشر الدعوة ، حيث دل الغلام الملك على الطريقة التى يتمكن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله ، ولو كان الوصول لذلك على حياته هو .

السادس عشر : إبقاء جسمه حتى زمن عمر رضى الله عنه إكراما لأولياء الله ، والدعاة من أن تأكل الأرض أجسامهم .

السابع عشر : إثبات دلالة القدرة على البعث .

الثامن عشر : حياة الشهداء لوجود الدم وعودة اليد مكانها ، بحركة مقصودة .

التاسع عشر : معرفة تلك القصة عند أهل مكة حيث حدثوا بها تخويفاً من عواقب أفعالهم بضعفة المؤمنين ، كما هو موضح فى تمام القصة .

العشرون : نطق الصبى الرضيع بالحق .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ .

الضمير فى قوله : هم ، والضمير فى قوله : قعود ، ذكر فيهما خلاف .

فقيل : راجعان إلى من أحرقوا وأقعدوا عليها .

وقيل : راجعان إلى الكفار .

وعليه ففى قوله : عليها قعود ، إشكال وهو كيف يتمكن لهم القعود على النار .

فقيل : إنها رجعت عليهم فأحرقتهم ، فقعودهم عليها حقيقة .

وقيل : قعود على حافتها كما تقول : قعود على النهر أو على البئر أو على حافته وحوله ، كما يقال : نزل فلان على ماء كذا ، أى عنده .

وأنشد أبو حيان بيت الأعشى :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

وقد استدل صاحب القول الأول بقوله تعالى الآتى (فلهم عذاب جهنم ولهم عـذاب الحريق) ، فقال : الحريق فى الدنيـا وجهنم فى الآخرة .

ولـكن فى الآية قرينة ، على أن الضمائر راجعة إلى الـكفار الذين قتلوا المؤمنين وأحرقوهم ، وهى قوله : (ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم) حيث رتب العذاب المذكور على عدم التوبة ، وجاء بثم التى هى للتراخى ، مما يدل على أنهم لم تحرقهم نارهم انتقاماً منهم حالا ، بل أمهلوا ليتوبوا من فعلتهم الشنيعة ، وإلا فلهم العذاب المذكور فى الآخرة . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ .

بمعنى حضور يتفق قوله تعالى : (إذ هم عليها قعود) أى حضور يشاهدون إحراق المؤمنين ، وهذا زيادة فى التبكيت بهم ، إذ يرون هذا المظهر بأعينهم ولم يشفقوا بهم ولم يعتبروا بثباتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ .

هذا ما يسمى أسلوب المدح بما يشبه الذم ونظيره فى العربية أقوال الشاعر :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وذكر أبو حيان قول الشاعر ، وهو قيس الرقيات :

ما نقموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

وقول الآخر :

ولاعيب فيها غير شكلة عينها كذاك عتاق الطير شكلا عيونها

يقال عين شكلاء : إذا كان فى بياضها حمرة قليلة يسيرة .

وقدمنا أن نقمتهم عليهم للمستقبل ، كما فى قوله تعالى : (إلا أن يؤمنوا بالله) لا على الماضى إلا أن آمنوا ، لأنهم كانوا يقولون لهم : إما أن ترجعوا عن دينكم ، وإما أن تلقوا فى النار ، ولم يحرقوهم على إيمانهم السابق ، بل على إصرارهم على الإيمان للمستقبل .

والإتيان هنا بصفتى الله تعالى العزيز الحميد إشعار بأنه سبحانه قادر على نصرة المؤمنين والانتقام من الكافرين ، إذ العزيز هو الغالب ، كما يقولون: من عزّ بز ، ولكن جاء وصفه بالحميد ، ليشعر بأمرين .

الأول : أن المؤمنين آمنوا رغبة ورهبة ، رغبة فى الحميد على ما يأتى الغفور الودود ، ورهبة من العزيز كما سيأتى فى قوله : (إن بطش ربك لشديد) وهذا كمال الإيمان رغبة ورهبة وأحسن حالات المؤمن .

والأمر الثانى : حتى لا ييأس أولئك الكفار من فضله ورحمته ، كما

قال : (ثم لم يتوبوا) إذ أعطاهم المهلة من آثار صفته الحميد سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

تأكيد وبيان العزيز الحميد ، إذ لايخرج عن سلطانه أحد ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو المدبر أمر ملكه ، سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ربط بأول السورة وشاهد ومشهود ، فهو سبحانه على كل شىء شهيد ، ومن ذلك فعل أولئك ، وفيه شدة تخويف أولئك وتحذيرهم ومن على شاكلتهم ، بأن الله تعالى شهيد على أفعالهم فلن تخفى عليه خافية .

وقد جاء بصيغة المبالغة فى شهيد ، لما يتناسب مع هذا المقام كما فيه المقابلة بالفعل ، كما كانوا قعوداً على النار وشهوداً على إحراق أولياء الله تعالى ، فإنه سبحانه سيعاملهم بالمثل ، إذ يحرقهم وهو عليهم شهيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ .

يحتمل أن يكون مراداً به أصحاب الأخدود ، وفتنوا بمعنى أحرقوا ، ويحتمل أن يكون عاما فى كل من أذى المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ويردوهم عنه بأى أنواع الفتنة والتعذيب .

وقد رجح الأخير أبو حيان وحمله على العموم أولى ، ليشمل كفار

قريش بالوعيد والتهديد ، وتوجيههم إلى التوبة مما أوقعوه بضعفة المؤمنين ، كعمار وبلال وصهيب وغيرهم .

ويرجح هذا العموم ، العموم الآخر الذى يقابله فى قوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) فهذا عام بلا خلاف فى كل من اتصف بهذه الصفات .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .

فى مقام المنطوق بالمفهوم من العزيز الحميد ، كما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ .

قيل : يبدىء الخلق ويعيده ، كالزرع والنبات والإنسان بالمولد والموت ، ثم بالبعث .

وقيل : يبدأ الكفار بالعذاب ويعيده عليهم ، واستدل لهذا بقوله (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) .

وفى الحديث : « ما من صاحب إبل لا يؤدى زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة ، بطح لها بقاع قرقر ، ثم يأتى بها أوفر ما تكون سمنا فتطؤه بخفافها فتستن عليه كلما مر عليه أخراها أعيد عليه أولها ، حتى يقضى بين الخلائق فيرى مصيره إما إلى جنة ، وإما إلى نار » إلى آخر الحديث فى صاحب البقر والغنم والذهب .

ولكن الذى يظهر والله تعالى أعلم هو الأول ، لأنه يكثر فى

القرآن كقوله تعالى : (إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) . وقوله :(قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون) .

وجعله آية على قدرته ودليلا على عجز ونقص الشركاء ، فى قوله فى أول هذه الآية : قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ورد عليهم بقوله : (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) ، وقوله (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) .

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ .

بعد عرض قصة أصحاب الأخدود تسلية للمؤمنين وتثبيتا لهم، وزجراً للمشركين وردعاً لهم ، جاء بأخبار لبعض من سبق من الأمم وفرعون وثمود بدل من الجنود ، وهم جمع جند، وهم الكثرة وأصحاب القوة ، وحديثه ماقص الله من خبره مع موسى وبنى إسرائيل .

وفى اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود لما بينهما من المشاكلة والمشابهة ، إذ فرعون طغى وادّعى الربوبية ، كملك أصحاب الأخدود الذى قال لجليسه : ألك رب غيرى ؟ ولتعذيبه بنى إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء النساء ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ، ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الداعية ، إذ موسى عليه السلام قدّم لفرعون من آيات ربه الكبرى فكذّب وعصى ، والغلام قدّم لهذا الملك الآيات الكبرى : إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ،

وعجز فرعون عن موسى وإدراكه ، وعجز الملك عن قتل الغلام إذ نجاه الله من الإغراق والدهدهة من قمة الجبل ، فكان لهذا أن يرعوى عن ذلك ويتفطن للحقيقة ، ولكن سلطانه أعماه كما أعمى فرعون .

وكذلك آمن السحرة لما رأوا آية موسى وخروا لله سجداً .

وهكذا هنا آمن الناس برب الغلام ، فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون . إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته ، فانقلب الموقف عليه ، وكان أول الناس إيماناً هم أعوان فرعون على موسى ، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيماناً الذى جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام .

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة، وإن كان فى الكل عظة وعبرة ، ولكن هذا منتهى الإعجاز فى قصص القرآن وأسلوبه ، والله تعالى أعلم .

وكذلك ثمود لما كان منهم من مظاهر القوة والطغيان ، وقد جمعهما الله أيضاً معاً فى سورة الفجر فى قوله : (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد) وهكذا جمعهما هنا فرعون وثمود .

قوله تعالى ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ .

أى مستمر فى كل الأمم ، وتقدم فى سورة الانفطار قبلها (بل الذين كفروا يكذبون) .

فقال الكرمانى ، محمود بن حمزة بن نصر تاج القراء فى كتابه أسرار التكرار فى القرآن : إن المغايرة لمراعاة رءوس الآى والفواصل ، ولكن الظاهر من السياق فى الموضعين مراعاة السياق لا فواصل الآى ، لأن فى سورة الانشقاق الحديث مع المشركين (لتركبن طبقاً عن طبق فما لهم لايؤمنون ، وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذبون) .

وفى سورة البروج هنا ذكر الأمم من فرعون وثمود وأصحاب الأخدود والمشركين فى مكة ، ثم قال (بل الذين كفروا فى تكذيب) فناسب هذا هنا ، وناسب ذاك هناك . والله تعالى أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطارق



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ .

أصل الطرق فى اللغة : الدق ، ومنه المطرقة ، ولذا قالوا للآتى ليلا : طارق ، لأنه يحتاج إلى طرق الباب .

وعليه قول امرىء القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

أى جئتها ليلا ، وقول الآخر :

ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقول جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام

وفى الحديث : « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقا يطرق بخير يارحمن » ، فهو لفظ عم فى كل ما يأتى شيئه المفاجىء ، ولكأنه يأتى فى حالة غير متوقعة ، ولكنه هنا خص بما فسر به بعده فى قوله تعالى : (وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب) .

فقيل : مايثقب الشياطين عند استراق السمع ، كما تقدم فى قوله تعالى : (فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) فيكون عاما فى كل نجم .

وقيل : حاص ، فقيل : زحل وقيل : المريخ ، وقيل : الثريا ، لأنه إذا أطلق النجم عند العرب ، كان مراداً به الثريا .

وتقدم هذا للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى أول سورة النجم.

وقيل : الثاقب المضىء ، يثقب الظلام بضوئه ، وعليه فهو للجنس عامة ، لأن النجوم كلها مضيئة .

قال القرطبى ، وقال سفيان : كل مافى القرآن وما أدراك فقد أخبره به ، وكل شىء قال فيه : ومايدريك ، لم يخبره به .

والواقع أنه الغالب ، فقد جاءت : وما أدراك ثلاث عشرة مرة، كلها أخبره بها إلا واحدة ، وهى فى الحاقة (وما أدراك ما الحاقة) وما عداها ، فقد أخبره بها ، وهى : (وما أدراك ماسقر ، لا تبقى ولاتذر) .

وفى المرسلات (وما أدراك مايوم الفصل) .

وفى الانفطار : (وما أدراك مايوم الدين ، يوم لاتملك نفس لنفس شيئا) .

وفى المطففين : (وما أدراك ماسجين ، كتاب مرقوم) .

وفى البلد : (وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة) .

وفى القدر : (وما أدراك ماليلة القدر ؛ ليلة القدر خير من ألف شهر)

وفى القارعة (وما أدراك ما القارعة) .

وأيضاً : (فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية)، وفى هذه السورة (وما أدراك ما الطارق، النجم الثاقب) ، فكلها أخبره عنها إلا فى الحاقة .

تنبيـــه

يلاحظ أنها كلها فى قصار السور من الحاقة وما بعدها ، أما ما يدريك ، فقد جاءت ثلاث مرات فقط ، (وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) فى الأحزاب ، (وما يدريك لعل الساعة قريب) فى الشورى ، (وما يدريك لعله يزكى) فى عبس وتولى ، فلم يخبره فيها صراحة، إلا أنه فى الثالثة قد يكون أخبره لأنه قال (لعله يزكى) فهو وإن لم يصرح هل هو تزكى أم لا ، إلا أن لعل من الله تعالى للتحقيق ، كما هو معلوم .

تنبيه آخر

قال كثير من المفسرين : أقسم الله بالسماء ، وبالنجم الطارق لعظم أمرها ، وكبر خلقهما كما فى قوله (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، ولأنه أقسم بالنجم إذا هوى .

وفيما تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ترجيح كون مواقع

النجوم ، والنجم إذا هوى : إنما هو نجوم القرآن وتنزيله منجماً وهوية نزول الملك به على النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .

قيل : حافظ لأعماله يحصيها عليه ، كما فى قوله : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

وقيل : حافظ ، أى حارس ، كقوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ، والسياق يشهد للمعنيين معاً ، لأن قوله تعالى بعده (فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) يدل على أنه فى تلك المراحل فى حفظ ، فهو أولا فى قرار مكين .

وفى الحديث : « أن الله وكل بالرحم ملكا » الحديث .

وبعد بلوغه سن التكليف يجرى عليه القلم فيحفظ عليه عمله ، فلا مانع من إرادة المعنيين معا ، وليس هذا من حمل المشترك على معنييه ، لأن كلا من المعنيين له متعلق ، يختص بزمن خلاف الآخر .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ .

الإنسان هنا خاص ببنى آدم وذريته عامة ، ولم يدخل فيه آدم

ولا حواء ولا عيسى عليه السلام لأنه بيّن ما خلق منه ، وهو فى قوله تعالى (خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هـذه الآية عند قوله تعالى (خلق الإنسان من نطفة) فى سورة النحل ، وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى : (أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) ، وتقدمت الإشارة إليه عند قوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) فى سورة الدهر .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ .

إنه هنا أى إن الله على رجعه ، الضمير فيه ، قيل : راجع للماء الدافق ، أى أنه سبحانه قادر على رجع هـذا المـاء من حيث خرج ، كرد اللبن إلى الضرع مثلا ، ورد الطفل إلى الرحم ، وهذا مروى عن عكرمة ومجاهد .

وقيل : على رجع الإنسان بعد الموت ، وهذا وإن كان فى الأول دلالة على القدرة ، ولا يقدر عليه إلا الله ، إلا أن فى السياق مايدل على أن المراد ، هو الثانى لعدة أمور :

الأول : أن رد المـاء لم يتعلق به حكم ولا أمر آخر سوى إثبات

القدرة بخلاف رجع الإنسان بعد الموت ، فهو قضية الإيمان بالبعث . ويتعلق به كل أحكام يوم القيامة .

الثانى : مجىء القرآن بالخلق الأول ، دليل على الإعادة بعد الموت ، كقوله تعالى فى يس : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ـ أى من ماء دافق ـ قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) ، أى من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب .

الثالث : أن الأول يحتاج معه إلى تقدير عامل ليوم تبلى السرائر ، نحو اذكر مثلا بخلاف الثانى ، فإن العامل فيه : هو لقادر ، أى لقادر على رجعه يوم تبلى السرائر .

ونقل أبو حيان عن ابن عطية قوله : وكل من خالف ذلك إنما فر من أن يكون لقادر هو العامل فى الظرف ، لأنه يوهم أن قدرته على رجعه مقيدة بذلك .

ولكن بتأمل أسلوب العرب يعلم جوازه ، لأنه قال : إنه على رجعه لقادر على الإطلاق أولا وآخراً ، وفى كل وقت ثم ذكر تعالى : وخصص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار ، لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب للتحذير منه . اهـ

فظهر بذلك أن الضمير فى رجعه عائد للإنسان أى بعد موته بالبعث ، وأن العامل هو لقادر .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيانه عند الكلام على قوله تعالى : (هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت) ، وساق عندها هذه الآية ، وسيأتى التصريح به فى سورة العاديات عند قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحصّل ما فى الصدور) وقد أجمل ابتلاء السرائر .

وكذلك أجمل الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بإيراد الآيات .

وذكر المفسرون : أن المراد بها أمانة التكليف فيما لا يعلمه إلا الله ، ومثلوا لذلك بالحفاظ على الطهارة للصلاة ، وغسل الجنابة ، وحفظ الصوم ، ونحو ذلك . ومنه العقائد وصدق الإيمان أو النفاق ، عياذًا بالله .

والسرائر : هى كل ما يخفيه الإنسان حتى فى المعاملات مع الناس ، كما فى الأثر « الكيس من كانت له عند الله خبيئة سر » ، وقوله : (وأسروا قولكم أو اجهروا به) ، فالسر ضـــد الجهر ، وقال الأحوص :

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا سريرة ود يوم تبلى السرائر

قال أبو حيان : سمعه الحسن ، فقال : ما أغفله عما فى السماء والطارق .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾

قالوا : ليس من قوة في نفسه لضعفه ، ويدل عليه قوله (وعرضوا على ربك صفاً ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) .

وقوله : (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أي من الضعف وشدة الخوف ، ولا ناصر له من غيره ، كما في قوله : (ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً) .

وقوله : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ، وَالْارْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ .

قيل : رجع السماء : إعادة ضوء النجوم والشمس والقمر .

وقيل : الرجع : الملائكة ترجع بأعمال العباد .

وقيل الرجع : المطر وأرزاق العباد . والأرض ذات الصدع ، قيل : تنشق عن الخلائق يوم البعث .

وقيل : تنشق بالنبات .

والذي يشهد له القرآن : أن الرجع والصدع متقابلان من السماء والأرض بالمطر والنبات ، كما في قوله تعالى . (فلينظر الإنسان إلى

طعامه أنا صببنا المـاء صباً ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيهـا حباً وعنباً وقضباً) والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ .

قال ابن كثير : قال ابن عباس حق . وكذا قال قتادة ، وقال آخرون : حـكم عدل . وقال القرطبي : إنه أى القرآن ، يفصل بين الحق والبـاطل .

وقيل : هو ما تقدم من الوعيد فى هذه السورة (إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر) .

وقال أبو حيان بما قال به القرطبي أولا ، ثم جوّز أن يكون مراداً به الثانى ، أى أن الإخبار عن رجع الإنسان يوم تبلى السرائر ، قول فصل ، وهذا ما يفيده كلام ابن جرير ، وعزاه النيسابورى إلى القفال .

وسياق السورة يشهد لهذا القول الثانى ، لأن السورة كلها فى معرض إثبات القدرة على البعث ، وإعادة الإنسان بعـد الفناء ، حيث تضمنت ثلاثة أدلة من أدلة البعث .

الأول : السماء ذات الطارق . لعظم خلقتها ، وعظم دلالتها على القدرة .

الثانى : خلق الإنسان أولا من ماء دافق ، كما فى قوله : (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) .

الثالث : مجموع قوله : (والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع) أى إنزال المطر ، وإنبات النبات وهو إحياء الأرض بعد موتها . فناسب أن يكون الإقسام على تحقق البعث .

وأكد هذا ما جاء بعده من الوعيد بالإمهال رويدا ، وقد سمى يوم القيامة بيوم الفصل ، كما فى قوله : (لأى يوم أجلت ، ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذبين) .

وذكر الويل فى هذه الآية للمكذبين يعادل الإمهال فى هذه السورة للكافرين ، وإذا ربطنا بين القسم والمقسم عليه ، لكان أظهر وأوضح ، لأن رجع الماء بعد فنائه بتلقيح السحاب من جديد يعادل رجع الإنسان بعد فنائه فى الأرض ، وتشقق الأرض عن النبات يناسب تشققها يوم البعث عن الخلائق ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ، وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾

نسبة هذا الفعل له تعالى قالوا إنه : من باب المقابلة كقوله : (ومكروا ومكر الله) ، وقوله : (إنما نحن مستهزءون ، الله يستهزىء

بهم) ، وهو فى اللغة ، كقول القائل ، لما سئل عن أى الطعام يريد ، وهو عارٍ يريد كسوة .

قالوا اختر طعاما نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

وقد اتفق السلف ، أنه لا ينسب إلى الله تعالى على سبيل الإطلاق ، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم ، وإنما يطلق فى مقابل فعل العباد ، لأنه فى غير المقابلة لا يليق بالله تعالى ، وفى معرض المقابلة فهو فى غاية العلم والحكمة والقدرة ، والكيد أصله المعالجة للشىء بقوة .

وقال ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة : والعرب قد تطلق الكيد على المكر ، والعرب قد يسمون المكر كيداً ، قال الله تعالى : (أم يريدون كيداً) ، وعليه فالكيد هنا لم يبين ، فإذا كان بمعنى المكر ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شىء منه عند قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) ، بأن مكرهم محاولتهم قتل عيسى ، ومكر الله إلقاء الشبه ، أى شبه عيسى على غير عيسى .

وتقدم قوله تعالى : (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم

من القواعد نخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) ، وهـذا فى قصة النمرود ، فـكان مكرهم بنيان الصرح ليصعد إلى السماء ، فـكان مكر الله بهم أن تركهم حى تصاعدوا بالبناء ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فهدمه عليهم .

وهـكذا الـكيد هنا ، إنهم يكيدون للاسلام والمسلمين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله يـكيد لهم بالاستدراج حتى يأتى موعد إهلاكهم ، وقد وقع تحقيقه فى بدر ، إذ خرجوا محادة لله ولرسوله ، وفى خيلائهم ومفاخرتهم وكيد الله لهم أن قال المؤمنين فى أعينهم ، حتى طمعوا فى القتال ، وأمطر أرض المعركة ، وهم فى أرض سبخة ، والمسلمون فى أرض رملية فـكان زلقا عليهم وثباتا للمؤمنين ، ثم أنزل ملائـكته لقتالهم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْـكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب ، مانصه : هذا الإمهال المذكور هنا ينافيه قوله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) الآية .

والجواب : أن الإمهال منسوخ بآيات السيف . اه .

وهذا ما يفيده كلام الطبرى ، وإن لم يصرح به وهو منصوص القرطبى . ولعل فى نفس الآية ما يدل على ذلك وهو قوله : (أمهلهم رويداً) لأن رويدا بمعنى قليـلا ، فقد قيد الإمهال بالقلة مما يشعر بمجىء النسخ وأنه ليس نهائياً . والله تعالى أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعلى



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ .

تقدم معنى التسبيح وهو التنزيه عن كل ما لا يليق ، والأمر بالتسبيح هنا منصب على اسم ربك ، وفى آيات أخر ، جاء الأمر بتسبيح الله تعالى كقوله : (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) .

ومثل : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) .

وتسبيح الرب سبحانه كقوله : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) ، فاختلف فى هذه الآية ، هل المراد تسبيح الله سبحانه أو المراد تسبيح اسمه تعالى ، كما هو هنا ؟

ثم اختلف فى المراد بتسبيح اسم الله تعالى ، وجاءت مسألة الاسم والمسمى .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الواقعة ، عند قوله تعالى : (فسبح باسم ربك العظيم) ، قوله : إن الباء هناك داخلة على المفعول كدخولها عليه فى قوله : (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) ، وأحال على متقدم فى ذلك ، وحكى كلام القرطبى أن الاسم بمعنى المسمى ، واستشهد له من كلام العرب بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وقال : لايلزم فى نظرى أن الاسم بمعنى المسمى هنا ، لإمكان كون المراد نفس الاسم ، لأن أسماء الله ألحد فيها قوم ونزّهها آخرون ، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن ، لاشتمالها على صفاته الكريمة ، كما فى قوله : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

وقوله تعالى : (أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) .

ثم قال : ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين فى الاسم والمسمى ، هل الاسم هو المسمى أو لا ؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية . اهـ .

فتضمن كلامه رحمة الله تعالى علينا وعليه ، احتمال كون المراد : تنزيه اسم الله عما ألحد فيه الملحدون ، كاحتمال تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله ، كما تضمن عدم لزوم كون الاسم هنا بمعنى المسمى ، ولعلنا نورد مجمل بيان تلك النقاط إن شاء الله .

أما تنزيه أسماء الله فهو على عدة معان .

منها : تنزيهها عن إطلاقها على الأصنام كاللات والعزى واسم الآلهة .

ومنها : تنزيهها عن اللهو بها واللعب ، كالتلفظ بها فى حالة تنافى الخشوع والإجلال كمن يعبث بها ويلهو ، ونظيره من يلهو ويسهو عن صلاته ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، أو

وضعها فى غير مواضعها ، كنقش الثوب أو الفراش الممتهن .

ومنها : تنزيهها عن المواطن غير الطاهرة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء نزع خاتمه لما فيه من نقش محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنه : صيانة الأوراق المكتوبة من الابتذال صوناً لاسم الله .

وعلى هذا تكون هذه الآية موضحة لآية الواقعة ، وأن اسم ربك واقع موقع المفعول به ، وهو المراد بالتسبيح ، وعلى أن المراد تسبيح الله تعالى ، فقالوا : إن الاسم هو المسمى ، كما قال القرطبي وغيره ، وقالوا : الاسم صلة ، كما فى بيت لبيد المتقدم .

أما مسألة الاسم هل هو عين المسمى أم لا ، فقد أشار إليها الفخر الرازى ، وقال : إنه وصف ركيك .

أما قول الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولا يلزم فى نظرى كون الاسم بمعنى المسمى هنا ، فإنه بلازم إلى بسط قليل ، ليظهر صحة ما قاله .

وقد ناقشها الرازى بعد مقدمة ، قال فيها : من الناس من تمسك بهذه الآية ، فى أن الاسم نفس المسمى .

فأقول : إن الخوض فى الاستدلال لا يمكن إلا بعد تلخيص محل

النزاع ، فلابد هاهنا من بيان أن الاسم ماهو والمسمى ماهو .

فنقول : إن كان المراد من الاسم هو هذا اللفظ ، وبالمسمى تلك الذات ، فالعاقل لايمكن أن يقول : الاسم هو المسمى ، وإن كان المراد من الاسم هو تلك الذات ، وبالمسمى أيضاً تلك الذات . كان قولنا الاسم نفس المسمى ، هو أن تلك الذات هي تلك الذات . وهذا لايمكن أن ينازع فيه عاقل ، فعلمنا أن هذه المسألة في وصفها ركيكة ، وذكر الاشتباه على المتأخرين بسبب لفظ الاسم الذى هو قسيم الفعل والحرف ، إذ هو مراد المتقدمين في إطلاقه وإرادة مسماه .

ومن هنا تعلم : لماذا أعرض الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عن بيانها ؟ وقد أوردنا هذا البيان المجمل ، لنطلع القارىء إليه ، وعلى كل تقدير عند المتقدمين أو المتأخرين فإنه إن وقع الاحتمال في الذوات الأخرى ، فلا يقع في ذات الله وأسمائه ، لأن لأسماء الله أحكاما لا لأسماء الآخرين ، ولأسمائه سبحانه حق التسبيح والتنزيه والدعاء بها كما تقدم .

وهنا وجهة نظر لم أر من صرح بها ، ولكن قد تفهم من كلام بعض المفسرين وتشير إليها السنة . وهي : أن يكون التسبيح هنا بمعنى الذكر والتعبد ، كالتحميد والتهليل والتكبير .

وقد جاء في كلام الرازي قوله : ويكون المعنى سبح ربك بذكر أسمائه ، ونحوه في بعض نقول الطبري .

أما إشارة السنة إلى ذلك ، فقد روى الطبرى وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنها لما نزلت ، قال صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأها (سبحان ربى الأعلى) .

وكذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت (فسبح باسم ربك العظيم) قال : « اجعلوها فى ركوعكم » ولما نزلت هذه قال: « اجعلوها فى سجودكم » .

وساق القرطبى أثراً طويلا فى فضلها فى الصلاة وخارج الصلاة ، لكنه ليس بصحيح .

وجاء الحديث الصحيح « تسبحون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وتكبرون ثلاثا وثلاثين ، وتختمون المائة بلا إله إلا الله » .

وقد صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « ماصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة ، بعد أن نزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلا يقول : سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى ، وقالت : يتأول القرآن » .

وقالت أم سلمة « إنه كان يقولها فى قيامه وقعوده ، ومجيئه وذهابه ، صلى الله عليه وسلم » فيكون سبح اسم ربك : أى اذكر ربك .

وهذا مادلت عليه الآية الأخرى فى هذه السورة نفسها فى قوله تعالى : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) فصرح بذكر

اسم ربك ، كما جاء سبح اسم ربك ، فوضع الذكر موضع التسبيح ، وهو ما أشرنا إليه . وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى: ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .

أطلق الخلق ليعم كل مخلوق كما تقدم فى السجدة ، الذى أحسن كل شىء خلقه ، والتسوية التقويم والتعديل ، وقد خلق الله كل مخلوق مستوٍ على أحسن مايتناسب لخلقته وماخلق له ، فخلق السماوات فسواها فى أقوى بناء ، وأعلى سمك ، وأشد تماسك ، لاترى فيها من تشقق ولا فطور ، وزيّنها بالنجوم ، وخلق الأرض ودحاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها وجعلها فراشا ومهاداً ، وخلق الأشجار فسوّاها على ماتصلح له من ذوات الثمار ووقود النار وغير ذلك .

وهذه الحيوانات فى خلقتها وتسويتها آية (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) .

أما الإنسان فهو فى أحسن تقويم ، كل ذلك مما يستوجب حقاً له سبحانه أن يسبح اسمه فى ذاته ، وجميع صفاته ، حيث جمع بين الخلق والتسوية ، فلكمال القدرة والتنزيه عن كل نقص .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ .

أطلق هنا التقدير ليعم كل مقدور ، وهو عائد على كل مخلوق ،

لأن من لوازم الخلق التقدير ، كما قال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) ، وقوله (قد جعل الله لكل شيء قدرا) ، وهـذه الآية ومثيلاتها من أعظم آيات القـدرة ، وقد جمعها تعالى عنـد التعريف التام لله تعالى ، لما سأل فرعون نبي الله موسى عن ربه قال : (فمن ربكما ياموسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

وقد تقدم بيان عموم قوله تعالى : (الذى خلق فسوى) ، وهنا قدر كل ماخلق ، وهدى كل مخـلوق إلى الله ماقدره له ، ففى العـالم العلوى قدَّر مقادير الأمور ، وهدَى الملائكة لتنفيذها ، وقدَّر مسـير الأفلاك ، وهداها إلى ماقدر لها ، كل فى فلك يسبحون .

وفى الأشجار والنباتات قدر لها أزمنة معينة فى إيناعها وهدايتها إلى ماقدر لها ، فالجذر ينزل إلى أسفل والنبتة تنمو إلى أعلى ، وهـكذا الحيوانات فى تلقيحها ونتاجها وإرضاعها ، كل قد هداه إلى ماقدر له ، وهكذا الإنسان .

وقد قال الفخر الرازى : إن العالم كله داخل تحت منطوق هذه الآية .

أما معناها بالتفصيل ، فتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينـا وعليه فى سورة طه عند الكلام على قوله تعالى : (قال ربنـا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه معنى نقرئك فى سورة طه فى الكلام على قوله تعالى : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) ، وبينه بآية القيامة (لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) .

وقوله : فلا تنسى : بحثه رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب مع ماينسخ من الآيات فينساه ، وسيطبع إن شاء الله تعالى مع هذه التتمة ، تتمة للفائدة .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴾ .

هل ، إن هنا بمعنى إذ أو أنها شرطية ؟ وهل للشرط مفهوم مخالفة أم لا ؟ كل ذلك بحثه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بتوسع فى دفع إيهام الاضطراب ، ورجح أنها شرطية ، وقسم المدعو إلى ثلاثة أقسام مقطوع بنفعه ، ومقطوع بعدم نفعه ، ومحتمل وقال : محل التذكير مالم يكن مقطوعا بعدم نفعه ، كمن بين له مراراً فأعرض ، كأبى لهب ، وقد أخبر الله عنه بمآله فلانفع فى تذكيره .

قوله تعالى : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾.

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الحكمة من الذكرى :

ومنها تذكير المؤمنين ، وذلك فى الكلام على قوله تعالى : (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) فى سورة الذاريات .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ، الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴾ .

أى بسبب شقائهم السابق أزلا ، كما قال تعالى : (فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق) .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ .

نفى عنه الضدين ، لأن الإنسان بالذات إما حى وإما ميت ، ولا واسطة بينهما ، ولكن فى يوم القيامة تتغير الموازين والمعايير ، وهذا أبلغ فى التعذيب ، إذ لو مات لاستراح ، ومع أنه يتلقى من العذاب ما لاحياة معه ، كما فى قوله تعالى : (لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) .

وقوله : (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى ذلك فى سورة طه عند الكلام على قوله تعالى : (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيى) .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ .

أسند الفلاح هنا إلى من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ، وفى غير هذه الآية أسند التزكية لمشيئة الله فى قوله : (ولولا فضل الله عليكم

ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا) ، وفى آية أخرى ، نهى عن تزكية النفس .

وقد تقدم للشيخ بيان ذلك فى سورة النور عند الكلام على قوله تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد) على أن زكى بمعنى تطهر من الشرك والمعاصى ، لا على أنه أخرج الزكاة ، والذى يظهر أن آية النجم إنما نهى فيها عن تزكية النفس لما فيه من امتداحها ، وقد لا يكون صحيحاً كما فى سورة الحجرات (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ، وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ، إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ، صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

قرىء : تؤثرون بالتاء وبالياء راجعاً إلى (الأشقى الذى يصلى النار الكبرى) ، وعلى أنها بالتاء للخطاب أعم ، وحيث إن هذا الأمر عام فى الأمم الماضية ، ويذكر فى الصحف الأولى كلها عامة ، وفى صحف إبراهيم وموسى ، مما يدل على خطورته ، وأنه أمر غالب على الناس .

وقد جاءت آيات دالة على أسباب ذلك منها الجهل وعدم العلم بالحقائق ، كما فى قوله تعالى : (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ،

وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) أى الحياة الدائمة .

وقد روى القرطبي عن مالك بن دينار قوله : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى والدنيا من خزف يفنى ؟

ومن أسباب ذلك أن الدنيا زينت للناس وعجلت لهم كما فى قوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث) .

ثم قال : (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

وبيّن تعالى هذا المآب الحسن وهو فى وصفه يقابل والآخرة خير وأبقى ، فقال : (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد) .

تأمل هذا البديل ، ففى الدنيا ذهب وخيل ونساء والأنعام والحرث ، وقد قابل ذلك كله بالجنة فعمت وشملت ، ولكن نص على أزواج مطهرة ليعرف الفرق بين نساء الدنيا ونساء الآخرة ، كما تقدم فى (أنهار من عسل مصفى ولبن لم يتغير طعمه ، وماء آسن وخمر لذة للشاربين لا يصدعون عنها ولا ينزفون) وغير ذلك مما ينص على الخيرية فى الآخرة ،

ولاشك أن من آثر الآخرة غالب على من آثر الدنيـا ، وظاهر عليه ، كما صرح تعالى بذلك فى قوله : (زين للذين كفروا الحياة ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) .

فمن هذا يظهر أن أسباب إيثار الناس للحياة الدنيـا هو تزيينها وزخرفتها فى أعينهم بالمال والبنين والخيل والأنعام (المـال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) .

وقد سيق هذا ، لاعلى سبيل الإخبار بالواقع فحسب ، بل إن من ورائه مايسمى لازم الفائدة ، وهو ذم من كان هـذا حاله ، فوجب البحث عن العلاج لهذه الحالة .

وإذا ذهبنا نتطلب العلاج فإننا فى الواقع نواجه أخطر موضوع على الإنسان ، لأنه يشمل حياته الدنيا ومآله فى الآخرة ، ويتحكم فى سعادته وفوزه أو شقاوته وحرمانه ، وإن أقرب مأخذ لنا لهو هـذا الموطن بالذات من هـذه السورة ، وهو بضميمة ما قبلها إليها من قوله تعالى : (سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الـكبرى) ، وبعدها (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) فقد قسمت هذه الآيات الأمة كلها أمة الدعوة إلى قسمين .

أما التذكير والإنذار ، إذ قال تعالى : (فذكر إن نفعت

الذكرى)، فهذا موقف النبى صلى الله عليه وسلم ، وجاء تقسيم الأمة إلى القسمين الآتيين : سيذكر من يخشى : فينتفع بالذكرى وتنفعه ، ويتجنبها الأشقى : فلا تنفعه ولا ينتفع بها ، ثم جاء الحكم بالفلاح : قد أفلح من تزكى ، أى من يخشى وذكر اسم ربه فصلى ، ولم يغفل عن ذكر الله تعالى ، وهذا الموقف بنفسه هو المفصل فى سورة الحديد ، وفى معرض التوجيه لنا والتوبيخ للأمم الماضية أيضاً (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) .

فقسوة القلب وطول الأمد والتسويف : هى العوامل الأساسية للغفلة وإيثار الدنيا . والخشية والذكر : هى العوامل الأساسية لإيثار الآخرة ثم عرض الدنيا فى حقيقتها بقوله : (اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث — إلى قوله — والله ذو الفضل العظيم).

فوصف الداء والدواء معاً فى هذا السياق . فالداء : هو الغرور ، والدواء : هو المسابقة إلى مغفرة من الله ورضوانه .

وقوله : (إن هذا لفى الصحف الأولى) قيل : اسم الإشارة راجع إلى السورة ، كلها لتضمنها معنى التوحيد والمعاد والذكر والعبادات ،

والصحف الأولى : هى صحف إبراهيم وموسى ، على أنهـا بدل من الأولى .

وجاء عند القرطبي : أن صحف إبراهيم كانت أمثالا ، وصحف موسى كانت مواعظ ، وذكر نماذج لها .

وعند الفخر الرازى من رواية أبى ذر رضى الله عنه ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم « كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال : مائة وأربعة كتب على آدم عشر صحف ، وعلى شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان » .

وفى هذا نص على أن فى القرآن مما فى الصحف الأولى ، وقد جاء مايدل أن معـان أخرى كذلك فى صحف إبراهيم وموسى كما فى سورة النجم فى قوله : (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفّى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان إلا ماسعى ، وأن سعيـه سوف يرى) إلى آخره .

وهذا يؤيد أنها أكثرها أمثالا ومواعظ ، كما يؤكد ترابط الكتب السماوية .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الغاشية



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ، عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ، تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ، تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ، لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ، لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ .

الكلام فى هل هنا ، كالكلام فى هل التى فى أول سورة الإنسان، أنها استفهامية أو أنها بمعنى قد ؟

ورجح أبو السعود وغيره أنها استفهامية للفت النظر وشدة التعجب والتنويه ، بشأن هذا الحديث ، وهو مروى عن ابن عباس قال : رضى الله عنه : « لم يكن أتاه فأخبره به » وحديث الغاشية هو خبرها الذى يتحدث عنها .

والغاشية قال أبو حيان : أصلها فى اللغة : الداهية تغشى الناس ، واختلف فى المراد بها هنا : فقيل : يوم القيامة .

وقيل : النار . واستدل كل قائل بنصوص . فمن الأول قوله : (يوم يغشاهم العذاب) .

قال الفخر الرازى . وإنما سميت القيامة بهذا الاسم ، لأن ما أحاط بالشىء من جميع جهاته فهو غاش له ، والقيامة كذلك من وجوه .
الأول ، أنها ترد على الخلق بغتة ، وهو كقوله : (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة) .

والثانى : أنها تغشى الناس جميعاً من الأولين والآخرين .

والثالث : أنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد .

ومن استدلالهم على أنها النار ، قوله تعالى : (وتغشى وجوههم النـار) .

وقيل الغاشية : أهـل النار يغشونها أى يدخلونها ، فالغاشية كالدافة فى حديث الأضاحى .

وقال الطبرى : والراجح عندى أن الله تعالى أطلق ليعم ، فيجب أن تطلق ليعم أيضا .

والذى يظهر رجحانه والله تعالى أعلم : أنها فى عموم القيامة وليس فى خصوص النار ، فالنار من أهوال ودواهى القيامة ، وهو ما يشهد له القرآن فى هذا السياق من عدة وجوه ، ومنها : أنه جاء بعدها قوله : (وجوه يومئذ) ويوم أنسب للقيامة منه للنار .

ومنها : التصريح بعد ذلك ، بأن من كانت تلك صفاتهم تصلى

ناراً حامية ، مما يدل على أن الغاشية شيء آخر سوى النار الحامية .

ومنها : أن التعميم ليوم القيامة يشمل جميع الخلائق ، وهو الأنسب بالموقف ، ثم ينجى الله الذين اتقوا .

وقد بين تعالى قسيم هذا الصنف ، مما يدل على أن الحديث المراد الغاؤه ، إنما هو عن حالة عموم الموقف .

قوله تعالى (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية) الآيات.

اتفقوا على أن يومئذ ، يعنى يوم القيامة .

وقال أبو حيان : والتنوين فيه تنوين عوض . وهو تنوين عوض عن جملة ، ولم تتقدم جملة تصلح أن يكون التنوين عوضا عنها ، لكن لما تقدم لفظ الغاشية .

وأل موصولة باسم الفاعل ، فتنحل للتى غشيت أى للداهية التى غشيت ، فالتنوين عوض من هذه الجملة التى انحل لفظ الغاشية إليها ، وإلى الموصول الذى هو التى ، وهذا مما يرجح ويؤيد ما قدمناه ، من أن الغاشية هى القيامة . وجوه يومئذ خاشعة ، بمعنى ذليلة .

قال أبو السعود : هذا وما بعده وقع جوابا عن سؤال ، نشأ من

الاستفهام التشويقى المتقدم ، كأنه قيل من جانبه صلى الله عليه وسلم « ما أتانى حديثها ،فأخبره الله تعالى . فقال : وجوه » . إلخ .

قال : ولا بأس بتنكيرها لأنها فى موقع التنويع ، أى سوغ الابتداء بالنكرة كونها فى موقع التنويع : وجوه كذا ، ووجوه كذا .

وخاشعة : خبر المبتدإ ، أى وما بعده من صفاتهم .

وقوله (عاملة ناصبة) العمل معروف ، والنصب : التعب ، وقد اختلف فى زمن العمل والنصب هذين ، هل هو كان منها فى الدنيا أم هو واقع منهم فعلا فى الآخرة ، وما هو على كلا التقديرين : فالذين قالوا : هو كان منهم فى الدنيا ، منهم من قال : عمل ونصب فى العبادات الفاسدة كعمل الرهبان والقسيسين والمبتدعة الضالين ، فلم ينفعهم يوم القيامة ، أى كما فى قوله (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) .

ومنهم من قال : عمل ونصب والتذ ، فيما لا يرضى الله ، فعامله الله بنقيض قصده فى الآخرة ، ولكن هذا الوجه ضعفه ظاهر ، لأن من هذه حالهم لا يعدون فى عمل ونصب بل فى متعة ولذة .

والذين قالوا : سيقع منهم بالفعل يوم القيامة ، اتفقوا على أنه عمل ونصب فى النار من جر السلاسل ، عياذاً بالله . وصعودهم وهبوطهم الوهاد

والوديان ، أى كما فى قوله (سأرهقه صعودا) ، وقوله (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) .

وقد ذكر الفخر الرازى تقسيما ثلاثيا ، فقال : إما أن يكون ذلك كله فى الدنيا أو كله فى الآخرة ، أو بعضه فى الدنيا وبعضه فى الآخرة ، ولم يرجح قسما منها إلا أن وجه القول بأنها فى الدنيا وهى فى القسيسين ، ونحوهم . فقال : لما نصبوا فى عبادة إله وصفوه بما ليس متصفا به ، وإنما تخيلوه تخيلا أى بقولهم ثالث ثلاثة وقولهم : (عزير ابن الله) فكانت عبادتهم لتلك الذات المتخيلة لا لحقيقة الإله سبحانه .

ولا يبعد أن يقال على هذا الوجه : إن من كان ممن لا ينطق بالشهادتين ويعمل على جهالة فيما لا يعذر بجهله أن يخشى عليه من هذه الآية ، كما يخشى على من يعمل على علم ، ولكن فى بدعة وضلالة .

ومما يشهد للأول حديث المسىء صلاته ولأثر حذيفة « رأى رجلا يصلى فطفق فقال له : منذ كم تصلى هذه الصلاة ؟ قال : منذ أربعين سنة . قال له : ما صليت منذ أربعين سنة ولو مت على ذلك ، مت على غير فطرة محمد صلى الله عليه وسلم » .

والأحاديث الواردة فى ذلك على سبيل العمومات مثل قوله صلى الله عليه وسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرى فهو رد » أى مردود .

وحديث الحوض « فيذاد أقوام عن حوضى ، فأقول : أمتى أمتى ، فيقال : إنك لا تدرى ماذا أحدثوا بعدك إنهم غيّروا وبدّلوا » .

ونحو ذلك مما يوجب الانتباه إلى صحة العمل وموافقته لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك القسم الثانى كما فى قوله : (قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم) الآية .

أما الراجح من القولين فى زمن عاملة ناصبة أهو فى الدنيا أم فى الآخرة ؟ فإنه القول بيوم القيامة ، وهو مروى عن ابن عباس وجماعة . والأدلة على ذلك من نفس السياق .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام جيد جداً فى هذا الترجيح ، ولم أقف على قول لغيره أقوى منه ، نسوق مجمله للفائدة :

قال فى المجموع فى تفسير هذه السورة بعد حكاية القولين : الحق هو الثانى لوجوه ، وساق سبعة وجوه :

الأول : أنه على القول الثانى يتعلق الظرف بما يليه ، أى وجوه يوم الغاشية ، خاشعة عاملة ناصبة صالية .

أما على القول الأول فلا يتعلق إلا بقوله : تصلى . ويكون قوله :

خاشعة صفة للوجوه ، قد فصل بينها وبين الموصوف بأجنبي متعلق بصفة أخرى . والتقدير : وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى ناراً حامية . والتقديم والتأخير على خلاف الأصل ، فالأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه ، والتقديم والتأخير ، إنما يكون مع قرينة .

والثانى : أن الله ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء فى السورة بعد ذلك (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية فى جنة عالية) أى فى ذلك اليوم ، وهو يوم الآخرة : فالواجب تناظر القسمين أى فى الظرف.

الثالث : أن نظير هذين القسمين ما ذكر فى موضع آخر فى قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة) ، وفى موضع آخر فى قوله (وجوه يومئذ مسفرة، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة) وهذا كله وصف للوجوه فى الآخرة .

الرابع : أن المراد بالوجوه أصحابها لأن الغالب فى القرآن وصف الوجوه بالعلامة كقوله : (سيماهم فى وجوههم) وقوله : (فلعرفتهم بسيماهم) ، وهذا الوجه لم تتضح دلالته على المقصود .

الخامس : أن قوله : خاشعة عاملة ناصبة ، لو جعل صفة لهم

فى الدنيا لم يكن فى هذا اللفظ ذم ، فإن هـذا إلى المدح أقرب ، وغايته أنه وصف مشترك بين عباده المؤمنين وعباده الـكافرين ، والذم لا يكون بالوصف المشترك ولو أريد المختص ، لقيل : خاشعة للأوثان مثلا ، عاملة لغير الله، ناصبة فى طاعة الشيطان ، وليس فى القرآن ذم لهذا الوصف مطلقا ولا وعيد عليه ، فحمله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف فى القرآن ، وهـذا الوجه من أقواهـا فى المعنى وأوضحها دلالة .

وقد يشهد له أن هؤلاء قد يكون منهم العوام المغرورون بغيرهم ، ويندمون غاية الندم يوم القيامة على اتباعهم إياهم ، كما فى قوله تعالى : (وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليـكونا من الأسفلين) .

السادس : وهو مهم أيضاً ، أنه لو جعل لهم فى الدنيا لـكان خاصا ببعض الـكفار دون بعض ، وكان مختصا بالعباد منهم ، مع أن غير العباد منهم يكونون أسوأ عملا ويستوجبون أشد عقوبة .

السابع : أن هذا الخطاب لو جعل لهم فى الدنيا لـكان مثله ينفر من أصل العبادة والتنسك ابتداء ، أى وقد جاءت السنة بترك أصحاب الصوامع والمتنسكين دون التعرض لهم بقتل ولا قتال ، كما أنها

أقرت أصحاب الديانات على دياناتهم ، مما يشعر باحترام أصل التعبد لعموم الجنس ، كما أشار رحمة الله تعالى عليه .

وقد أوردنا مجمل كلامه رحمه الله ، لئلا تتخذ الآية على غير ما هو الراجح فيها ، أو يحمل السياق على غير ما سبق له ، وقد ختم كلامه بتوجيه لطيف بقوله : ثم إذا قيد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة ، وليس في الخطاب تقييد ، كان هذا سعياً في إصلاح الخطاب بما لم يذكر فيه . اهـ .

ومن الذى يعطى نفسه حق إصلاح الخطاب فى كلام رب العالمين ، إنها لفتة إلى ضرورة ومدى أهمية تفسير القرآن بالقرآن ، الذى نهجه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى أضواء البيان فى تفسير القرآن بالقرآن .

وقد بدا لى وجه آخر ، وهو لو جعل هذا العمل الكفار والمبتدعة ، لكان منطوقه أن العذاب وقع عليهم مجازاة على عملهم ونصبهم فى عبادتهم تلك ، والحال أن عذاب الكفار عموماً إنما هو على ترك العمل لله وحده ، وعقاب المبتدعة فيما ابتدعوه من ضلال ، فإذا كان ما ابتدعوه لاعلاقة له بأركان الإسلام ولا بالعقيدة ، وإنما هو فى فروع من العبادات ابتدعوها لم تكن فى السنة ، فإنهم وإن عملوا ونصبوا فلا أجر لهم فيها ،

ولا يقال : إنهم يعذبون عليها بطل ذلك المذكور مع سلامة العقيدة في التوحيد ، والقيام بالواجب في أركان الإسلام ، إذ العذاب المذكور ليس مقابلا بالعمل والنصيب المذكور ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴾ :

قيل : حاضرة ، وقيل : شديدة الحرارة ، وهذا الأخير هو ما يشهد له القرآن في قوله تعالى : (يطوفون بينها وبين حميم آن) ، ومعلوم أن الحميم شديد الحرارة ، كما أن حملها على معنى حاضرة لم يكن فيه بيان معنى ما في تلك العين من أنواع الشراب المعد والمحضر لهم ، وفي المعجم حميم آن : قد انتهى حره ، والفعل : أنى الماء المسخن يأنى بكسر النون . قال عباس :

علانيه والخيل يغشى متونها حميم وآن من دم الجوف ناقع

قوله تعالى ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ .

تكلم الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الجمع بينه وبين قوله تعالى : (فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين) ، وبين الصحيح من معنى الضريع ما هو ، وأنه نبت معروف للعرب ، وهو على الحقيقة لا المجاز

وقد أورد الفخر الرازى سؤالا والجواب عليه ، وهو كيف ينبت الضريع فى النار ؟ فأجاب بالإحالة على تصور كيف يبقى جسم الكفار حياً فى النار ، وكذلك الحيات والعقارب فى النار .

وهذا وإن كان وجيهاً من حيث منطق القدرة ، ولكن القرآن قد صرح بأن النار فيها شجرة الزقوم ، وأنها فتنة للظالمين فى قوله : (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون) فأثبت شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، وأثبت لها لازمها وهو طلعها فى تلك الصورة البشعة ، وأثبت لازم اللازم وهو أكلهم منها حتى ملء البطون .

والحق أن هذا السؤال وجوابه قد أثاره المبطلون ، ولكن غاية مافى الأمر سلب خاصية الإحراق فى النار عن النبات ، وليس هذا ببعيد على قدرة من خلق النار وجعل لها الخاصية .

وقد وجد نظيره فى الدنيا فتلك نار النمروذ ، كانت تحرق الطير فى الجو إذا اقترب منها . وعجزوا عن الدنو إليها ليلقوا فيها إبراهيم ووضعوه فى المنجنيق ورموه من بعيد ، ومع ذلك حفظه الله منها بقوله

تعالى لها : (كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) فسبحان من بيده ملكوت كل شيء .

قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ، لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ، فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ، فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .

وهذا هو قسيم القسم الأول فى بيان حال أهل الجنة ، ولم يعطف بالواو إيذانا بكمال تباين مضمونيهما . ويومئذ : هو يوم الغاشية المتقدم ، وهذا يقتضى أن الغاشية عامة فى الفريقين . وإن اختلفت أحوالها مع مختلف الناس ، وعليه فمنهم من تغشاه بهولها ، ومنهم من تغشاه بنعيمها . وهى بالنسبة لكل منهما متناهية فيما تغشاهم به ، وهى صادقة على الفريقين .

ومعلوم أن الغاشية تطلق على الخير كما تطلق على الشر ، بمعنى الشمول والإحاطة التامة . ومن إطلاقها على الخير ماجاء فى الحديث : « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى فيه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » أخرجه مسلم .

وبيان ذلك وتحقيقه فى حق كلا القسمين كالآتى :

أما الأول منهما : وهو الغاشية فى حق أهل النار فقد غشيهم العذاب حساً ومعنى ظاهراً وباطناً أولا خشوع فى ذلة ، وهى ناحية نفسية ، وهى أثقل أحياناً من الناحية المادية ، فقد يختار بعض الناس الموت عنها ، ثم مع الذلة العمل والنصب حساً وبدناً ، ومع النصب الشديد تصلى ناراً حامية ، وكان يكفى تصلى ناراً . ولكن إتباعها بوصفها حامية فهو زيادة فى إبراز عذابهم وزيادة فى غشيان العذاب لهم ، ثم يسقون من عين آنية متناهية فى الحرارة فيكونون بين نار حامية من الخارج وحميم من الداخل تصهر منه البطون ، فهو أتم فى الشمول للغاشية لهم من جميع الوجوه ، وفى حق القسم المقابل تعميم كامل وسرور شامل كالآتى ، وجوه ناعمة مكتملة النعمة ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم .

وهذا فى شموله من الناحية المعنوية كمقابله فى القسم الأول بدلا من خاشعة فى ذلة ناعمة فى نضرة لسعيها راضية الذى سعته فى الدنيا ، والذى تسعى لتحصيله أو ثوابه فى جنة عالية بدلا من عمل ونصب ، لا تسمع فيها لاغية : منزلة أدبية رفيعة حيث لا تسمع فيها كلمة لغو ولا يليق بها ، فهو إكرام لهم حتى فى الكلمة التى يسمعونها ، كما فى قوله : (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلا سلاماً سلاماً) . فيها عين جارية . ومعلوم أنها عيون وأنهار تجرى ، كقوله : (فى

جنات وعيون) ، ومن لوازم العيون والأنهار ، هو كمال النعيم ، فأشجار ورياحين ، فروح وريحان وجنة نعيم . وهذا في التعميم يقابل العين الآنية في الجحيم للقسم الأول ، فيها سرر مرفوعة وهم عليها متكؤن بدل من عمل الآخرين في نصب وشقاء . وأكواب موضوعة لإتمام التمتع وكمال الخدمة والرفاهية . ونمارق مصفوفة متكأ وزرابي مبثوثة مفروشة في كل مكان ، فاكتمل النعيم من كل جانب ، حيث اشتمل ما تراه العين وما تسمعه الأذن وما يتذوقون طعمه من شراب وغيره .

فيكون بذلك قد غشيتهم النعمة ، كما غشيت أولئك النقمة . وتكون الغاشية بمعنى الشاملة ، وعلى عمومها للفريقين ، وهي صالحة لغة وشرعاً للمعذبين بالعذاب ، والمنعمين بالنعيم . وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه

مجيء فيها مرتين : فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة . للدلالة على قسمي نعيم الجنة . الأول : عيون ونزهة . والثاني : سرر وسكن .

قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ .

توجيه الأنظار إلى تلك المذكورات الأربعة ، لما فيها من عظيم الدلائل على القدرة وعلى البعث وثم الإقرار لله تعالى بالوحدانية والألوهية، نتيجة لإثبات ربوبيته تعالى لجميع خلقه .

أما الإبل فلعلها أقرب المعلومات للعرب وألصقها بحياتهم فى مطعمهم من لحمها ومشربهم من ألبانها ، وملبسهم من أوبارها وجلودها ، وفى حلهم وترحالهم بالحمل عليها مما لا يوجد فى غيرها فى العالم كله لا فى الخيل ولا فى الفيلة ، ولا فى أى حيوان آخر ، وقد وجه الأنظار إليها مع غيرها فى معرض امتنانه تعالى عليهم فى قوله : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) .

وكذلك فى خصوصها فى قوله : (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم) .

إنها نعم متعددة ومنافع بالغة لم توجد فى سواها البتة ، وكل منها دليل على القدرة بذاته . أما الجبال فهى مما يملأ عيونهم فى كل وقت ويشغل تفكيرهم فى كل حين ، لقربها من حياتهم فى الأمطار والمرعى فى سهولها ، والمقيل فى كهوفها وظلها ، والرهبة والعظمة فى تطاولها وثباتها

فى مكانها . وقد وجه الأنظار إليها أيضاً فى موطن آخر فى قوله تعالى : (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتادا) ثوابت ، كما بين تعالى أنها : رواسى للأرض أن تميد بكم والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم . فهى مرتبطة بحياتهم وحياة أنعامهم كما أسلفنا .

أما السماء ورفعها أى ورفعتها فى خلقها وبدون عمد ترونها وبدون فطور أو تشقق على تطاول زمنها ، فهى أيضاً محط أنظارهم ، وملتقى طلباتهم فى سقيا أنعامهم .

ومعلوم أن خلق السماء والأرض من آيات الله الدالة على البعث ، كما تقدم مرار .

وتقدم للشيخ عند قوله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض) الآية . بيان كونها آية . أما الأرض وكيف سطحت ، فإن الآية فيها مع عمومها كما فى قوله : (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس) .

وقوله : (كيف سطحت) آية ثابتة ، لأن جرمها مع إجماع المفسرين على تكويرها ، فإنها ترى مسطحة أى من النقطة التى هى فى امتداد البصر ، وذلك يدل على سعتها وكبر حجمها ، لأن الجرم المتكور إذا بلغ من الكبر والضخامة حداً بعيداً يكاد سطحه يرى مسطحاً من نقطة النظر إليه ، وفى كل ذلك آيات متعددات للدلالة على

قدرته تعالى على بعث الخلائق، وعلى إيقاع مايغشــاهم على مختلف أحوالهم.

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنبيه على هـذا المعنى، عند الكلام على قوله تعالى: (قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض) الآية. من سورة يونس.

تنبيــه

التوجيه هنا بالنظر إلى الكيفية فى خلق الإبل ونصب الجبال، ورفع السماء، وتسطيح الأرض، مع أن الكيف للحالة، والله تعالى لم يشهد أحداً على شيء من ذلك كله (ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض) فكيف يوجه السؤال إليهم للنظر إلى الكيفية وهى شيء لم يشهدوه.

والجواب والله تعالى أعلم: هو أنه بالتأمل فى نتائج خلق الإبل، ونصب الجبــال إلخ. وإن لم يعلموا الكيف، بل ويعجزون عن كنهه وتحقيقه، فهو أبلغ فى إقامة الدليـل عليهم، كمن يقف أمام صنعة بديعة يجهل سر صنعتها، فيتساءل كيف تم صنعها؟ وقد وقع مثل ذلك وهو الإحالة على الأثر بدلا من كشف الكنه والكيف، وذلك فى سؤال الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ربه، أن يريه كيف يحيي الموتى. فكان الجواب: أن أراه الطيور تطير، بعد أن ذبحها بيده وقطعها، وجعل على كل جبل منها جزءاً. فلم يشاهد كيفية وكنه، وحقيقة الإحياء،

وهو دبيب الروح فيها وعودة الحياة إليها . لأن ذلك ليس فى استطاعته، ولـكن شاهد الآثار المترتبة على ذلك ، وهى تحركها وطيرانها وعودتهـا إلى ما كانت عليه قبل ذبحها . مع أنه كان للعزير موقف مماثل وإن كان أوضح فى البيان حيث شاهد العظام وهو سبحـانه ينشزها ، ثم يكسوها لحما . والله تعالى أعلم .

أما قوله تعالى بعد ذلك (فذكر إنما أنت مذكر) فإن مجىء هذا الأمر بالفـاء فى هـذا الموطن ، فإنه يشعر بأن النظر الدقيق والفكر الدارس ، ممـا قد يؤدى بصاحبـه إلى الاستدلال على وجود الله وعلى قدرته ، كما نطق مؤمن الجاهلية قس بن ساعدة فى خطبته المشهورة : ليل داج، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحـار تزخر ، وجبال مرساه ، وأرض مدحاه ، وأنهار مجراه . فقد ذكر السماء والجبال والأرض .

وكقول زيد بن عمرو بن نفيل ، مؤمن الجاهلية المعروف :

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلمـا استوت شـدها ... سواء وأرسى عليهـا الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن تحمل عـذبا زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الريح تصرف حالا فحالا

فكان على هؤلاء العقلاء أن ينظروا بدقة وتأمل ، فيما يحيط بهم

عامة . وفى تلك الآيات الكبار خاصة ، فيجدون فيها مايكفيهم .

كما قيل :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

فإذا لم يهدهم تفكيرهم ولم تتجه أنظارهم . فذكرهم إنما أنت مذكر . وهذا عام ، أى سواء بالدلالة على القدرة من تلك المصنوعات أو بالتلاوة من آيات الوحى . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾

فيه الدلالة على أن الإياب هو المرجع .

قال عبيد :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لايؤوب

كما فى قوله : (إليه مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) وهو على الحقيقة كما فى صريح منطوق قوله تعالى : (ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم) الآية .

وقوله : (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) .

وقوله : (ثم إن علينا حسابهم) الإتيان بثم للاشعار ما بين إيابهم وبدء حسابهم ، (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) .

وقوله : (إن علينا) بتقدم حرف التأكيد ، وإسناد ذلك لله تعالى،

وبحرف على مما يؤكد ذلك لامحالة ، وأنه بأدق ما يكون ، وعلى الصغيرة والكبيرة كما فى قوله : (إن تبـدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) .

ومن الواضح مجىء (إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسـابهم) بعد قوله تعالى : (فذكر إنمـا أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتخويف لأولئك الذين تولوا وأعرضوا ، ثم إن الحسـاب فى اليوم الآخر ليس خاصا بهؤلاء ، بل هو عام بجميع الخلائق . ولـكن إسنـاده لله تعالى مما يدل على المعانى المتقدمة .

نسأل الله العفو والسلامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾

اختلف فى المراد بالفجر ، فقيل : انفجار النهار من ظلمة الليل .

وقيل : صلاة الفجر .

وكلا القولين له شاهد من القرآن . أما انفجار النهار ، فكما فى قوله تعالى : (والصبح إذا تنفس) .

وأما صلاة الفجر فكما فى قوله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) ، ولكن فى السياق مايقرب القول الأول ، إذ هو فى الأيام والليالى الفجر وليال عشر ، الليل إذا يسرى ، وكلها آيات زمنية أنسب لها انفجار النهار .

بقى بعد ذلك اختلافهم فى أى الفجر عنى هنا ، فقيل بالعموم فى كل يوم ، وقيل : بالخصوص . والأول قول ابن عباس وابن الزبير وعلى رضى الله عنهم .

وعلى الثانى فقيل : خصوص الفجر يوم النحر . وقيل : أول يوم المحرم ، وليس هناك نص يعول عليه . إلا أن فجر يوم النحر أقرب إلى الليالى العشر ، إن قلنا : هى عشر ذى الحجة على مايأتى إن شاء الله .

أما الليالى العشر فأقوال المفسرين محصورة فى عشر ذى الحجة ، وعشر المحرم والعشر الأواخر من رمضان . والأول جاء عن مسروق أنها العشر التى ذكرها الله فى قصة موسى عليه السلام وأتممناها بعشر ، وكلها الأقوال الثلاثة مروية عن ابن عباس . وليس فى القرآن نص بعينها .

وفى السنة بيان فضيلة عشر ذى الحجة وعشر رمضان كما هو معلوم ، فإن جعل الفجر خاصا بيوم النحر ، كان عشر ذى الحجة أقرب للسياق . والله تعالى أعلم .

والشفع والوتر : ذكر المفسرون أكثر من عشرين قولا ومجموعها يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلا .

أما جملة فقالوا : إنما الوتر هو الله ، للحديث : « إن الله وتر يحب الوتر » ، وما سواه شفع ، كما فى قوله تعالى : (ومن كل شىء خلقنا زوجين) ، فهذا شمل كل الوجود الخالق والمخلوق ، كما فى عموم (فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصرون) .

أما التفصيل فقالوا : المخلوقات إما شفع كالحيوانات أزواجا ، والسماء والأرض والجبل والبحر والنار والماء . وهكذا ذكروا لكل شىء مقابله ، ومن الأشياء الفرد كالهواء وكلها من باب الأمثلة .

والواقع أن أقرب الأقوال عندى والله أعلم : أنه هو الأول لأنه

ثبت علمياً أنه لايوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة .

فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات والذرة لها نواة ومحيط ، وبينهماارتباط ومن طريقهما التفجير الذى اكتشف فى هذا العصر ، حتى فى أدق عالم الصناعة كالكهرباء ، فإنها من سالب وموجب ، وهكذا لابد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أى جهاز كان ، حتى الماء الذى كان يظن به البساطة فهو زوج وشفع من عنصرين ، أكسجين وهدروجين ، ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة أى الغليان ، ويتآلفان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتقاطران ماء . وهكذا .

ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب ، فلم يبق فى الكون شىء قط فرداً وتراً بذاته ، إلا مانص عليه الحديث « إن الله وتر يحب الوتر » ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغنى بذاته عن غيره ، والواحد فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله . فصفاته كلها وتر كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت . إلخ . بخلاف المخلوق ، وقلنا : المستغنى بذاته عن غيره ، لأن كل مخلوق شفعا ، فإن كل عنصر منه فى حاجة إلى العنصر الثانى ، ليكون معه ذاك الشىء والله سبحانه بخلاف ذلك. ولهذا كان القول الأول ، وهو أن الوتر هو الله ، والشفع هو المخلوقات جميعها ، هو القول الراجح ، وهو الأعم فى المعنى .

قوله : (والليل إذا يسر) اتفق المفسرون على المعنى وهو سريان الليل ، ولكن الخلاف فى التعيين هل المراد به عموم الليالى فى كل ليلة أم ليلة معينة ، وما هى ؟

فقيل : بالعموم كقوله : (والليل إذا عسعس) .

وقيل : بالخصوص فى ليلة مزدلفة أو ليلة القدر .

وأيضاً يقال : إذا كان الفجر فجر النحر ، والعشر عشر ذى الحجة فيكون (والليل إذا يسر) ليلة الجمع . والله تعالى أعلم .

وقد رجح القرطبى وغيره عموم الليل ، وقد جمع فى هذا القسم جميع الموجودات جملة وتفصيلا ، فشملت الخالق والمخلوق والشفع والوتر إجمالا وتفصيلا ، فى انفجار الفجر وانتشار الخلق وسريان الليل وسكون الكون ، والعبادات فى الليالى العشر .

فكان من أعظم ما أقسم الله به قوله تعالى : (هل فى ذلك قسم لذى حجر) أى عقل ، والحجر كل مادته تدور على الإحكام والقوة ، فالحجر لقوته ، والحجرة لإحكام مافيها ، والعقل سمى حجراً بكسر الحاء . لأنه يحجر صاحبه عما لا يليق ، والمحجور عليه لمنعه من تصرفه وإحكام أمره ، وحجر المرأة لطفلها ، فهذه المقسم بها الخمسة هل فيها قسم كافٍ لذى عقل ، والجواب : بلى ، وهذا مايقوى هذا القسم بلا شك .

ثم اختلف فى جواب هذا القسم حيث لم يصرح تعالى به ، كما صرح به فى نظيره ، وهو قوله : (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) .

ثم صرح بالمقسم عليه (إنه لقرآن كريم) الآية . وهنا لم يصرح به مع عظم القسم فوقع الخلاف فى تعيينه .

فقيل : هو مقدر تقديره ليعذبن يدل له قوله (ألم تر كيف فعل ربك بعاد — إلى قوله — فصب عليهم ربك سوط عذاب) .

وقيل : موجود وهو قوله : (إن ربك لبالمرصاد) قاله القرطبى .

وهذا من حيث الصناعة فى اللغة وأساليب التفسير وجيه ، ولكن يوجد فى نظرى والله تعالى أعلم : ارتباط بين القسم وجوابه وبينما يجىء فى آخر السورة من قوله : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) إلى آخر السورة .

كما أنه يظهر ارتباط كبير بينه وبين آخر السورة التى قبلها ، إذ جاء فيها (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر) ، (والفجر وليال عشر - إلى قوله - هل فى ذلك قسم لذى حجر) ، لأن ما فيه من الوعيد بالعذاب الأكبر والقصر فى إيابهم إلى الله وحده وحسابهم عليه فحسب يتناسب معه هذا القسم العظيم .

أما ارتباطه بما فى آخر السورة ، فهو أن المقسم به هنا خمس مسميات (والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر) والذى فى آخر السورة أيضاً خمس مسميات : دكّ الأرض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكرالإنسان وأنى له الذكرى .

صور اشتملت على اليوم الآخر كله من أول النفخ فى الصور ، ودك الأرض إلى نهاية الحساب ، وتذكر كل إنسان ماله وما عليه ، تقابل ما اشتمل عليه القسم المتقدم من أمور الدنيا .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

لم يبين هنا ماذا ولا كيف فعل ، بمن ذكروا ، وهم عاد وثمود وفرعون .

وقد تقدم ذكر ثلاثتهم فى سورة الحاقة عند قوله تعالى : (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم – إلى قوله – فأخذهم أخذة رابية) .

والجديد هنا : هو وصف كل من عاد من أنها ذات العماد ، ولم يخلق

مثلها فى البلاد ، وثمود أنهم جابوا الصخر بالواد ، وفرعون أنه ذو أوتاد .

وقد اختلف فى المعنى بهذه الصفات كلها .

أما عاد ، فقيل : العماد عماد بيوت الشعر ، والمراد بها القبيلة . وطول عماد بيوتها : كناية عن طول أجسامهم ، كما قيل فى صخر :

* رفيع العماد طويل النجـاد *

وطول الأجسام يدل على قوة أصحابها .

وقيل : إرم : كانت مدينة رفيعة البنيان ، وذكروا فى أخبارها قصصاً تفوق الخيال ، وأنها فى الربع الخالى ، ولكن حيث لم تثبت أخبارها بسند يعول عليه ، ولم يصدقه الواقع ، فقال قوم : قد خسف بها ولم تعد موجودة .

أما ثمود : فقد جابوا ، أى نحتوا الصخر بالواد ، بواد القرى فى مدائن صالح ، وهى بيوتهم موجودة حتى الآن .

وأما فرعون ذو الأوتاد ، فقيل : هى أوتاد الخيام ، كان يتدها لمن يعذبهم .

وقيل : هى كناية عن الجنود يثبت بها ملكه .

وقيل : هى أكمات وأسوار مرتفعات ، يلعب له فى مرابعها .

قال ابن جرير مانصه : حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة « وفرعون ذى الأوتاد ، ذكر لنا أنها كانت مطال ، وملاعب يلعب له تحتها من أوتاد وجبال »

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن هذا القول هو الصحيح ، وأنها مرتفعة ، وأنها هى المعروفة الآن بالأهرام بمصر ، ويرجح ذلك عدة أمور :

منها : أنها تشبه الأوتاد فى منظرها طرفه إلى أعلا ، إذ القمة شبه الوتد ، مدببة بالنسبة لضخامتها ، فهى بشكل مثلث ، قاعدته إلى أسفل وطرفه إلى أعلا .

ومنها : ذكره مع ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، بجامع مظاهر القوة ، فأولئك نحتوا الصخر بيوتاً فارهين ، وهؤلاء قطعوا الصخر الكبير من موطن لاجبال حوله ، مما يدل أنها نقلت من مكان بعيد . والحال أنها قطع كبار صخرات عظام ففى اقتطاعها وفى نقلها إلى محل بنائها ، وفى نفس البناء كل ذلك مما يدل على القوة والجبروت ، وتسخير العباد فى ذلك .

ومنها : أن حملها على الأهرام القائمة بالذات والمشاهدة فى كل زمان ولكل جيل ، أوقع فى العظة والاعتبار ، بأن من أهلك تلك الأمم ، قادر على إهلاك المكذبين من قريش وغيرهم .

وصدق الله العظيم : (إن ربك لبالمرصاد) .

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ، كَلَّا ﴾

بيّن تعالى أنه يعطى ويمسك ابتلاء للعبد .

وقوله تعالى : كلا ، وهى كلمة زجر وردع ، وبيان أن المعنى لا كما قلتم فيه تعديل لمفاهيم الكفار ، بأن العطاء والمنع لا عن إكرام ولا لإهانة ، ولكنه ابتلاء كما فى قوله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

وقوله : (اعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ . وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

بعد ما بين سبحانه صحة المفاهيم فى العطاء والمنع ، جاء فى هذه الآيات وبين حقيقة فتنة المال إيجاباً وسلباً جمعاً وبذلا ، فبدأ بأقبح الوجوه من الإمساك من عدم إكرام اليتيم ، مهيض الجناح، مكسور الخاطر، والتقاعس عن إطعام المسكين ، خالى اليد جائع البطن ، ساكن الحركة،

وهذان الجانبان أهم مهمات بذل المـال وهم يمسكون عنها ، وقد بين تعالى أن هذا الجانب هو اقتحام العقبة عند الشدة ، فى قوله تعالى فى سورة البلد (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة)

ومن الجانب الآخر (وتأكلون التراث أكلا لماً) أى الميراث ، فلا يعطون النسوة وهن ضعيفات الشخصية ، أحوج إلى مال مورثهن ، وتحبون المال حباً حتى استعبدكم وألهاكم التكاثر فيه .

وهنـا لفت نظر الفريقين ، فمن أعطى منهم لاينبغى له أن يغفل طرق البذل الهامة ، ومن منع لاينبغى له أن يستشرف إلى مالاينبغى له ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .

تقدم فى سورة الحاقة أيضاً هذا السياق نفسه ، بعد ذكر ثمود وعاد وفرعون فى قوله (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ـ إلى قوله ـ والملك على أرجائها) الآية . مما يبين معنى صفاً صفاً ، أى على أرجائها صفاً بعد صف .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الإحالة على مايفسرها

فى سورة الرحمن على قوله تعالى : (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض) . وقوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفا صفا) وجاء ربك : من آيات الصفات .

مواضع البحث والنظر

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مراراً فى الأضواء فى عدة محلات ، وليعلم أنها والاستواء وحديث النزول والإتيان المذكور فى قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ، والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) سواء .

وقد أورد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث آيات الصفات كاملة فى محاضرة أسماها « آيات الصفات » وطبعت مستقلة .

كما تقدم له رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الأعراف عند قوله تعالى : (ثم استوى على العرش يغشى الليل والنهار) وإن كان لم يتعرض لصفة المجىء بذاتها ، إلا أنه قال : إن جميع الصفات من باب واحد ، أى أنها ثابتة لله تعالى على مبدأ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، على غير مثال للمخلوق ، فثبت استواء يليق بجلاله على غير مثال للمخلوق .

وكذلك هنا كما ثبت استواء ثبت مجىء وكما ثبت مجىء ثبت نزول.

والكل من باب ليس كمثله شىء ، أى على ماقال الشافعى رحمه الله :

نحن كلفنا بالإيمان ، فعلينا أن نؤمن بصفات الله على ما يليق بالله على مراد الله ، وليس علينا أن نكيف ، إذ الكيف ممنوع على الله سبحانه.

قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾

قد بين تعالى موضوع تذكر الإنسان ، وهو قوله : (يقول ياليتنى قدمت لحياتى) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك فى سورة الفرقان عند قوله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) الآيات .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ .

تقدم الكلام على هذه اللام ، وهل هى لنفى القسم أو لتأكيده ، وذلك عند قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة) إلا أنها هنا ليست للنفى ، لأن الله تعالى قد أقسم بهذا البلد فى موضع آخر ، وهو فى قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين) ، لأن هذا البلد مراد به مكة إجماعا لقوله تعالى بعده : (وأنت - أى الرسول صلى الله عليه وسلم - حل) أى حال أو حلال(بهذا البلد) ، أى مكة ، على ماسيأتى إن شاء الله .

وقد ذكر القرطبي وغيره نظائرها من القرآن ، والشعر العربى مما لايدل على نفى ، كقوله تعالى : (مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك) مع أن المراد مامنعك من السجود ، وكقول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة وكاد صميم القلب لايتقطع

أى وكاد صميم القلب يتقطع .

وقد بحثها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثاً مطولا فى دفع إيهام الاضطراب .

وقوله تعالى : (وأنت حل بهـذا البـلد) حل : بمعنى حال ، والفعل المضعف يأتى مضارعه من باب ، نصر ، وضرب ، فإن كان متعديا كان من باب نصر .

تقول : حل العقـدة يحلهـا بالضم ، وتقول : حل بالمكان يحل بالـكسر إذا أقام فيه ، والإحلال دون الإحرام .

وقد اختلف فى المراد بحل هل هو من الإحـلال بالمكان ، أو هو من التحلل ضد الإحرام ؟

فأكثر المفسرين أنه من الإحلال ضـد الإحرام ، واختلفوا فى المراد بالإحلال هذا .

فقيل : هو إحلال مكة له فى عام الفتح ، ولم تحل لأحد قبـله ولا بعـده .

وقيل : حل : أى حلال له مايفعل بمـكة غـير آثم ، بينما هم آثمون بفعلهم .

وقيل : حل : أى أن المشركين معظمون هذا البلد وحرمته فى نفوسهم ، ولـكنهم مستحلون إيذاءك وإخراجك .

وذكر أبو حيان : أنه من الحـلول والبقـاء والسكن ، أى وأنت حال بها . اهـ .

وعلى الأول يكون إخباراً عن المستقبل ووعداً بالفتح ، وأنها تحل له بعد أن كانت حراما ، فيقاتل أهلها وينتصر عليهم أو أنه تسلية له ، وأن الله عالم بما يفعلون به . وسينصره عليهم .

وعلى الثانى : يكون تأكيداً لشرف مكة ، إذ هى أولا فيها بيت الله وهو شرف عظيم ، ثم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم حال فيها بين أهلها .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن هذا الثانى هو الراجح ، وإن كان أقل قائلا ، وذلك لقرائن من نفس السورة ومن غيرها من القرآن الكريم .

منها : أن حلوله صلى الله عليه وسلم بهذا البلد له شأن عظيم فعلا ، وأهمه أن الله رافع عنهم العذاب لوجوده فيهم ، كما فى قوله تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فكأنه تعالى يقول : وهذا البلد الأمين من العذاب ، وهؤلاء الآمنون من العذاب بفضل وجودك فيهم .

ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم بحلوله فيها بين أظهرهم ، يلاق من المشاق ويصبر عليها .

وفيه أروع المثل للصبر على المشاق فى الدعوة ، فقد آذوه كل الإيذاء ، حتى وضعوا سلا الجزور عليه وهو يصلى عند الكعبة ، وهو يصبر

عليهم ، وآذوه فى عودته من الطائف ، وجاءه ملك الجبال نصرة له ، فأبى وصبر ودعا لهم ، ومنعوه الدخول إلى بلده مسقط رأسه فصبر ، ولم يدع عليهم ، ورضى الدخول فى جوار رجل مشرك وهذا هو المناسب لقوله بعده (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) ، وهذا من أعظمه .

فإذا كان كل إنسان يكابد فى حياته ، أياً كان هو ، ولأى غرض كان ، فمكابدتك تلك جديرة بالتقدير والإعظام ، حتى يقسم بها . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ .

قيل : الوالد هو آدم ، وما ولد ، قيل : ما نافية . وقيل : مصدرية .

فعلى أنها نافية : أى وكل عظيم لم يولد له .

وعلى المصدرية : أى بمعنى الولادة من تخليص نفس من نفس ، وما يسبق ذلك من تلقيح وحمل ونمو الجنين وتفصيله وتخليقه وتسهيل ولادته .

وقيل : ووالد وما ولد : كل والد مولود من حيوان وإنسان .

وقد رجح بعض العلماء أن الوالد هو آدم ، وما ولد ذريته ،

بأنه المناسب مع هـــذا البلد لأنها أم القرى ، وهو أبو البشر، فكأنه أقسم بأصول الموجودات وفروعها .

قوله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ .

تقدم بيانه عند قوله تعالى : (يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) .

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا . أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ .

لم يبين أيراه أحد؟ ومن الذى يراه ؟

ومعلوم أنه سبحانه وتعالى يراه ، ولكن جاء الجواب مقروناً بالدليل والإحصاء فى قوله تعالى بعده (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين) لأن من جعل للانسان عينين يبصر بهما ويعلم منه خائنة الأعين ، ولساناً ينطق به ويحصى عليه ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وهداه الطريق ، طريق البذل وطريق الإمساك ، وإذا كان الأمر كذلك فلن ينفق درهما إلا وهو سبحانه يعلمه ويراه .

قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ .

النجد : الطريق ، وهو كما تقدم فى سورة الإنسان بعد تفصيل

خلق الإنسان (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل) أى الطريق على كلا الأمرين بدليل (إما شاكراً وإما كفوراً) .

وتقدم المعنى هناك ، ويأتى فى السورة بعدها عند قوله تعالى : (فألهمها فجورها وتقواها) زيادة إيضاح له ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ .

وقد بين المراد بالعقبة فيما بعد بقوله : (وما أدراك ما العقبة) ثم ذكر تفصيلها .

وقد ذكر أن كل ماجاء بصيغة وما أدراك ، فقد جاء تفصيله بعده كقوله تعالى : (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) وما بعدها .

وتقدم عند قوله تعالى : (الحاقة ما الحاقة) .

وفى تفسير العقبة بالمذكورات ، فك الرقبة ، وإطعام اليتيم والمسكين توجيه إلى ضرورة الإنفاق حقاً لاما يدعيه الإنسان بدون حقيقة فى قوله : (أهلكت مالا لبداً) .

أما فك الرقبة : فإنه الإسهام فى عتق الرقيق والاستقلال فى عتقها يعبر عنه بفك النسمة .

وهذا العنصر من العمل بالغ الأهمية ، حيث قدم فى سلم الاقتحام لتلك العقبة .

وقد جاءت السنة ببيان فضل هذا العمل حتى أصبح عتق الرقيق أو فك النسمة ، يعادل به عتق المعتق من النار كل عضو بعضو ، وفيه نصوص عديدة ساقها ابن كثير ، وفى هذا إشعار بحقيقة موقف الإسلام من الرق ، ومدى حرصه وتطلعه إلى تحرير الرقاب .

فهاهو هنا يجعل عتق الرقبة ، سلم اقتحام العقبة ، وجعله عتقاً للمعتق من النار كل عضو بعضو . ومعلوم أن كل مسلم يسعى لذلك وجعله كفارة لكل يمين وللظهار بين الزوجين ، وكفارة القتل الخطأ ، كل ذلك نوافذ إطلاق الأسارى وفك الرقاب فى الوقت الذى لم يفتح للاسترقاق إلا باب واحد ، هو الأسر فى القتال مع المشركين لا غير ، وهما مما سبق تنبيها عليــه رداً على المستشرقين ومن تأثر بهم ؛ فى ادعائهم على الإسلام أنه متعطش لاسترقاق الأحرار .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على قوله تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ فى سورة الإسراء .

وقوله تعالى : (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة) أى شدة وجوع . والساغب : الجائع ؛ قال القرطبى : وأنشد أبوعبيدة :

فلو كنت جارا يا بن قيس لعاصم لما بت شبعانا وجارك ساغبا

أى لو كنت جاراً بحق تفى بحق الجار، لما حدث لجارك هذا .

وهذا القيد لحال الاطعام دليل على قوة الإيمان بالجزاء وتقديم ما عند الله على ما فى قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً) ، على ما تقدم من أن الضمير فى حبه أنه للطعام ، وهذا غالب فى حالات الشدة والمسغبة .

وقوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فهى أعلى منازل الفضيلة فى الإطعام .

وقوله : (يتيما ذا مقربة) فاليتيم من حرم أبويه أو أحدهما ، وقد خصوا فى اللغة يتيم الحيوان ، من فقد الأم ، وفى الطيور من فقد الأبوين ، وفى الإنسان من فقد الأب .

وذا مقربة : أى قرابة ، وخص به ؛ لأن الإطعام فى حقه أفضل وأولى من غيره ، وفيه الحديث « أن الصدقة على الغريب صدقة وصلة، وعلى البعيد صدقة فقط » .

والأحاديث فى الإحسان إلى اليتيم متضافرة ، ويكفى قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذين » أى السبابة والتى تليها

قوله تعالى :(أو مسكيناً ذا متربة) ، قيل : المسكين من السكون وقلة الحركة ، والمتربة : الالصوق بالتراب .

وقد اختلف فى التفريق بين المسكين والفقير أنهما أشد احتياجا وما حد كل منهما ، فاتفقوا أولا على أنه إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا ، وإذا ذكر أحدهما فقط ،فيشمل الثانى معه ، ويكون الحكم جامعاً لهما كما هو هنا : فالإطعام يشمل الاثنين معاً ، وإذا اجتمعا فرق بينهما بالتعريف .

فالمسكين كما تقدم والفقير ، قالوا : مأخوذ من الفقرة وهى الحفرة تحفر للنخلة ونحوها للغرس ، فكأنه نزل إلى حفرة لم يخرج منها .

وقيل : من فقار الظهر ، وإذا أخذت فقار منها عجز عن الحركة ، فقيل : على هذا الفقير أشد حاجة ، ويرجحه ما جاء فى قوله تعالى : (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر) فسماهم مساكين مع وجود سفينة لهم يتسببون عليها للمعيشة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً » الحديث . مع قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من الفقر » ، وهذا الذى عليه الجمهور ، خلافاً لمالك .

وقد قالوا فى تعريف كل منهما : المسكين من يجد أقل ما يكفيه،

والفقير: من لا يجد شيئاً ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءامَنُوا ﴾ .

هذا قيد فى اقتحام العقبة ، بتلك الأعمال من عتق أو إطعام ، لأن عمل غير المؤمن لا يجعله يقتحم العقبة يوم القيامة لإحباط عمله ولاستيفائه إياه فى الدنيا ، وثم هنا للترتيب الذكرى لا الزمنى ، لأن الإيمان مشروط وجوده عند العمل .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان شروط قبول العمل وصحته فى سورة الإسراء عند قوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن) ، وكقوله : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) ، وقوله : (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) لأن الإيمان هو العمل الأساسى فى حمل العبد على عمل الخير يبتغى به الثواب ، وخاصة الإنفاق فى سبيل الله ، لأنه بذل بدون عوض عاجل .

وقد بحث العلماء موضوع عمل الكافر الذى عمله حالة كفره ثم أسلم ، هل ينتفع به بعد إسلامه أم لا ؟

والراجح : أنه ينتفع به ، كما ذكر القرطبى أن حكيم بن حزام بعد ما أسلم قال : يا رسول الله إنا كنا نتحنث بأعمال فى الجاهلية فهل لنا منها شىء ؟ فقال عليه السلام « أسلمت على ما أسلفت من الخير » ، وحديث عائشة قالت : « يارسول الله إن ابن جدعان كان فى الجاهلية

يصل الرحم ويطعم الطعام ويفك العانى ويعتق الرقاب ، ويحمل على إبله لله ، فهل ينفعه ذلك شيئاً ؟ قال : لا ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

ومفهومه أنه لو قالها ، أى لو أسلم فقالها كان ينفعه ، والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾

تتمة لصفاتهم ، والصبر عام على الطاعة وعن المعصية ، والمرحمة زيادة فى الرحمة ، والحديث « الراحمون يرحمهم الرحمن » .

وذكر المرحمة هنا يتناسب مع العطف على الرقيق والمسكين واليتيم ، والله تعالى أعلم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ الشَّمْسِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ .

فى تلك الآيات العشر يقسم الله تعالى سبع مرات بسبع آيات كونية ، هى الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والسماء ، والأرض ، والنفس البشرية ، مع حالة لكل مقسم به ، وذلك على شىء واحد ، وهو فلاح من زكى تلك النفس وخيبة من دساها ، ومع كل آية جاء القسم بها توجيها إلى أثرها العظيم المشاهد الملموس ، الدال على القدرة الباهرة .

وذلك كالآتى أولا : (والشمس وضحاها) فالشمس وحدها آية دالة على قدرة خالقها ، لما فيها من طاقة حرارية فى ذاتها تفوق كل تقدير ، وهى على الزمان بدون انتقاص ، فهى فى ذاتها آية .

ثم جاء وصف أثرها وهو : ضحاها ، وهو انتشار ضوئها ضحوة

النهار ، وهذا وحده آية ، لأنه نتيجة لحركتها ، وحركتها آية من آيات الله كما قال تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، وهى الآية التى حاج بها إبراهيم عليه السلام نمروذ فى قوله : (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر) .

ففى هذا السير قدرة باهرة ودقة متناهية ، وضحاها : نتيجة لهذا السير ، ثم ضحاها نعم جزيلة على الكون كله ، من انتشار فى الأرض وانتفاع بضوئها وأشعتها .

وقد قالوا : لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة لما استطاع أحد أن ينتفع منها بشىء ، لأنها تحرق باقترابها ، ويتجمد العالم من بعدها ، ذلك تقدير العزيز العليم .

فالضحى وحده آية وهو حرها كقوله : (وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) أى بحرّ الشمس ، وقد أقسم تعالى بالضحى وحده فى قوله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى) .

وقوله : (والقمر إذا تلاها) فهو كذلك القمر وحده آية ، وكذلك تلوه للشمس ونظام مسيره بهذه الدقة ، وهذا النظام فلا يسبقها

ولا تفوته : (لا الشمس ينبغى أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) .

وفى قوله تعالى : (إذا تلاها) أى تلا الشمس ، دلالة على سير الجميع ، وأنها سابقته وهو تاليها .

فقيل : تاليهـا عند أول الشهر تغرب ، ويظهر من مكان غروبها .

وقد قال بعض أهل الهيأة : تاليها فى منزلة الحجم ، أى كبرى وهو كبير بعدها فى الحجم ، وفيه نظر .

ولا يخفى ما فى القمر من فوائد للخليقة ، من تخفيف ظلمة الليل ، وكذلك بعض الخصائص على الزرع ، وأهم خصـائصه بيان الشهور بتقسيم السنة ومعرفة العبادات من صوم ، وحج ، وزكاة ، وعدد النساء ، وكفارات بصوم ، وحلول الديون ، وشروط المعاملات ، وكل ماله صلة بالحساب فى عبادة أو معاملة .

وقد جاء القسم بالقمر فى المدثر فى قوله : (كلا والقمر والليل إذا أدبر) الآية .

وقوله : (والقمر إذا اتسق) مما يدل على عظم آيته ودقيق دلالته .

وقوله : (والنهار إذا جلاها) والنهار هو أثر من آثار ضوء الشمس.

وجلاها . قيل : الضمير فيه راجع للشمس كما في الذي قبله ، ولكن اختار ابن كثير أن يكون راجعاً للأرض ، أي كشفها وأوضح كل ما فيها ليتيسر طلب المعاش والسعي ، كقوله : (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً) وقوله : (وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً ، وجعل النهار نشوراً)

وقد أقسم تعالى بالنهار إذا تجلى : أي ظهر ووضح بدون ضمير إلى غيره في قوله تعالى : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) أي في مقابلة غشاوة الليل يكون بتجلي النهار .

وقد بين تعالى عظم آية النهار وعظم آية الليل ، وأنه لا يقدر على الإتيان بهما إلا الله ، كما في قوله : (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) .

وقوله : (والليل إذا يغشاها) قالوا : يغشى الشمس فينحجب

ضياؤها ، والكلام على الليل ، كالكلام على النهار ، من حيث الآية . والدلالة على قدرته تعالى .

وتقدمت النصوص الكافية وسيأتى الإقسام بالليل فى قوله : (والليل إذا يغشى) أى يغشى الكون كله ، كما فى قوله : (والليل وما وسق) أى جمع واشتمل بظلامه .

والضمير فى يغشاها : راجع إلى الشمس ، وعليه ، قيل : إن الإقسام فى هذه الأربعة راجع كله إلى الشمس فى حالات مختلفة ، فى ضحاها ثم تجليها ، ثم تلو القمر لها ، ثم يغشيان الليل إياها ، وهنا سؤال : كيف يغشى الليل الشمس ، مع أن الليل وهو الظلمة نتيجة لغروب الشمس عن الجهة التى فيها الليل ؟

فقيل : إن الليل يغطى ضوء الشمس ، فتتكون الظلمة ، والواقع خلاف ذلك . وهو أن الشمس ظاهرة وضوؤها منتشر ، ولكن فى قسم الأرض المقابل للظلمة الموجودة ، كما أن الظلمة تكون فى القسم المقابل للنهار ، وهكذا .

ولذا قال ابن كثير : إن الضمير فى يغشاها وجلاها راجع إلى الأرض ، إلا أن فيه مغايرة فى مرجع الضمير ، والله تعالى أعلم .

وقوله : (والسماء وما بناها) قيل : ما ، بمعنى الذى ، وجىء بها بدلا عن من ، التى لأولى العلم ، لإشعارها معنى الوصفية ، أى والسماء والقادر الذى بناها ، وكذلك ما بعدها فى الأرض ، وما طحاها ونفس ، والحكيم العليم الذى سواها ، وما مشترك بين العالم وغيره ، كقوله : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، ومثله : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) .

وتقدم مراراً أحوال السماء فى بنائها ورفعها ، وجعلها سبعاً طباقاً ، وقد بين فى تلك النصوص كيفية بنائها ، وأنه سبحانه وتعالى بناها بقوة ، كما فى قوله تعالى : (والسماء بنيناها بأييد) أى بقوة ، وقوله تعالى : (والأرض وما طحاها) مثل دحاها

وقالوا : إبدال الدال طاء مشهور ، وطحا تأتى بمعنى خلق ، وبمعنى ذهب فى كل شىء ، فمن الأول :

وما تدرى جذيمة من طحاها ... ولا من ساكن العرش الرفيع

ومن الثانى قول علقمة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب ... بعيد الشباب عصر حان مشيب

ولا منافاة فى ذلك بأنه تعالى خلقها ومدها ، وذهب بأطرافها بكل مذهب ، أى فى مدها .

تنبيــــه

قالوا : ذكر السماء وما بناها ، للدلالة على حدوثها ؛ وبالتالى على حدوث الشمس والقمر ، وأن تدبيرهما لله .

وقوله : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها) قالوا : النفس تحمل كامل خلقة الإنسان بجسمه وروحه وقواه الإنسانية ، من تفكير وسلوك .. إلخ .

وقيل : النفس هنا بمعنى القوى المفكرة المدركة منـــــاط الرغبة والاختيار ، وعليه فذكر النفس بالمعنى الأول ، تكون تسويتها فى استواء خلقتها وتركيب أعضائها ، وهى غاية فى الدلالة على القدرة والكمال والعلم ، كما فى قوله : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وقال : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) أى من أعضاء وأجزاء وتراكيب وعدة أجهزة تبهر العقول فى السمع ، وفى البصر ، وفى الشم ، وفى الذوق ، وفى الحس ، ومن داخل الجسم ما هو أعظم ، فحق أن يقسم بها .

وما سواها : أى بالقدرة الباهرة ، والعلم الشامل . وذكرها بالمعنى الثانى ، فإنه فى نظرى أعظم من المعنى الأول ، وذلك أن القوى

المدركة والمفكرة والمقـــدرة للأمور التى لها الاختيار ، ومنها القبول والرفض والرضى والسخط والأخذ والمنع ، فإنها عالم مستقل .

وإنها كما قلنا أعظم مما تقدم ، لأن الجانب الخلقى قال تعالى فيه : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) ولكن فى هذا الجانب قال : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنســـان إنه كان ظلوماً جهولا) .

ومعلوم أن بعض أفراد الإنسان حملها بصدق وأداها بوفاء ، ونال رضى الله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه .

فهذه النفس فى تسويتها لتلقى معانى الخير والشر ، واستقبال الإلهام الإلهى الفجور ، والتقوى أعظم دلالة على القدرة من تلك الجمادات التى لا تبدى ولا تعيد ، والتى لا تملك سلباً ولا إيجاباً .

وهنا مثال بسيط فيما استحدث من آلات حفظ وحساب ، كالآلة الحاسبة والعقل الألكترونى ، فإنها لا تخطىء كما يقولون ، وقد بهرت العقول فى صنعتها ، ولكن بنظرة بسيطة نجدها أمام النفس الإنسانية كقطرة من بحر .

فنقول : إنها أولا من صنع هذه النفس ذات الإدراك النامى والاستنتاج الباهر .

ثانياً : هى لا تخطىء لأنها لا تقدر أن تخطىء ، لأن الخطأ ناشىء عن اجتهاد فكرى ، وهى لا اجتهاد لها ، إنما تشير وفق مارسم لها كالمادة المسجلة فى شريط ، فإن المسجل مع دقة حفظه لها فإنه لا يقدر أن يزيد ولا ينقص حرفاً واحداً .

أما الإنسان فإنه يغير ويبدل ، وعندما يبدل كلمة مكان كلمة ، فلقدرته على إيجاد الكلمة الأخرى ، أو لاختياره ترك الكلمة الأولى .

وهكذا هنا ، فالله تعالى هنا خلق تلك النفس أولا ، ثم سواها على حالة تقبل تلقى الإلهام بقسميه : الفجور والتقوى ، ثم تسلك أحد الطريقين ، فكأن مجىء القسم بها بعد تلك المسميات دلالة على عظم ذاتها وقوة دلالتها على قدرة خالقها ، وما سواها مستعدة قابلة لتلقى إلهام الله إياها .

تنبيه

وفى مجيئها بعد الآيات الكونية : من شمس وقمر وليل ونهار ،

وسماء وأرض ، لفت إلى وجوب التأمل فى تلك المخلوقات ، يستلهم منها الدلالة على قدرة خالقها والاستدلال على تغير الأزمان ، وحركة الأفلاك ، وإحداث السماء بالبناء أنه لابد لهذا العالم من صانع ، ولابد للمحدث المتجدد من فناء وعدم .

كما عرض إبراهيم عليه السلام على النمروذ نماذج الاستدلال على الربوبية والألوهية ، فأشار إلى الشمس أولا ، ثم إلى القمر ، ثم انتقل به إلى الله سبحانه .

وقوله : (فألهمها فجورها وتقواها) إن كان ألهمها بمعنى هداها وبيّن لها ، فهو كما فى قوله : (وهديناه النجدين) وقوله : (إنا هديناه السبيل) ، وهذا على الهداية العامة ، التى بمعنى الدلالة والبيان .

وإن كان بمعنى التيسير والإلزام ، ففيه إشكال القدر فى الخير الاختيار .

وقد بحث هذا المعنى الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب بحثاً وافياً .

قوله تعالى (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

هذا هو جواب القسم فيما تقدم ، فالواو قد حذفت منه اللام لطول ما بين المقسم به والمقسم عليه .

وقد نوه عنه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى : (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) من سورة ص، وأنهم استدلوا لهذه الآية عليه .

والأصل : لقد أفلح ، فحذفت اللام لطول الفصل ، وزكاها بمعنى طهّرها ، وأول ما يطهرها منه دنس الشرك ورجسه ، كما قال تعالى : (إنما المشركون نجس) وتطهيرها منه بالإيمان ثم من المعاصى بالتقوى ، كما فى قوله تعالى : فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) ثم بعمل الطاعات (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى)

واختلف فى مرجع الضمير فى زكاها ودساها ، وهو يرجع إلى اختلافهم فى (فألهمها فجورها وتقواها) فهل يعود على الله كما فى (ونفس وما سواها) أم يعود على العبد .

ويمكن أن يستدل لكل قول ببعض النصوص . فمما يستدل به للقول الأول قوله تعالى : (بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا) وقوله : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا) وفى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول عند هذه الآية : « اللهم ائت نفسى تقواها وزكها ، أنت خير من زكاها ، وأنت وليها ومولاها » .

ومما استدل به للقول الثانى فكوله : (قد أفلح من تزكى

وذكر اسم ربه فصلى) ، وقوله : (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير) وقوله : (فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى) . وقوله : (وما يدريك لعله يزكى) ، وكلها كما ترى محتملة ، والإشكال فيها كالإشكال فيما قبلها .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن الجمع بين تلك النصوص كالجمع فى التى قبلها ، وأن ما يتزكى به العبد من إيمان وعمل فى طاعة وترك لمعصية ، فإنه بفضل من الله ، كما فى قوله تعالى المصرح بذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) .

وكل النصوص التى فيها عود الضمير أو إسناد التزكية إلى العبد ، فإنها بفضل من الله ورحمة ، كما تفضل عليه بالهدى والتوفيق للايمان ، فهو الذى يتفضل عليه بالتوفيق إلى العمل الصالح . وترك المعاصى ، كما فى قولك « لا حول ولا قوة إلا بالله » وقوله : (فلا تزكوا أنفسكم) ، وقوله : (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) إنما هو بمعنى المدح والثناء ، كما فى قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) بل إن فى قوله تعالى : (بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا) الجمع بين الأمرين ، القدرى

والشرعى ، بل الله يزكى من يشاء بفضله ، ولا تظلمون فتيلا بعدله . والله
والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ .

ثمود : اسم للقبيلة أسند إليها التكذيب ، أى بنبي الله صالح ، وأشقاها هو عاقر الناقة أسند الانبعاث له وحده بين ما جاء بعده ، (فكذبوه فعقروها) فأسند العقر لهم .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الجمع بين ذلك فى سورة الزخرف ، ومضمونه أنهم متواطئون معه كما فى قوله : (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) فكانوا شركاء له فى عقرها ، كما قال الشاعر :

والسامع الذم شريك لقائله ومطعم المأكول شريك للآكل

وفى قصة أبى طلحة فى صيد الحمار الوحشى ، سألهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم محرمون للعمرة « هل دله عليه منكم أحد ؟ قالوا : لا ، قال : هل عاونه عليه منكم أحد ؟ قالوا : لا ، قال : فكلوا إذا » ، لأن مفهومه : لو عاونوا أو دلوا لكانوا شركاء فى صيده ، فيحرم عليهم لقوله تعالى : (ولا تقتلوا الصيد

وأنتم حرم) وبعدم اشتراكهم حل لهم ، فلو عاونوا أو شاركوا لحرّم عليهم ، وهنا لما كانوا راضين ونادوه وتعاطى سواء عهودهم أو عطاؤهم أو غير ذلك فعقرها وحده ، كان هذا باسم الجميع ، فكانت العقوبة باسم الجميع ، ويؤخذ من هذا قتل الجماعة بالواحد ، وعقوبة الربيئة مع الجانى ، والله تعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ .

يقسم الله تعالى بالليل والنهار وأثرهما على الكون ، على أنهما آيتان عظيمتان .

وتقدم الكلام عليهما فى السورة قبلها عند قوله : (والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هاتين الآيتين ، عند قوله تعالى : (وجعل الليل والنهار آيتين) فى سورة بنى إسرائيل ، وذكر كل النصوص فى هذا المعنى . وأثر الليل والنهار فى حياة الناس ، ومعرفة الحساب ونحوه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث هذه المسألة ، وإيراد كل النصوص فى عدة مواضع ، أشار إليها كلها فى سورة النجم عند قوله تعالى : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) وقد قرئت بعدة قراءات منها (والذى خلق الذكر والأنثى) ، ومنها (والذكر والأنثى) .

وذكرها ابن كثير مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى ومسلم ، وعلى القراءة المشهورة .

(وما خلق الذكر والأنثى) ، اختلف فى لفظة « ما » فقيل : إنها مصدرية ، أى وخلق الذكر والأنثى .

وقيل : بمعنى من ، أى والذى خلق الذكر والأنثى . فعلى الأول يكون القسم بصفة من صفات الله وهى صفة الخلق ، ويكون خص الذكر والأنثى لما فيهما من بديع صنع الله وقوة قدرته سبحانه على ما يأتى .

وعلى قراءة : والذكر والأنثى . يكون القسم بالمخلوق كالليل والنهار ، لما فى الخلق من قدرة الخالق أيضاً ، وعلى أنها بمعنى الذى يكون القسم بالخالق سبحانه ، وتكون ما هنا مثل ما فى قوله : (والسماء وما بناها) وغاية ما فيه استعمالها وهى فى الأصل لغير أولى العلم ، إلا أنها لوحظ فيها معنى الصفة ، وهى صفة الخلق أو على ما تستعمله العرب عند القرينة ، كقوله تعالى : (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم) وقوله : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) لما لوحظ فيه معنى الصفة وهو الاستمتاع ، ساغ استعمال ما بدلا عمن .

وفى اختصاص خلق الذكر والأنثى فى هذا المقام لفت نظر إلى

هذه الصفة ، لما فيها من إعجاز البشر عنها ، كما فى الليل والنهار من الإعجاز للبشر من أن يقدروا على شىء فى خصوصه ، كما قدمنا فى السورة قبلها .

وذلك : أن أصل التذكير والتأنيث أمر فوق إدراك وقوى البشر ، وهى كالآتى أولا فى الحيوانات الثديية ، وهى ذوات الرحم تحمل وتلد ، فإنها تنتج عن طريق اتصال الذكور بالإناث .

وتذكير الجنين أو تأنيثه ليس لأبويه دخل فيه ، إنه من نطفة أمشاج ، أى أخلاط من ماء الأب والأم ، وجعل هذا ذكراً وذاك أنثى ، فهو هبة من الله كما فى قوله : (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) .

وقد ثبت علمياً أن سبب التذكير والتأنيث من جانب الرجل ، أى أن ماء المرأة صالح لهذا وذاك ، وماء الرجل هو الذى به يكون التمييز لانقسام يقع فيه ، فالمرأة لا تعدو أن تكون حرثاً ، والرجل هو الزارع ، ونوع الزرع يكون عن طريقه ، كما أشارت إليه الآية الكريمة (نساؤكم حرث لكم) ، والحرث لا يتصرف فى الزرع ، وإنما التصرف عن طريق الحارث .

ويتم ذلك عن طريق مبدء معلوم علمياً ، وهو أن خلية التلقيح

فى الأنثى دائماً وأبداً مكونة من ثمانية وأربعين جزءاً ، وهى دائماً وأبداً تنقسم إلى قسمين متساويين أربعة وعشرين ، فيلتحم قسم منها مع قسم خلية الذكر ، وخلية الذكر سبعة وأربعون ، وإنما أبداً تنقسم أيضاً عند التلقيح إلى قسمين ، ولكن أحدهما أربعة وعشرون ، والآخر ثلاثة وعشرون ، فإذا أراد الله تذكير الحمل سبق القسم الذى من ثلاثة وعشرين . فيندمج مع قسيم خلية الأنثى ، وهو أربعة وعشرون ، فيكون مجموعهما سبعة وأربعين ، فيكون الذكر بإذن الله .

وإذا أراد الله تأنيث الحمل سبق القسم الذى هو أربعة وعشرون من الرجل ، فيندمج مع قسيم خلية المرأة أربعة وعشرين ، فيكون من مجموعهما ثمانية وأربعون ، فتكون الأنثى بإذن الله ، وهكذا فى جميع الحيوانات .

أما النباتات فإن بعض الأشجار تتميز فيه الذكور من الإناث ، كالنخل والتوت مثلا ، وبقية الأشجار تكون الشجرة الواحدة تحمل زهرة الذكورة وزهرة الأنوثة ، فتلقح الرياح بعضها من بعض .

وقد حدثنى عدة أشخاص عن غريبتين فى ذلك .

إحداهما : أن نخلة موجودة حتى الآن فى بعض السنين فلا

يؤخذ منه ليؤبر النخيل ، وفى بعض السنين نخلة تطلع وتثمر .

وحدثنى اخر فى نفس المجلس : من أنه توجد عندهم شجرة نخل يكون أحد شقيها نخلا يؤخذ منه الطلع يلقح به النخل ، وشقها الآخر نخلة يتلقح من الشق الآخر لمجاورته .

كما حدثنى ثالث : أن والده قطع بعض فحل النخل لكثرته فى النخيل ، وبعد قطعه نبت فى أصله ومن جذعه وجذوره نخلة تثمر . وكل ذلك على خلاف العادة ، ولكنه دال على قدرة الله تعالى ، وأنه خالق الذكر والأنثى .

أما عمل هذا الجهاز فى الحيوانات ، بل وفى الحشرات الدقيقة ، وتكاثرها ، فهو فوق الحصر والحد .

وقد ذكروا فى عالم الحشرات ، ما يلقح نفسه بنفسه ، باحتكاك بعض فخذيه ببعض ، وكل ذلك مما لا يعلمه ولا يقدر على إيجاده إلا الله سبحانه وتعالى ، مما لو تأمله العاقل لوجد فيه كما أسلفنا القدرة الباهرة ، أعظم مما فى الليل إذا يغشى وما فى النهار إذا تجلى ، ولا سيما إذا صغر الكائن كالبعوضة فما دونها مما لا يكاد يرى بالعين ، ومع ذلك فإن فيه الذكورة والأنوثة . سبحانك اللهم ما أعظم شأنك .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ .

تقدم في السورة الأولى قوله تعالى : (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وكلاهما بالسعي إليه والعمل من أجله ، وهنا نقول : إن سعيكم مهما كان لشتى ، أي متباعد بعض عن بعض.

والشتات : التباعد والافتراق ، وشتى : جمع شتيت . كمرضى ومريض ، وقتلى وقتيل ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

قد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وهذا جواب القسم ، وفي القسم ما يشعر بالارتباط به ، كبعد ما بين الليل والنهار ، وما بين الذكر والأنثى ، فهما مختلفان تماماً ، وهكذا هما مفترقان في النتائج والوسائل ، كبعد ما بين فلاح من زكاها ، وخيبة من دساها المتقدم في السورة قبلها .

ثم فصل هذا الشتات في التفصيل الآتي (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) .

وما أبعد ما بين العطاء والبخل والتصديق والتكذيب واليسرى والعسرى ، وقد أطلق أعطى ليعم كل عطاء من ماله وجاهه وجهده حتى الكلمة الطيبة ، بل حتى طلاقة الوجه ، كما في الحديث « ولو أن أخاك بوجه طلق » .

والحسنى : قيل الجازاة على الأعمال .

وقيل : للخلف على الإنفاق .

وقيل : لا إله إلا الله .

وقيل : الجنة .

والذى يشهد له القرآن هو الأخير لقوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقالوا : الحسنى هى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم ، وهذا المعنى يشمل كل المعانى لأنها أحسن خلف لكل ما ينفق العبد ، وخير وأحسن مجازاة على أى عمل مهما كان ، ولا يتوصل إليها إلا بلا إله إلا الله .

وقوله : (فسنيسره لليسرى) وقوله : (فسنيسره للعسرى) بعد ذكر أعطى واتقى فى الأولى . وبخل واستغنى فى الثانية .

قيل : هو دلالة على أن فعل الطاعة ييسر إلى طاعة أخرى ، وفعل المعصية يدفع إلى معصية أخرى .

قال ابن كثير : مثل قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) .

ثم قال : والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، دالة على أن الله عز وجل،

يجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر .

والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة . وذكر عن أبى بكر عند أحمد ، وعن علىّ عند البخارى ، وعبد الله بن عمر عند أحمد ، وعدد كثير بروايات متعددة ، أشملها وأصحها حديث علىّ عند البخارى قال على : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بقيع الغرقد فى جنازة. فقال : مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل؟ فقال : اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، ثم قرأ (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى - إلى قوله - للعسرى) » فهى من الآيات التى لها تعلق ببحث القدر .

وتقدم مراراً بحث هذه المسألة . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــــه

قال أبو حيان : جاء قوله (فسنيسره للعسرى) على سبيل المقابلة ، لأن العسرى لا تيسير فيها . اهـ .

وهذا من حيث الأسلوب ممكن ، ولكن لا يبعد أن يكون

معنى التيسير موجوداً بالفعل ، إذ للشاهد أن من خذلهم الله - عياذاً بالله - يوجد منهم إقبال وقبول وارتياح ، لما يكون أثقل وأشق ما يكون على غيرهم ، ويرون ما هم فيه سهلا ميسراً لا غضاضة عليهم فيه ، بل وقد يستمرؤون الحرام ويستطعمونه .

كما ذكر لى شخص : أن لصاً قد كفّ عن السرقة حياء من الناس، وبعد أن كثر ماله وكبر سنه أعطى رجلا دراهم ليسرق له من زرع جاره ، فذهب الرجل ودار من جهة أخرى وأتاه بثمرة من زرعه هو ، أى زرع اللص نفسه ، فلما أكلها تفلها ، وقال : ليس فيه طعمة المسروق ، فمن أين أتيت به ؟ قال : أتيت به من زرعك ، ألا تستحى من نفسك ، تسرق وعندك ما يغنيك . فخجل وكف .

وقد جاء عن عمر نقيض ذلك تماما ، وهو أنه لما طلب من غلامه أن يسقيه مما فى شكوته من لبنه ، فلما طعمه استنكر طعمه ، فقال للغلام : من أين هذا ؟ فقال : مررت على إبل الصدقة فحلبوا لى منها ، وها هو ذا ، فوضع عمر إصبعه فى فيه ، واستقاء ما شرب .

إنها حساسية الحرام استنكرها عمر ، وأحسّ بالحرام فاستقاءه ، وهذا وذاك بتيسير من الله تعالى ، وصدق صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خلق له » .

ونحن نشاهد فى الأمور العادية أصحاب المهن والحرف كل واحد راضٍ بعمله وميسر له ، وهكذا نظام الكون كله ، والذى يهم هنا أن كلا من الطاعة أو المعصية له أثره على ما بعده .

تنبيـــــه

قيل : إن هذه المقارنة بين : من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، واقعة بين أبى بكر رضى الله عنه ، وبين غيره من المشركين .

ومعلوم أن العبرة بعموم اللفظ فهى عامة فى كل من أعطى واتقى وصدق ، أو بخل واستغنى وكذب . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ .

رد على من بخل واستغنى ، وما هنا يمكن أن تكون نافية أى لا يغنى عنه شىء ، كما فى قوله : (ما أغنى عنى ماليه) ، وقوله : (يوم لا ينفع مال ولا بنون) .

ويمكن أن تكون استفهامية وقوله (إذا تردى) أى فى النار عياذاً بالله ، أو تردى فى أعماله ، فمآله إلى النار بسبب بخله فى الدنيا ، كما يشهد له قوله تعالى : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) لآية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾

فيه للعلماء أوجه ، منها : إن طريق الهدى دال وموصل علينا بخلاف الضلال .

ومنها : التزام الله للخلق عليه لهم الهدى ، وهذا الوجه محل إشكال ، إذ أن بعض الخلق لم يهدهم الله .

وقد بحث هذا الأمر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب ، من أن الجواب عليه من حيث إن الهدى عام وخاص . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ .

أى بكمال التصرف والأمر ، وقد بينه تعالى فى سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين) أى المتصرف فى الدنيا (مالك يوم الدين) أى المتصرف فى الآخرة وحده (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) .

وهذا كدليل على تيسيره لعباده إلى ما يشاء فى الدنيا ، ومجازاتهم بما شاء فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ .

أى تتلظى ، واللظى : اللهب الخالص ، وفى وصف النار هنا بتلظى

مع أن لها صفات عديدة منها : السعير ، وسقر ، والجحيم ، والهاوية ، وغير ذلك .

وذكر هنا صنفاً خاصاً ، وهو من كذب وتولى ، كما تقدم فى موضع آخر فى وصفها أيضاً بلظى فى قوله تعالى : (إنها لظى نزاعة للشوى)، ثم بين أهلها بقوله : (تدعوا من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى) .

وهو كما هو هنا (فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى) ، وهو المعنى فى قوله قبله : (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى) مما يدل أن للنار عدة حالات أو مناطق أو منازل ، كل منزله تختص بصنف من الناس ، فاختصت لظى بهذا الصنف ، واختصت سقر بمن لم يكن من المصلين ، وكانوا يخوضون مع الخائضين ، ونحو ذلك . ويشهد له قوله : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) كما أن الجنة منازل ودرجات ، حسب أعمال المؤمنين . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى . ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى . ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ .

هذه الآية من مواضع الإيهام ، ولم يتعرض لها فى دفع إيهام الاضطراب ، وهو أنها تنص وعلى سبيل الحصر ، أنه لا يصلى النار إلا

الأشقى مع مجيء قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً) مما يدل على ورود الجميع .

والجواب من وجهين : الأول كما قال الزمخشرى : إن الآية بين حالىْ عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين .

فقيل : الأشقى وجعل مختصاً بالصلى ، كأن النار لم تخلق إلا له ، وقال الأتقى ، وجعل مختصاً بالجنة ، وكأن الجنة لم تخلق إلا له ، وقيل : عنهما هما أبو جهل أو أمية بن خلف المشركين ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، حكاه أبو حيان عن الزمخشرى .

والوجه الثانى : هو أن الصلى الدخول والشى ، وأن يكون وقود النار على سبيل الخلود ، والورود والدخول المؤقت بزمن غير الصلى لقوله فى آية الورود ، التى هى قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) ، (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) ويبقى الإشكال ، بين الذين اتقوا وبين الأتقى ويجاب عنه : بأن التقى يرد ، والأتقى لا يشعر بورودها ، كمن يمر عليها كالبرق الخاطف . والله تعالى أعلم .

ولولا التأكيد فى آية الورود بالمجيء بحرف من وإلا وقوله : (كان على ربك حتما مقضياً) لولا هذه المذكورات لكان يمكن أن

يقال : إنها مخصوصة بهذه الآية ، وأن الأتقى لا يردها ، إلا أن وجود تلك المذكورات يمنع من القول بالتخصيص . والله تعالى أعلم .

وفيه تقرير مصير القسمين المتقدمين ، من أعطى واتقى وصدق ، ومن بخل واستغنى وكذب ، وأن صليها بسبب التكذيب والتولى والإعراض وهو عين الشقاء ، ويتجنبها الأتقى الذى صدق ، وكان نتيجة تصديقه أنه أعطى ماله يتزكى ، وجعل إتيان المال نتيجة التصديق أمر بالغ الأهمية .

وذلك أن العبد لا يخرج من ماله شيئاً إلا بعوض ، لأن الدنيا كلها معاوضة حتى الحيوان تعطيه علفاً يعطيك ما يقابله من خدمة أو حليب . إلخ .

فالمؤمن المصدق بالحسنى يعطى وينتظر الجزاء الأوفى الحسنة بعشر أمثالها ، لأنه مؤمن أنه متعامل مع الله ، كما فى قوله : (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً) .

أما المكذب : فلم يؤمن بالجزاء آجلا ، فلا يخرج شيئاً لأنه لم يجد عوضاً معجلا ، ولا ينتظر ثواباً مؤجلا ، ولذا كان الذين تبوءوا الدار والإيمان ، يحبون من هاجر إليهم ويواسونهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم

خصاصة ، إيماناً بما عند الله ، بينما كان المنافقون لاينفقون إلا كرهاً ولا يخرجون إلا الردىء ، الذى لم يكونوا ليأخذوه من غيرهم إلا ليغمضوا فيه ، وكل ذلك سببه التصديق بالحسنى أو التكذيب بها

ولذا جاء فى الحديث الصحيح « والصدقة برهان » أى على صحة الإيمان بما وعد الله للمتقين ، من الخلف المضاعفة الحسنة .

وقوله : (يؤتى ماله يتزكى) أى يتطهر ويستزيد ، إذ التزكية تأتى بمعنى النماء ، كقوله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وهذا رد على قولة تعالى : (قد أفلح من تزكى) ، وعلى عموم : (فأما من أعطى واتقى) ، ولا يقال : إنها زكاة المال ، لأن الزكاة لم تشرع إلا بالمدينة ، والسورة مكية عند الجمهور ، وقيل : مدنية . والصحيح الأول .

تنبيه

قد قيل أيضاً : إن المراد بقوله : (وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى) إلى آخر السورة . نازل فى أبى بكر رضى الله عنه ، لما كان يعتق ضعفة المسلمين ، ومن يعذبون على إسلامهم فى مكة ، فقيل له : لو اشتريت الأقوياء يساعدونك ويدافعون عنك . فأنزل الله الآيات إلى قوله : (وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء

وجه ربه الأعلى) وابتغاء وجه رب هو بعينه ، وصدق بالحسنى أى لوجه الله يرجو الثواب من الله .

وكما تقدم ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وإن صورة السبب قطعية الدخول . فهذه بشرى عظيمة للصديق رضى الله عنه ، ولسوف يرضى فى غاية من التأكيد من الله تعالى ، على وعده إياه صلى الله عليه وسلم وأرضاه .

وذكر ابن كثير : أن فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دعته خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يدعى منها ضرورة ، فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم » . اه .

وإنا لنرجو الله كذلك فضلا منه تعالى .

تنبيه

فى قوله تعالى : (ولسوف يرضى) ، وذكر ابن كثير إجماع المفسرين أنها فى أبى بكر رضى الله عنه أعلى منازل البشرى ، لأن هذا الوصف بعينه ، قيل للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً فى السورة بعدها ، سورة الضحى (وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك

ربك فترضى)، فهو وعد مشترك للصديق وللرسول صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم أسند العطاء فيه لله تعالى بصفة الربوبية (ولسوف يعطيك ربك) كما ذكر فيه العطاء ، مما يدل على غيره صلى الله عليه وسلم ، وهو معلوم بالضرورة من أنه صلى الله عليه وسلم له عطاءات لا يشاركه فيها أحد ، على ما سيأتى إن شاء الله .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

تقدم معنى الضحى فى السورة المتقدمة .

وقيل : المراد به هنا النهار كله ، كما فى قوله : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) . وقوله : (والليل إذا سجى) قيل : أقبل ، وقيل : شدة ظلامه ، وقيل : غطى ، وقيل : سكن .

واختار الشيخ رحمة الله علينا وعليه فى إملائه معنى : سكن

واختار ابن جرير أنه سكن بأهله ، وثبت بظلامه ، قال كما يقال بحر ساج ، إذا كان ساكنا ، ومنه قول الأعشى :

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج ما يوارى الدعامصا

وقول الراجز :

يا حبذا القمراء والليل الساج   وطرق مثل ملاء النساج

وأنشدهما القرطبي ، وذكر قول جرير :

ولقد رميتك يوم رحن بأعين   ينظرن من خلل الستور سواج

أقسم تعالى بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتها المقسم عليه ، لأنهما طرفا الزمن وظرف الحركة والسكون ، فإنه يقول له مؤانسا : ما ودعك ربك وما قلى ، لا في ليل ولا في نهار ، على ما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

وقوله : (ما ودعك ربك) قرىء بالتشديد من توديع المفارق . وقرىء : ما ودعك ، بالتخفيف من الودع ، أى من الترك ، كما قال أبو الأسود :

ليت شعرى عن خليل ما الذى   غاله في الحب حتى ودعه

أى تركه ، وقول الآخر :

وثم ودعنا آل عمرو وعامر   فرائس أطراف المثقفة السمر

أى تركوهم فرائس السيوف .

قال أبو حيان : والتوديع مبالغة في الودع ، لأن من ودعك مفارقاً ، فقد بالغ في تركك . اهـ .

والقراءة الأولى أشهر وأولى ، لأن استعمال ودع بمعنى ترك قليل .

قال القرطبي ، وقال المبرد : لا يكادون يقولون : ودع ولا وذر ، لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك ، ويدل على قول المبرد سقوط الواو فى المضارع ، فتقول فى مضارع: ودع يدع كيزن ويهب ويرث ، من وزن ووهب وورث ، وتقول فى الأمر : دعْ وزنْ ، وهبْ ، أما ذر بمعنى اترك ، فلم يأت منه الماضى ، وجاء المضارع : يذرهم ، والأمر : ذرهم . فترجحت قراءة الجمهور بالتشديد من ودعك من التوديع .

وقد ذكرنا هذا الترجيح ، لأن ودع بمعنى ترك فيها شدة وشبه جفوة وقطيعة ، وهذا لا يليق بمقام المصطفى صلى الله عليه وسلم عند ربه . أما الموادعة والوداع ، فقد يكون مع المودة والصلة ، كما يكون بين المحبين عند الافتراق ، فهو وإن وادعه بجسمه فإنه لم يوادعه بحبه وعطفه ، والسؤال عنه وهو ما يتناسب مع قوله تعالى : (وما قلى) ،

تنبيـــه

هنا ماودعك بصيغة الماضى ، وهو كذلك المستقبل ، بدليل الواقع

وبدليل (ولا الآخرة خير لك من الأولى) لأنها تدل على مواصلة عناية الله به حتى يصل إلى الآخرة فيجدها خيراً له من الأولى ، فيكون ما بين ذلك كله فى عناية ورعاية ربه .

وقد جاء فى صلح الحديبية ، قال لعمر : أنا عبد الله ورسوله ، أى تحت رحمته وفى رعايته .

وقوله : وما قلى ، حذف كاف الخطاب لثبوتها فيما معها ، فدلت عليها هكذا . قال المفسرون :

وقال بعضهم : تركت لرأس الآية ، والذى يظهر من لطيف الخطاب ورقيق الإيناس ومداخل اللطف ، أن الموادعة تشعر بالوفاء والود ، فأبرزت فيها كاف الخطاب ، أى لم تتأت موادعتك وأنت الحبيب ، والمصطفى المقرب.

أما قلى : ففيها معنى البغض ، فلم يناسب إبرازها إمعاناً فى إبعاد قصده صلى الله عليه وسلم بشىء من هذا المعنى ، كما تقول لعزيز عليك : لقد أكرمتك ، وما أهنت لقد قربتك ، وما أبعدت كراهية أن تنطق باهانته وكراهيته ، أو تصرح بها فى حقه ، والقلى : يمد ويقصر هو البغض ، يمد إذا فتحت القاف ، ويقصر إذا كسرتها ، وهو واوى ويائى ، وذكر القرطبى ، قال : أنشد ثعلب :

أيام أم الغمر لا نقلاها ولو تشاء قبلت عينَاها

وقال كثير عزة :

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

فالأول قال : نقلاها من الواوى ، والثانى قال : مقلية من الياء ، وهما فى اللسان شواهد .

وقد جاء فى السيرة ما يشهد لهذا المعنى ويثبت دوام موالاته سبحانه لحبيبه وعنايته به وحفظه له بما كان يكلؤه به عمه ، وقد قال عمه فى ذلك :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا

وذكر ابن هشام فى رعاية عمه له ، أنه كان إذا جنَّ الليل وأرادوا أن يناموا ، تركه مع أولاده ينامون ، حتى إذا أخذ كل مضجعه ، عمد عمه إلى واحد من أبنائه ، فأقامه وأتى بمحمد صلى الله عليه وسلم ينام موضعه ، وذهب بولده ينام مكان محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان هناك من يريد به سوءاً فرآى مكانه فى أول الليل ، ثم جاء من يريده بسوء وقع السوء بابنه ، وسلم محمد صلى الله عليه وسلم ، كما فعل الصديق رضى الله عنه عند الخروج إلى الهجرة فى طريقهما إلى الغار ،

فكان رضى الله عنه تارة يمشى أمامه صلى الله عليه وسلم، وتارة يمشى وراءه، فسأله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: « أذكر الرصيد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون وراءك، فقال: أتريد لو كان سوء يكون بك يا أبا بكر؟ قال: بلى، فداك أبى وأمى يارسول الله، ثم قال: إن أهلك أهلك وحدى، وإن تهلك تهلك معك الدعوة »: فذاك عمه فى جاهلية وليس على دينه صلى الله عليه وسلم، وهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾.

خير تأتى مصدراً كقوله: إن ترك خيرا أى مالا كثيراً، وتأتى أفعل تفضيل محذوفة الهمزة، وهى هنا أفعل تفضيل بدليل ذكر المقابل، وذكر حرف من، مما يدل على أنه سبحانه أعطاه فى الدنيا خيرات كثيرة، ولكن ما يكون له فى الآخرة فهو خير وأفضل مما أعطاه فى الدنيا، ويوهم أن الآخرة خير له صلى الله عليه وسلم وحده من الأولى، ولكن جاء النص على أنها خير للأبرار جميعاً، وهو قوله تعالى: (وما عند الله خير للأبرار).

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الخيرية للأبرار عند الله، أى يوم القيامة عما أعد لهم، كما فى قوله: (إن الأبرار لفى

نعيم) ، وقوله : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) .

أما بيان الخيرية هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبيان الخير فى الدنيا أولا ، ثم بيان الأفضل منه فى الآخرة .

أما فى الدنيا المدلول عليه بأفعل التفضيل ، أى لدلالته على اشتراك الأمرين فى الوصف ، وزيادة أحدهما على الآخر ، فقد أشار إليه فى هذه السورة والتى بعدها ، ففى هذه السورة قوله تعالى : (ألم يجدك يتيماً فآوى) أى منذ ولادته ونشأته ، ولقد تعهده الله سبحانه من صغره فصانه عن دنس الشرك ، وطهّره وشق صدره ونقاه ، وكان رغم يتمه سيد شباب قريش ، حيث قال عمه عند خطبته خديجة لزواجه بها فقال : « فتى لا يعادله فتى من قريش ، حلماً وعقلا وخلقاً ، إلا رجح عليه » .

وقوله : (ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) .

على ما سيأتى بيانه كله ، فهى نعم يعددها تعالى عليه ، وهى من أعظم خيرات الدنيا من صغره إلى شبابه وكبره ، ثم اصطفائه بالرسالة ، ثم حفظه من الناس ، ثم نصره على الأعداء ، وإظهار دينه وإعلاء كلمته .

ومن الناحية المعنوية ماجاء فى السورة بعدها : (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك) .

أما خيرية الآخرة على الأولى ، فعلى حد قوله : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وليس بعد الرضى مطلب ، وفى الجملة : فإن الأولى دار عمل وتكليف وجهاد ، والآخرة دار جزاء وثواب وإكرام ، فهى لا شك أفضل من الأولى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

جاء مؤكداً باللام وسوف ، وقال بعض العلماء : يعطيه فى الدنيا من إتمام الدين وإعلاء كلمة الله ، والنصر على الأعداء .

والجمهور : أنه فى الآخرة ، وهذا وإن كان على سبيل الإجمال ، إلا أنه فصل فى بعض المواضع ، فأعظمها ما أشار إليه قوله تعالى : (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) .

وجاء فى السنة بيان المقام المحمود وهو الذى يغبطه عليه الأولون والآخرون ، كما فى حديث الشفاعة العظمى حين يتخلى كل نبى ،

ويقول : « نفسى نفسى » حتى يصلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها أنا لها » إلخ .

ومنها : الحوض المورود ، وما خصت به أمته غراً محجلين ، يردون عليه الحوض .

ومنها : الوسيلة ، وهى منزلة رفيعة عالية لا تنبغى إلا لعبد واحد ، كما فى الحديث : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ وسلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو » .

وإذا كانت لعبد واحد فمن يستقدم عليها ، وإذا رجا ربه أن تكون له طلب من الأمة طلبها له ، فهو مما يؤكد أنها له ، وإلا لما طلبها ولا ترجاها ، ولا أمر بطلبها له ، وهو بلاشك أحق بها من جميع الخلق ، إذ الخلق أفضلهم الرسل ، وهو صلى الله عليه وسلم مقدم عليهم فى الدنيا ، كما فى الإسراء تقدم عليهم فى الصلاة فى بيت المقدس .

ومنها : الشفاعة فى دخول الجنة كما فى الحديث : « أنه صلى الله عليه وسلم أول من تفتح له الجنة ، وأن رضوانا خازن الجنة يقول له : أمرت ألا أفتح لأحد قبلك » .

ومنها : الشفاعة المتعددة حتى لا يبقى أحد من أمته فى النار ، كما فى الحديث : « لا أرضى وأحد من أمتى فى النار » أسأل الله أن يرزقنا شفاعته ، ويوردنا حوضه . آمين .

وشفاعته الخاصة فى الخاص فى عمه أبى طالب ، فيخفف عنه بها ما كان فيه .

ومنها : شهادته على الرسل ، وشهادة أمته على الأمم وغير ذلك ، وهذه بلا شك عطايا من الله العزيز الحكيم لحبيبه وصفيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

تنبيــه

اللام فى « وللآخرة » وفى « ولسوف » للتأكيد وليست للقسم ، وهى فى الأول دخلت على المبتدإ ، وفى الثانية المبتدأ محذوف تقديره ، لأنت سوف يعطيك ربك فترضى . قاله أبو حيان وأبو السعود .

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴾ .

تقدم بيان معنى اليتيم عند قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) .

والرسول صلى الله عليه وسلم مات أبوه ، وهو حمل له ستة

أشهر ، وماتت أمه وهى عائدة من المدينة بالأبواء وعمره صلى الله عليه وسلم

وقد قيل : إن يتمه لأنه لايكون لأحد حق عليه ، نقله أبو حيان .

والذى يظهر أن يتمه راجع إلى قوله (ماودعكَ ربك) أى ليتولى الله تعالى أمره من صغره ، وتقدم معنى إيواء الله له ، فكان يتمه لإبراز فضله ، لأن يتيم الأمس أصبح سيد الغد ، وكافل اليتامى .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًا فَهَدَىٰ ﴾ .

الضلال : يكون حساً ومعنى ، فالأول : كمن تاه فى طريق يسلكه ، والثانى : كمن ترك الحق فلم يتبعه .

فقال قوم : المراد هنا هو الأول ، كأن قد ضل فى شعب من شعاب مكة ، أو فى طريقه إلى الشام . ونحو ذلك .

وقال آخرون : إنما هو عبارة عن عدم التعليم أولا ثم منحه من العلم مما لم يكن يعلم ، كقوله : (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشـــاء من عبادنا) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بحث هذه المسألة فى عدة مواضع : أولا فى سورة يوسف عند قوله تعالى : (إن أبانا

لفي ضلال مبين) ، وساق شواهد الضلال لغة هناك .

وثانياً : في سورة الكهف عند قوله تعالى : (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا) .

وثالثاً : في سورة الشعراء عند قوله تعالى : (قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين) .

وفي دفع إيهام الاضطراب أيضاً : وهذا كله يغني عن أي بحث آخر .

ومن الطريف ما ذكره أبو حيان عند هذه الآية ، حيث قال : ولقد رأيت في النوم ، أني أفكر في هذه الجملة ، فأقول على الفور : ووجدك : أي وجد رهطك ضالا فهداه بك ، ثم أقول : على حذف مضاف ، نحو : واسأل القرية . ا هـ .

وقد أورد النيسابوري هذا وجهاً في الآية ، وبهذه المناسبة أذكر منامين كنت رأيتهما ولم أرد ذكرهما حتى رأيت هذا لأبي حيان ، فاستأنست به لذكرهما ، وهما : الأول عندما وصلت إلى سورة ن عند قوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، ومن منهج الأضواء تفسير القرآن بالقرآن ، وهذا وصف مجمل ، وحديث عائشة « كان خُلقه القرآن » فأخذت في التفكير ، كيف أفصل هذا المعنى من

القرآن ، وأين حلمه وصفحه وصبره وكرمه وعطفه ورحمته ورأفته وجهاده وعبادته ، وكل ذلك مما جعلنى أقف حائراً وأمكث عن الكتابة عدة أيام ، فرأيت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى النوم ، كأننا فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وكأنه ليس فى نشاطه العادى ، فسألته ماذا عندك اليوم ؟

فقال : عندى تفسير .

فقلت : أتدرس اليوم ؟ قال : لا ، فقلت : وما هذا الذى بيدك ؟ لدفتر فى يده ، فقال : مذكرة تفسير ، أى التى كان سيفسرها وهى مخطوطة ، فقلت له : من أين فى القرآن ؟ فقال : من أول نٓ إلى آخر القرآن ، فحرصت على أخذها لأكتب منها ، ولم أتجرأ على طلبها صراحة ، ولكن قلت له : إذا كنت لم تدرس اليوم فأعطنيها أبيضها وأجلدها لك ، وآتيك بها غداً ، فأعطانيها فانتبهت فرحا بذلك وبدأت فى الكتابة .

والمرة الثانية فى سورة المطففين ، لما كتبت على معنى التطفيف ، ثم فكرت فى التوعد الشديد عليه مع يتأتى فيه من شىء طفيف ، حتى فكرت فى أن له صلة بالربا ، إذا ما بيع جنس بجنسه ، فحصلت مغايرة فى الكيل ووقع تفاضل ، ولكنى لم أجد من قال به ، فرأيت فيما يرى النائم ، أنى مع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ولكن لم يتحدث معى فى شىء من التفسير .

وبعد أن راح عنى ، فإذا بشخص لا أعرفه يقول : وأنا أسمع دون أن يوجه الحديث إلىّ إن فى التطفيف ربا ، إذا بيع الحديد بحديد ، وكلمة أخرى فى معناها نسيتها بعد أن انتبهت .

وقد ذكرت ذلك تأسياً بأبى حيان ، لما أجد فيه من إيناس ، والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يهدينا سواء السبيل ، وعلى ما جاء فى الرؤيا من مبشرات : وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾

العائل : صاحب العيال ، وقيل : العائل الفقير ، على أنه من لازم العيال الحاجة ، ولكن ليس بلازم ، ومقابلة عائلا بأغنى ، تدل على أن معنى عائلا أى فقيراً ، ولذا قال الشاعر :

فما يدرى الفقير متى غناه   وما يدرى الغنى متى يعيل

وما تدرى وإن ذمرت سقباً   لغيرك أم يكون لك الفصيل

وهذا مما يذكره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من تعداد النعم عليه ، وأنه لم يودعه وما قلاه ، لقد كان فقيراً من المال فأغناه الله بمال عمه .

وقد قال عمه فى خطبة نكاحه بخديجة : وإن كان فى المال قلّ فما أحببتم من الصداق ، فعلىّ ، ثم أغناه الله بمال خديجة ، حيث جعلت مالها تحت يده .

قال النيسابورى ما نصه : يروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة وهو مغموم ، فقالت : مالك ؟ فقال : الزمان زمان قحط، فإن أنا بذلت المال ينفد مالك ، فأستحيي منك ، وإن أنا لم أبذل أخاف الله ، فدعت قريشاً وفيهم الصديق ، قال الصديق : فأخرجت دنانير حتى وضعتها ، بلغت مبلغاً لم يقع بصرى على من كان جالساً قدامى ، ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله ، إن شاء فرّقه وإن شاء أمسكه .

فهذه القصة وإن لم يذكر سندها ، فليس بغريب على خديجة رضى الله عنها أن تفعل ذلك له صلى الله عليه وسلم ، وقد فعلت ما هو أعظم من ذلك ، حين دخلت معه الشعب فتركت مالها ، واختارت مشاركته صلى الله عليه وسلم لما هو فيه من ضيق العيش ، حتى أكلوا ورق الشجر ، وأموالها طائلة فى بيتها .

ثم كانت الهجرة وكانت مواساة الأنصار ، لقد قدم المدينة تاركاً ماله ومال خديجة ، حتى إن الصديق ليدفع ثمن المربد لبناء المسجد، وكان بعد ذلك فىء بنى النضير ، وكان يقضى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، لا يوقد فى بيته صلى الله عليه وسلم نار ، إنما هما الأسودان : التمر والماء .

ثم جاءت غنائم حنين ، فأعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، ورجع

بدون شيء ، وجاء مال البحرين فأخذ العباس ما يطيق حمله ، وأخيراً توفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة فى آصع من شعير .

وقوله تعالى : (ووجدك عائلا فأغنى) يشير إلى هذا الموضع ، لأن أغنى تعبير بالفعل ، وهو يدل على التجدد والحدوث ، فقد كان صلى الله عليه وسلم من حيث المال حالا لحالا ، والواقع أن غناه صلى الله عليه وسلم كان قبل كل شيء ، هو غنى النفس والاستغناء عن الناس ، ويكفى أنه صلى الله عليه وسلم أجود الناس .

وكان إذا لقيه جبريل ودارسه القرآن كالريح المرسلة ، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة فى الحالتين ، فى حالى الفقر والغنى ، إن قلّ ماله صبر ، وإن كثر بذل وشكر .

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل

ومما يدل على عظم عطاء الله له مما فاق كل عطاء . قوله تعالى : (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) ثم قال : (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) .

وقد اختلفوا فى المقارنة بين الفقير الصابر والغنى الشاكر ، ولكن الله تعالى قد جمع لرسوله صلى الله عليه وسلم كلا الأمرين ، ليرسم القدوة المثلى فى الحالتين .

تنبيـــــه

فى الآية إشارة إلى أن الإيواء والهدى والغنى من الله لإسنادها هنا لله تعالى .

ولـكن فى السياق لطيفة دقيقـــة ، وهى معرض التقرير ، يأتى بكاف الخطاب : ألم يجدك يتيما ، ألم يجدك ضالا ، ألم يجدك عائلا ، لتأكيد التقرير ، لم يسند اليتم ولا الإضـلال ولا الفقر لله ، مع أن كله من الله ، فهو الذى أوقع عليه اليتم ، وهو سبحـانه الذى منه كلما وجده عليه ، ذلك لما فيه من إيلام له ، فما يسنده لله ظاهراً ولما فيه من التقرير عليه أبرز ضمير الخطاب .

وفى تعداد النعم : فآوى ، فهدى ، فأغنى . أسند كله إلى ضمير المنعم ، ولم يبرز ضمير الخطاب .

قال المفسرون : لمراعاة رؤوس الآى والفواصل ، ولـكن الذى يظهر والله تعالى أعلم : أنه لما كان فيه امتنان ، وأنها نعم مادية لم يبرز الضمير لئلا يثقل عليه المنة ، بينما أبرزه فى : ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، ورفعنا لك ذكرك . لأنها نعم معنوية ، انفرد بها صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

مجىء الفاء هنا مشعر ، إما بتفريع وهذا ضعيف ، وإما بإفصاح عن تعدد ، وقد ذكر الجمل بتقدير ، مهما يكن من شىء .

وقد ساق تعالى هنا ثلاث مسائل : الأولى معاملة الأيتام فقال : (فأما اليتيم فلا تقهر) ، أى كما آواك الله فآوه ، وكما أكرمك فأكرمه .

وقالوا : قهر اليتيم أخذ ماله وظلمه .

وقيل : قرىء بالكاف « تكهر » ، فقالوا : هو بمعنى القهر إلا أنه أشد .

وقيل : هو بمعنى عبوسة الوجه ، والمعنى أعم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ومن العجز والكسل ، ومن الجبن والبخل ، ومن غلبة الدَّيْن وقهر الرجال » ، فالقهر أعم من ذلك .

وبالنظر فى نصوص القرآن العديدة فى شأن اليتيم ، والتى زادت على العشرين موضعاً ، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أبواب كلها تدور حول دفع المضار عنه ، وجلب المصالح له فى ماله وفى نفسه ،

فهـذه أربعة ، وفى الحالة الزوجية ، وهى الخامسة . أما دفع المضـار عنه فى ماله ، ففى قوله تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) جاءت مرتين فى سورة الأنعام والأخرى فى سورة الإسراء ، وفى كل من السورتين ضمن الوصايا العشر المعروفة فى سورة الأنعام ، بدأت بقوله تعالى : (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليـكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا) .

وذكر قتل الولد وقربان الفواحش وقتل النفس ثم مال اليتيم . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن .

ويلاحظ أن النهى منصب على مجرد الاقتراب من ماله إلا بالتى هى أحسن ، وقد بين تعالى التى هى أحسن بقوله : (ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) .

وقد نص الفقهـاء على أن من ولى مال اليتيم واستحق أجراً ، فله الأقل من أحد أمرين : إما نفقته فى نفسـه ، وإما أجرته على عمله ، أى إن كان العمل يستحق أجرة ألف ريال ، ونفقته يكفى لها خمسمائة أخذ نفقته فقط ، وإن كان العمل يكفيه أجرة مائة ريال ، ونفقته خمسمائة أخذ أجرته مائة فقط ، حفظاً لماله .

ثم بعـد النهى عن اقتراب مال اليتيم ذلك ، فقـد تتطلع بعض النفوس إلى فوارق بسيطة من باب التحيل أو نحوه ، من استبدال

شيء مكان شيء ، فيكون طريقاً لاستبدال طيب بخبيث ، لجاء قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا) .

والحوب : أعظم الذنب ، ففيه النهى عن استبدال طيب ماله ، بخبيث مال الولى أو غيره حسداً له على ماله ، كما نهى عن خلط ماله مع مال غيره كوسيلة لأكله مع مال الغير ، وهذا منع للتحيل وسد للذريعة ، حفظاً لماله .

ثم يأتى الوعيد الشديد فى صورة مفزعة فى قوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا) .

وقد اتفق العلماء : أن الآية شملت فى النهى عن أكل أموال اليتامى كل مافيه إتلاف أو تفويت سواء كان بأكل حقيقة أو باختلاس أو بإحراق أو إغراق ، وهو المعروف عند الأصوليين بالإلحاق بنفى الفارق ، إذ لافرق فى ضياع مال اليتيم عليه ، بين كونه بأكل أو إحراق بنار أو إغراق فى ماء حتى الإهمال فيه ، فهو تفويت عليه وكل ذلك حفظاً لماله .

وأخيراً ، فإذا تم الحفاظ على ماله لم يقربه إلا بالتى هى أحسن ، ولم يبدله بغيره أقل منه ، ولم يخلطه بماله ليأكله عليه ، ولم يعتد

عليه بأى إتلاف كان محفوظا له ، إلى أن يذهب يتمه ويثبت رشده، فيأتى قوله تعالى : (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منه رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا) .

ثم أحاط دفع المال إليه بموجبات الحفظ بقوله فى آخر الآية : (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) أى حتى لاتكون مناكرة فيما بعد .

وفى الختام ينبه الله فيهم وازع مراقبة الله بقوله : (وكفى بالله حسيباً) ، وفيه إشعار بأن أمواله تدفع إليه بعد محاسبة دقيقة فيما له وعليه .

ومهما يكن من دقة فى الحساب ، فالله سيحاسب عنه ، وكفى بالله حسيبا ، وهذا كله فى حفظ ماله .

أما جلب المصالح ، فإننا نجد فيها أولا جعله مع الوالدين ، والأقربين ، فى عدة مواطن ، منها قوله تعالى : (قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى) .

ومنها قوله : إيراده فى أنواع البر من الإيمان بالله وإنفاق المال (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين) إلى آخر الآية .

ومنها : ماهو أدخل فى الموضوع حيث جعل له نصيباً فى التركة فى قوله : (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) بصرف النظر عن مباحث الآية من جهات أخرى ، ومرة أخرى يجعل لهم نصيباً فيما هو أعلى منزلة فى قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله) الآية

وكذلك فى سورة الحشر فى قوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية .

فجعلهم الله مع ذى القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد جعله الله فى عموم وصف الأبرار ، وسبباً للوصول إلى أعلى درجات النعيم فى قوله تعالى : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) .

وذكر أفعالهم التى منها : أنهم يوفون بالنذر ، ثم بعدها : أنهم يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا .

وجعل هذا الإطعام اجتياز العقبة فى قوله : (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة) الآية .

ولقد وجدنا ماهو أعظم من ذلك ، وهو أن يسوق الله الخضر وموسى عليهما السلام ليقيما جداراً ليتيمين على كنز لهما حتى يبلغا أشدهما ، فى قوله تعالى : (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى)

هذا هو الجانب المالى من دفع المضرة عنه فى حفظ ماله ، ومن جانب جلب النفع إليه عن طريق المال .

أما الجانب النفسى فكالآتى :

أولا : عدم مساءته فى نفسه ، فمنها قوله تعالى : (أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين) .

ومنها قوله (كلا بل لاتكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين) فقدم إكرامه إشارة له .

ثانياً : فى الإحسان إليه ، منها قوله تعالى : (لاتعبدوا إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى) فيحسن إليه كما يحسن لوالديه ولذى القربى .

ومنها سؤال ، وجوابه من الله تعالى (ويسألونك عن اليتامى قل

إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح) أى تعاملونهم كما تعاملون الإخوان ، وهذا أعلى درجات الإحسان والمعروف ، ولذا قال تعالى : (والله يعلم المفسد من المصلح) .

وفى تقديم ذكر المفسد على المصلح : إشعار لشدة التحذير من الإفساد فى معاملته ، ولأنه محل التحذير فى موطن آخر جعلهم بمنزلة الأولاد فى قوله : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) .

أى حتى فى مخاطبتهم إياهم لأنهم بمنزلة أولادهم ، بل ربما كان لهم أولاد فيما بعد أيتاماً من بعدهم ، فكما يخشون على أولادهم إذا صاروا أيتاماً من بعدهم ، فليحسنوا معاملة الأيتام فى أيديهم وهذه غاية درجات العناية والرعاية .

تلك هى نصوص القرآن فى حسن معاملة اليتيم وعدم الإساءة إليه ، مما يفصل مجمل قوله : (فأما اليتيم فلا تقهر) .

لا بكلمة غير سديدة ولا بحرمانه من شىء يحتاجه ، ولا بإتلاف ماله ، ولا بالتحيل على أكله وإضاعته ، ولا بشىء بالكلية ، لا فى نفسه ولا فى ماله .

والأحاديث من السنة على ذلك عديدة بالغة مبلغها فى حقه ، وكان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس به وأشفقهم عليه ، حتى قال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين ـ يشير إلى السبابة والوسطى ـ وفرّج بينهما » رواه البخارى وأبو داود والترمذى .

وفى رواية أبى هريرة عند مسلم ومالك : « كافل اليتيم له أو لغيره » أى قريب له أو بعيد عنه .

وعند أحمد والطبرانى مرفوعا : « من ضم يتيما من بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه ، وجبت له الجنة » قال المنذرى : رواه أحمد ، محتج بهم إلا على بن زيد .

وعند ابن ماجه عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم ، يُحسن إليه . وشر بيت فى المسلمين ، بيت فيه يتيم يُساء إليه » .

وجاء عنـد أبى داود ما هو أبعد من هذا وذلك ، حتى إن الأم لتعطل مصالحها من أجل أيتامها ، فى قوله صلى الله عليه وسلم « أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة ـ وأومأ بيده ـ يزيد بن زريع ـ بفتح الزاى وإسكان الباء ـ بالوسطى والسبابة امرأة آمت زوجها ـ بألف ممدودة وميم مفتوحة وتاء ـ أصبحت أيمًا ، بوفاة

زوجها - ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا » .

وجعله الله دواء لقساوة القلب ، كما روى أحمد ورجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رجلا شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال « امسح رأس اليتيم ، وأطعم المسكين » .

وهنا يتجلى سر لطيف في مثالية التشريع الإسلامي ، حيث يخاطب الله تعالى أفضل الخلق وأرحمهم ، وأرأفهم بعباد الله ، الموصوف بقوله تعالى : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) وبقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) ليكون مثالا مثاليا في أمة قست قلوبها وغلظت طباعها ، فلا يرحمون ضعيفا ، ولا يؤدون حقا إلا من قوة يدينون لمبدأ « من عزّ بزّ ، ومن غلب استلب » يفاخرون بالظلم ويتهاجون بالأمانة ، كما قال شاعرهم :

قبيلة لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

ويقول حكيمهم :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم

قوم يئدون بناتهم ، ويحرمون من الميراث نساءهم ، يأكلون

التراث أكلا لماً ، ويحبون المال حباً ، فقلب مقاييسهم وعدل مفاهيمهم ، فألان قلوبهم ورقق طباعهم ، فلانوا مع هذا الضعيف وحفظوا حقه .

وحقيقة هذا التشريع الإلهي الحكيم منذ أربعة عشر قرنا تأتى فوق كل ما تتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها ، مما يحقق كمال التكامل الاجتماعى بأبهى معانيه ، المنوه عنه فى الآية الكريمة (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) ، فجعل كافل اليتيم اليوم ، إنما يعمل حتى فيما بعد لو ترك ذرية ضعافا ، وعبّر هنا عن الأيتام بلازمهم وهو الضعف إبرازاً لحاجة اليتيم إلى الإحسان ، بسبب ضعفه فيكونون موضع خوفهم عليهم لضعفهم ، فليعاملوا الأيتام تحت أيديهم ، كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم .

وهكذا تضع الآية أمامنا تكافلا اجتماعياً فى كفالة اليتيم ، بل إن اليتيم نفسه ، فإنه يتيم اليوم ورجل الغد ، فكما تحسن إليه يحسن هو إلى أيتامك من بعدك ، وكما تدين تدان ، فإن كان خيراً كان الخير بالخير والبادىء أكرم ، وإن شراً كان بمثله والبادىء أظلم .

ومع هذا الحق المتبادل ، فإن الإسلام يحث عليه ويعنى به ، ورغّب

فى الإحسان إليه وأجزا المثوبة عليه ، وحذّر من الإساءة عليه ، وشدد العقوبة فيه .

وقد يكون فيما أوردناه إطالة ، ولكنه وفاء بحق اليتيم أولا ، وتأثر بكثرة ما يلاقيه اليتيم ثانيا .

تنبيـــه

ليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه والحزم معه ، بل ذلك من مصاحته كما قيل :

قس ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

وقـــوله :

(وأما السائل فلا تنهر) ، قالوا : السائل الفقير والمحتاج ، يسأل ما يسد حاجته وهو مقابل لقوله : (ووجدك عائلا فأغنى) أى فكما أغناك الله وبدون سؤال ، فإذا أتاك سائل فلا تنهره، ولو فى رد الجواب بالتى هى أحسن .

ومعلوم : أن الجواب بلطف، قد يقوم مقام العطاء فى إجابة

السائل ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد ما يعطيه للسائل يعده وعداً حسناً لحين ميسره ، أخذاً من قوله تعالى : (وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) .

وقد أورد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيتين عند هذه الآية في هذا المعنى ، هما قول الشاعر :

إن لم تكن ورق يوما أجود بها للسائلين فإنى لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقى إما نوالى وإما حسن مردود

فليسعد النطق إن لم يسعد المال .

وقيل : السائل المستفسر عن مسائل الدين والمسترشد ، وقالوا هذا مقابل قوله : (ووجدك ضالا فهدى) أى لا تنهر مستفتيا ولا مسترشداً ، كقوله تعالى : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم رحيما شفيقا على الجاهل حتى يتعلم ، كما فى قصة الأعرابى الذى بال فى المسجد حين صاح به الصحابة فقال لهم « لا تزرموه » ، إلى أن قال الأعرابى : اللهم ارحمنى

وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً أبداً » وكالآخر الذى جاء يضرب صدره وينتف شعره ويقول : « هلكت وأهلكت ، واقعت أهلى فى رمضان ، حتى كان من أمره أن أعطاه فرقاً من طعامه يكفِّر به عن ذنبه ، فقال : أعلى أفقر منا يا رسول الله ؟ فقال : قم فأطعمه أهلك » .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقف للمرأة فى الطريق يصغى إليها حتى يضيق من معه وهو يصبر لها ولم ينهرها ، بل يجيبها على أسئلتها .

وقد حث صلى الله عليه وسلم على إكرام طالب العلم ، وبين أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، وأن الحيتان فى البحر لتستغفر له رضى بما يصنع .

وقوله : (وأما بنعمة ربك فحدث) : النعمة كل ما أنعم الله به على العبد ، وهى كل ما ينعم به العبد من مال وعافية وهداية ونصرة من النعومة واللين ، فقيل : المراد بها المذكورات والتحدث بها شكرها عملياً من إيواء اليتيم كما آواه الله ، وإعطاء السائل كما أغناه الله ، وتعليم المسترشد كما علمه الله ، وهذا من شكر النعمة ، أى كما أنعم الله عليك ، فتنعم أنت على غيرك تأسياً بفعل الله معك .

وقيل : التحدث بنعمة الله هو التبليغ عن الله من آية وحديث، والنعمة هنا عامة لتنكيرها وإضافتها ، كما فى قوله تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) أى كل نعمة . ولكن الذى يظهر أنها فى الوحى أظهر أو هو أولى بها ، أو هو أعظمها ، لقوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمى ورضيت لكم الإسلام دينا) فقال : نعمتى ، وهنا نعمة ربك . ولا يبعد عندى أن يكون صلى الله عليه وسلم إنما نحر مائة ناقة فى حجة الوداع ، لما أنزل الله عليه هذه الآية ، ففعل شكراً لله على إتمام النعمة بإكمال الدين .

وقد قالوا فى مناسبة هذه السورة بما قبلها : إن التى قبلها فى الصديق (وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى) وهنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم (ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى) مع الفارق الكبير فى العطاء والخطاب .

والواقع أن مناسبات السور القصار ، أظهر من مناسبات الآى فى السورة الواحدة ، كما بين هاتين السورتين والليل مع والضحى ، ثم ما بين والضحى وألم نشرح ، إنها تتمة النعم التى يعددها الله تعالى على رسوله .

وهكذا على ما ستأتى الإشارة إليه فى محله إن شاء الله تعالى .

أعلم علماً بأن بعض العلماء لم يعتبر تلك المناسبات .

ولكن ما كانت المناسبة فيه واضحة ، فلا ينبغى إغفاله ، وما كانت خفية لا ينبغى التكلف له .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشرح



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

ذكر تعالى هنا ثلاث مسائل : شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر .

وهي وإن كانت مصدرة بالاستفهام ، فهو استفهام تقريري لتقرير الإثبات ، فقوله تعالى (ألم نشرح) بمعنى شرحنا على المبدأ المعروف ، من أن نفي النفي إثبات . وذلك لأن همزة الاستفهام وهي فيها معنى النفي دخلت على لم وهي للنفي ، فترافعا فبقي الفعل مثبتاً . قالوا : ومثله قوله تعالى (أليس الله بكافٍ عبده) . وقوله (ألم ربك فينا وليدا) .

وعليه قول الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فتقرر بذلك أنه تعالى يعدد عليه نعمه العظمى ، وقد ذكرنا سابقاً ارتباط هذه السورة بالتي قبلها في تتمة نعم الله تعالى على رسوله ، صلى الله عليه وسلم .

وروى النيسابورى عن عطاء وعمر بن عبد العزيز : أنهما كانا يقولان : هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة ، وكانا يقرآنهما فى الركعة الواحدة ، وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم . والذى دعاهما إلى ذلك هو أن قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) كالعطف على قوله (ألم يجدك يتيما) ورد هذا الإدعاء ـ أى من كونهما سورة واحدة ـ وعلى كل فإن هذا إذا لم يجعلهما سورة واحدة فإنه يجعلهما مرتبطتين . معاً فى المعنى ، كما فى الأنفال والتوبة .

واختلف فى معنى شرح الصدر ، إلا أنه لا منافاة فيما قالوا ، وكلها يكمل بعضها بعضا .

فقيل : هو شق الصدر سواء كان مرة أو أكثر ، وغسله وملؤه إيمانا وحكمه ، كما فى رواية مالك بن صعصعة فى ليلة الإسراء ، ورواية أبى هريرة فى غيرها .

وفيه كما فى رواية أحمد : أنه شق صدره وأخرج منه الغل والحسد ، فى شىء كهيئة العلقة ، وأدخلت الرأفة والرحمة .

وقيل : شرح الصدر ، إنما هو توسيعه المعرفة والإيمان ومعرفة الحق ، وجعل قلبه وعاء للحكمة .

وفى البخارى عن ابن عباس « شرح الله صدره للاسلام »

وعند ابن كثير : نورناه وجعلناه فسيحا رحيباً واسعاً ، كقوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) .

والذى يشهد له القرآن : أن الشرح هو الانشراح والارتياح . وهذه حالة نتيجة استقرار الإيمان والمعرفة والنور والحكمة . كما فى قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) فقوله : فهو على نور من ربه : بيان لشرح الصدر للاسلام .

كما أن ضيق الصدر ، دليل على الضلال ، كما فى نفس الآية (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا) الآية .

وفى حاشية الشيخ زادة على البيضاوى قال : لم يشرح صدر أحد من العالمين ، كما شرح صدره عليه السلام ، حتى وسع علوم الأولين والآخرين . فقال « أوتيت جوامع الكلم » . اهـ .

ومراده بعلوم الأولين والآخرين ، ماجاء فى القرآن من أخبار الأمم الماضية مع رسلهم وأخبار المعاد ، وما بينه وبين ذلك مما علمه الله تعالى .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن شرح الصدر الممتن به عليه صلى الله عليه وسلم ، أوسع وأعم من ذلك ، حتى إنه ليشمل صبره وصفحه وعفوه عن أعدائه ، ومقابلته الإساءة بالإحسان ، حتى إنه ليسع العدو ، كما يسع الصديق .

كقصة عودته من ثقيف : إذ آذوه سفهاؤهم ، حتى ضاق ملك الجبال بفعلهم ، وقال له جبريل : إن ملك الجبال معى ، إن أردت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل ، فينشرح صدره إلى ما هو أبعد من ذلك ، ولكأنهم لم يسيئوا إليه فيقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وتلك أعظم نعمة وأقوى عدة فى تبليغ الدعوة وتحمل أعباء الرسالة ، ولذا توجه نبى الله موسى إلى ربه يطلبه إياها ، لما كلف الذهاب إلى الطاغية فرعون كما فى قوله تعالى (اذهب إلى فرعون إنه طغى ، قال رب اشرح لى صدرى ، ويسّر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى ، هارون أخى ، اشدد به أزرى) إلى آخر السياق .

فذكر هنا من دواعى العون على أداء الرسالة أربعة عوامل : بدأها بشرح الصدر ، ثم تيسير الأمر ، وهذان عاملان ذاتيان ، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون ، وهو اللسان فى الإقناع ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، ثم العامل المادى أخيراً فى المؤازرة ، واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى ، فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته ، لأنه به يقابل كل الصعاب ، ولذا قابل به ما جاء به السحرة

من سحر عظيم ، وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم .

وقد بيّن تعالى من دواعى انشراح الصدر وإنارته ، ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير ، وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقى تلك التعاليم من الوحى ، كقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وكقوله (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) ، مما لا يتأتى إلا ممن شرح الله صدره .

ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر ، وفعلا قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة ، وتلقى كل ذلك بصدر رحب .

وفى هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى الله ، أن يكون رحب الصدر هادىء النفس متجملا بالصبر .

وقوله (ووضعنا عنك وزرك) ، والوضع يكون للحط والتخفيف ، ويكون للحمل والتثقيل ، فإن عدى بعن كان للحط ، وإن عدى بعلى كان للحمل ، فى قولهم : وضعت عنك ، ووضعت عليك ، والوزر لغة الثقل .

ومنه : حتى تضع الحرب أوزارها ، أى ثقلها من سلاح ونحوه..

ومنه الوزير : المتحمل ثقل أميره وشغله ، وشرعاً الذنب كما في الحديث : « ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » ، وقد يتعاوران في التعبير كقوله تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة) وقوله مرة أخرى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) .

وقد أفرد لفظ الوزر هنا وأطلق ، ولم يبين ما هو وما نوعه ، فاختلف فيه اختلافاً كثيراً .

فقيل : ما كان فيه من أمر الجاهلية ، وحفظه من مشاركته معهم ، فلم يلحقه شيء منه .

وقيل : ثقل تألمه مما كان عليه قومه ، ولم يستطع تغييره ، وشفقته صلى الله عليه وسلم بهم ، أي كقوله تعالى : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) أي أسفاً عليهم .

وقال أبو حيان : هو كناية عن عصمته صلى الله عليه وسلم من الذنوب، وتطهيره من الأرجاس :

وقال ابن جرير : وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك ، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها .

وقال ابن كثير : هو بمعنى : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

فكلام أبي حيان : يدل على العصمة ، وكلام ابن جرير يدل على شيء في الجاهلية ، وكلام ابن كثير مجمل .

وفي هذا المجال مبحث عصمة الأنبياء عموما ، وهو مبحث أصولي تحققه كتب الأصول لسلامة الدعوة ، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى عليها وعليه بحثه في سورة طه عند الكلام على قوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) ، وأورد كلام المعتزلة والشيعة والحشوية ، ومقياس ذلك ، عقلا وشرعاً ، وفي سورة ص عند قوله تعالى (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه) ، ونبه عندها على أن كل ما يقال في داود عليه السلام حول هذا المعنى ، كله إسرائيليات لا تليق بمقام النبوة . اهـ .

أما في خصوصه صلى الله عليه وسلم ، فإنا نورد الآتي : إنه مهما يكن من شيء ، فإن عصمته صلى الله عليه وسلم من الكبائر والصغائر بعد البعثة يجب القطع بها ، لنص القرآن الكريم في قوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) لوجوب التأسي به وامتناع أن يكون فيه شيء من ذلك قطعاً .

أما قبل البعثة ، فالعصمة من الكبائر أيضاً ، يجب الجزم بها لأنه صلى الله عليه وسلم كان في مقام التهيؤ للنبوة من صغره ، وقد شق

صدره فى سن الرضاع ، وأخرج منه حظ الشيطان ، ثم إنه لو كان قد وقع منه شيء لأخذوه عليه حين عارضوه فى دعوته ، ولم يذكر من ذلك ولا شيء فلم يبق إلا القول فى الصغائر ، فهى دائرة بين الجواز والمنع ، فإن كانت جائزة ووقعت ، فلا تمس مقامه صلى الله عليه وسلم لوقوعها قبل البعثة والتكليف ، وأنها قد غفرت وحط عنه ثقلها ، فإن لم تقع ولم تكن جائزة فى حقه ، فهذا المطلوب .

وقد ساق الألوسى رحمه الله فى تفسيره : أن عمه أبا طالب ، قال لأخيه العباس يوماً : « لقد ضمته إلىّ وما فارقته ليلا ولا نهاراً ولا ائتمنت عليه أحداً » ، وذكر قصة بنبيه ومنامه فى وسط أولاده أول الليل ، ثم نقله إياه محل أحد أبنائه حفاظاً عليه ، ثم قال : « ولم أر منه كذبة ولا ضحكا ولا جاهلية ، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون » .

وذكرت كتب التفسير أنه صلى الله عليه وسلم أراد مرة فى صغره ، أن يذهب لمحل عرس ليرى ما فيه ، فلما دنا منه أخذه النوم ولم يصح إلا على حر الشمس ، فصانه الله من رؤية أو سماع ، شيء من ذلك .

ومنه قصة مشاركته فى بناء الكعبة حين تعرى ومنع منه حالا ، وعلى المنع من وقوع شيء منه صلى الله عليه وسلم بقى الجواب على معنى الآية ، فيقال والله تعالى أعلم : إنه تكريم له صلى الله عليه وسلم كما جاء فى أهل بدر ، قوله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله اطلع

على أهل بدر فقال : افعلوا ماشئتم فقد غفرت لكم » مع أنهم لن يفعلوا محرما بذلك ، ولكنه تكريم لهم ورفع لمنزلتهم .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يتوب ويستغفر ويقوم الليل حتى تورّمت قدماه ، وقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

فكان كل ذلك منه شكراً لله تعالى ، ورفعاً لدرجاته صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء : « نعم العبد صهيب ، لولم يخف الله لم يعصه » ، وهو حسنة من حسناته صلى الله عليه وسلم .

أو أنه صلى الله عليه وسلم كان يعتد على نفسه بالتقصير ، ويعتبره ذنبا يستثقله ويستغفر منه ، كما كان إذا خرج من الخلاء قال « غفرانك » .

ومعلوم أنه ليس من موجب للاستغفار ، إلا ما قيل شعوره بترك الذكر فى تلك الحالة ، استوجب منه ذلك .

وقد استحسن العلماء قول الجنيد : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو أن المراد مثل ما جاء فى القرآن من بعض اجتهاداته صلى الله عليه وسلم ، وفى سبيل الدعوة ، فيرد اجتهاده فيعظم عليه كقصة ابن أم مكتوم ، وعوتب فيه (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) الآية ، ونظيرها ولو كان بعد نزول هذه السورة ، إلا أنه من باب

واحد كقوله : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ، وقصة أسارى بدر ، وقوله : (ليس لك من الأمر شيء) واجتهاده في إيمان عمه ، حتى قيل له : (إنك لاتهدى من أحببت) ونحو ذلك . فتحمل الآية عليه ، أو أن الوزر بمعناه اللغوى ، وهو ما كان يثقله من أعباء الدعوة ، وتبليغ الرسالة ، كما ذكر ابن كثير في سورة الإسراء عن الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما كان ليلة أسرى بى فأصبحت بمكة فظعت ، وعرفت أن الناس مكذّبى ، فقعدت معتزلا حزيناً ، فمرّ بى أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزىء : هل كان من شىء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، وقصّ عليه الإسراء » .

ففيه التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم فظع ، والفظاعة : ثقل وحزن ، والحزن : ثقل . وتوقع تكذيبهم إياه أثقل على النفس من كل شىء . والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى : (الذى أنقض ظهرك) أى ثقله مشعر بأن للذنب ثقلا على المؤمن ينوء به ، ولا يخففه إلا التوبة وحطه عنه .

وقوله : (ورفعنا لك ذكرك) لم يبين هنا بم ولا كيف رفع له ذكره ، والرفع يكون حسياً ويكون معنوياً ، فاختلف في المراد به أيضا .

فقيل : هو حسى في الأذان والإقامة ، وفي الخطب على المنابر

وافتتاحيات الكلام فى الأمور الهامة ، واستدلوا لذلك بالواقع فعلا ، واستشهدوا بقول حسان رضى الله عنه ، وهى أبيات فى ديوانه من قصيدة دالية :

أغـر عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمـه ليجله فذوا العرش محمود وهذا محمد

ومن رفع الذكر معنى أى من الرفعة ، ذكره صلى الله عليه وسلم فى كتب الأنبياء قبله ، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه .

وقد نص القرآن أن الله جعل الوحى ذكراً له ولقومه ، فى قوله تعالى : (فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك) ، ومعلوم أن ذكر قومه ذكر له ، كما قال الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذرى رتب

كما علت برسول الله عـدنان

فتبين أن رفع ذكره صلى الله عليه وسلم ، إنما هو عن طريق الوحى سواء كان بنصوص من توجيه الخطاب إليه بمثل (يا أيها الرسول) ، (يا أيها النبى) ، (يا أيها المدثر) ، والتصريح باسمه فى مقام الرسالة (محمد رسول الله) أو كان فى فروع التشريع ، كما تقدم فى

أذان وإقامة وتشهد وخطب وصلاة عليه صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾.

النصب : التعب بعد الاجتهاد ، كما في قوله : (وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة) .

وقد يكون النصب للدنيا أو للآخرة ، ولم يبين المراد بالنصب في أي شيء ، فاختلف فيه ، ولكنها أقوال متقاربة .

فقيل : في الدعاء بعد الفراغ من الصلاة .

وقيل : في النافلة من الفريضة ، والذي يشهد له القرآن ، أنه توجيه عام للأخذ بحظ الآخرة بعد الفراغ من عمل الدنيا ، كما في مثل قوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) ، وقوله : (إن ناشئة الليل ، هي أشد وطئاً وأقوم قيلا) أي لأنها وقت الفراغ من عمل النهار وفي سكون الليل ، وقوله : (إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) ، فيكون وقته كله مشغولا ، إما للدنيا وإما للدين .

وفي قوله : (فإذا فرغت فانصب) حل لمشكلة الفراغ التي شغلت

العالم حيث لم تترك للمسلم فراغاً فى وقته ، لأنه إما فى عمل للدنيا ، وإما فى عمل للآخرة .

وقد روى عن ابن عباس : « أنه مرّ على رجلين يتصارعان فقال لهما : ما بهذا أُمرنا بعد فراغنا » .

وروى عن عمر أنه قال : « إنى لأكره لأحدكم أن يكون خالياً سبهللا ، لا فى عمل دنيا ولا دين » ولهذا لم يَشْكُ الصدر الأول فراغاً فى الوقت .

ومما يشير إلى وضع الصدر الأول ، مارواه مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : قلت لعائشة رضى الله عنها ـ وأنا يومئذ حديث السن ـ : « أرأيت قول الله تعالى : (إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما) ، فما على الرجل شىء ألا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : كلا لو كان كما تقول لكانت ، فلا جناح عليه ألا يطوف بهما » .

فانظر رحمك الله وإياى ، فيم يفكر حديث السن ، وكيف يستشكل معانى القرآن ، فمثله لا يوجد عنده فراغ .

تنبيـــــــه

ذكر الألوسى فى قوله تعالى : (فانصب) قراءة شاذة بكسر

الصاد ، وأخذها الشيعة على الفراغ من النبوة ، ونصب على إماما ، وقال : ليس الأمر متعينا بعلى فالسُّنى يمكن أن يقول : فانصب أبا بكر ، فإن احتج الشيعى بما كان فى غدير حم ، احتج السنى بأن وقته لم يكن وقت الفراغ من النبوة .

بلى إن قوله صلى الله عليه وسلم : « مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس » كان بعده ، وفى قرب فراغه صلى الله عليه وسلم من النبوة ، إذ كان فى مرضه الذى مات فيه .

فإن احتج الشيعى بالفراغ من حجة الوداع، رده السنى بأن الآية قبل ذلك انتهى .

وعلى كل إذا كان الشيعة يحتجون بها ، فيكفى لرد احتجاجهم أنها شاذة ، وتتبع الشواذ قريب من التأويل المسمى باللعب عند علماء التفسير ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره ، لا لقرينة صارفة ولا علاقة رابطة .

ومن اللعب فى التأويل فى هذه الآية ، ما يفعله بعض العوام : رأيت رجلا عامياً عادياً ، قد لبس حلة كاملة من عمامة وثوب صقيل وحزام جميل مما يسمونه نصبة ، أى بدلة كاملة ، فقال له رجل : ما هذه النصبة يا فلان ؟ فقال له : لما فرغت من عملى نصبت ، كما قال تعالى : (فإذا فرغت فانصب) .

كما سمعت آخر يتوجع لقلة مافى يده ، ويقول لزميله : ألا تعرف

لى شخصاً أنصب عليه ، أى آخذ قرضة منه ، فقلت له : ولم تنصب عليه ؟ والنصب كذب وحرام . فقال : إذا لم يكن عند الإنسان شيء ، ويده خالية فلا بأس ، لأن الله قال : (فإذا فرغت فانصب) ، وهذا وأمثاله مما يتجرأ عليه العامة لجهلهم ، أو أصحاب الأهواء لعطلهم

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾

التقديم هنا مشعر بالتخصيص وهو كقوله تعالى : (إياك نعبد ﴾ أى لا نعبد غيرك : وهكذا هنا لا ترغب إلى غيره سبحانه ، كأنه يقول : الذى أنعم عليك بكل ما تقدم ، هو الذى ترغب فيما عنده لا سواه .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ .

التين هو الثمرة المعروفة التى لا عجم لها ولا قشرة ، والزيتون هو كذلك الثمرة التى منها الزيت ، وطور سينين هو جبل الطور الذى ناجى موسى عنده ربه ، والبلد الأمين هو مكة المكرمة ، والواو للقسم .

وقد اختلف فى المراد بالمقسم به فى الأول ، والثانى التين والزيتون ، واتفقوا عليه فى الثالث والرابع على ما سيأتى .

أما التين والزيتون ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما « أنهما الثمرتان المعروفتان » وهو قول عكرمة والحسن ومجاهد . كلهم يقول : التين : تينكم الذى تأكلون ، والزيتون : زيتونكم الذى تعصرون .

وعن كعب : التين : مسجد دمشق ، والزيتون بيت المقدس ، وكذا عن قتادة . وأرادوا منابت التين والزيتون بقرينة الطور

والبلد الأمين ، على أن منبت التين والزيتون لعيسى ، وطور سينين لموسى والبلد الأمين لمحمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن حمل التين والزيتون على منابتهما لا دليل عليه ، فالأولى إبقاؤهما على أصلهما ، ويشهد لذلك الآتى :

أولا التين : قالوا : إنه أشبه ما يكون من الثمار بثمر الجنة ، إذ لا عجم له ولا قشر ، وجاء عنه فى السنة « أنه صلى الله عليه وسلم أهدى له طبق فيه تين ، فأكل منه ثم قال لأصحابه : فلو قلت : إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوه ، فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس » ، ذكره النيسابورى ولم يذكر من خرّجه .

وذكره ابن القيم رحمه الله فى زاد المعاد ، قائلا : ويذكر عن أبى الدرداء « أهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم طبق من تين » وساق النص المتقدم . ثم قال : وفى ثبوت هذا نظر .

وقد ذكر المفسرون وابن القيم وصاحب القاموس : للتين خواص، وقالوا : إنها مما تجعله محلا للقسم به ، وجزم ابن القيم : أنه المراد فى السورة .

ومما ذكروا من خواصه ، قالوا : إنه يجلو رمل الكلى والمثانة ويؤمن من السموم ، وينفع خشونة الحلق والصدر وقصبة الرئة ، ويغسل الكبد والطحال ، وينقى الخلط البلغمى من المعدة ، ويغذى البدن غذاء جيداً ، ويابسه يغذى وينفع العصب .

وقال جالينوس : وإذا أكل مع الجوز والسذاب ، قبل أخذ السم القاتل نفع ، وحفظ من الضر ، وينفع السعال المزمن ويدر البول ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح ، ولأكله على الريق منفعة عجيبة .

وقال ابن القيم : لما لم يكن بأرض الحجاز والمدينة ، لم يأت له ذكر فى السنة ، ولكن قد أقسم الله به فى كتابه ، لكثرة منافعه وفوائده .

والصحيح : أن المقسم به هو التين المعروف . اهـ .

وكما قال ابن القيم رحمه الله : لم يذكر فى السنة لعدم وجوده بالحجاز والمدينة ، فكذلك لم يأت ذكره فى القرآن قط إلا فى هذا الموضع ، ولم يكن من منابت الحجاز والمدينة لمنافاة جوه لجوها ، وهو وإن وجد أخيراً إلا أنه لا يجود فيها جودته فى غيرها .

فترجح أن المراد بالتين هو هـذا المأكول ، كما جاء عمن سميناه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن .

أما الزيتون ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى المقدمة، أن من أنواع البيان إذا اختلف فى المعنى المراد ، وكان مجىء أحـد المعنيين أو المعانى المحتملة أكثر فى القرآن ، فإنه يكون أولى بحمل اللفظ عليه .

وقد جاء ذكر الزيتون فى القرآن عدة مرات مقصوداً به تلك الشجرة المباركة ، فذكر فى ضمن الأشجار خاصة فى قوله تعالى من سورة الأنعام (وجنات من أعناب والزيتون والرمان ـ إلى قوله ـ ان فى ذلـكم لآيات لقوم يؤمنون) وسماها بذاتها فى قوله تعالى من سورة المؤمنين (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) وذكرها مع النخل والزرع فى عبس فى قوله تعـالى : (فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا) وذكر من أخص خصائص الأشجار ، فى قوله فى سورة النور فى المثل العظيم المضروب (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّىٌّ يُوقد من شـجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور) . فوصفها بالبركة ووصف زيتها بأنه يكاد يضىء ، ولو لم

تمسسه نار ، واختيارها لهذا المثل العظيم ، يجعلها أهلا لهـذا القسم العظيم هنا .

أما طور سينين : فأكثرهم على أنه جبل الطور ، الذى ناجى الله موسى عنده ، كما جاء فى عدة مواطن ، وذكر الطور فيها للتكريم والقسم فمن ذكره للتكريم قوله تعالى : (وناديناه من جانب الطور الأيمن) ، ومن ذكره للقسم به ، قوله تعالى : (والطور وكتاب مسطور) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الطور قوله ، وقد أقسم الله بالطور فى قوله تعالى : (والتين والزيتون وطور سينين) . اهـ .

أما البلد الأمين فهو مكة لقوله تعالى : (ومن دخله كان آمنا) فالأمين بمعنى الأمن ، أى من الأعداء ، أن يحاربوا أهله أو يغزوهم ، كما قال تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم) والأمين بمعنى أمن جاء فى قول الشاعر :

ألم تعلمى يا أسم ويحك أننى   حلفت يمينا لا أخون أمينى

يريد : آمنى .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

هذا هو المقسم عليه ، والتقويم التعديل كما فى قوله : (ولم يجعل له عوجاً ، قيما) وأحسن تقويم شامل لخلق الإنسان حساً ومعنى أى شكلا وصورة وإنسانية ، وكلها من آيات القدرة ودلالة البعث .

وروى عن على رضى الله عنه :

دواؤك منك ولا تشعر وداؤك منك ولا تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الكبير

وقد بين تعالى خلقه ابتداء من نطفة فعلقة إلى آخره فى أكثر من موضع ، كما فى قوله : (ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) .

وكذلك فى هذه السورة التنبيه على البعث بقوله : (فما يكذبك بعد بالدين) .

أما الجانب المعنوى فهو الجانب الإنسانى ، وهو المتقدم فى قوله : (ونفس وما سواها) على ما قدمنا هناك ، من أن النفس البشرية هى مناط التكليف ، وهو الجانب الذى به كان الإنسان إنساناً ، وبهما كان خلقه فى أحسن تقويم ، ونال بذلك أعلى درجات التكريم : (ولقد كرمنا بنى آدم) .

والإنسان وإن كان لفظاً مفرداً إلا أنه للجنس بدلالة قوله : (ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا) ، وهذا مثل ما فى سورة (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا) فباستثناء الجمع منه ، علم أن المراد به الجنس .

والتأكيد بالقسم المتقدم على خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، يشعر أن المخاطب منكر لذلك ، مع أن هذا أمر ملموس محسوس ، لا ينكره إنسان .

وقد أجاب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب على ذلك : بأن غير المنكر إذا ظهرت عليه علامات الإنكار ، عومل معاملة المنكر ، كقول الشاعر :

جاء شقيق عارضاً رمحه   وإن بنى عمك فيهم رماح

وأمارات الإنكار على المخاطبين ، إنما هى عدم إيمانهم بالبعث ، لأن العاقل لو تأمل خلق الإنسان ، لعرف منه أن القادر على خلقه فى هذه الصورة ، قادر على بعثه .

وهذه المسألة أفردها الشيخ فى سورة الجاثية بتنبيه على قوله تعالى : (وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) ، وتكرر

هذا البحث في عدة مواضع، وأصرح دلالة على هذا المعنى ما جاء في آخر يس، (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

قيل : رد إلى الكبر والهرم وضعف الجسم والعقل .

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

كما في قوله تعالى : (ومن نعمره ننكسه في الخلق) .

وذكر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذا القول ، وساق معه قوله : (الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) ، وساق آية التين هذه (ثم رددناه أسفل سافلين) ، وقال : على أحد التفسيرين ، وقوله : (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس رواه ابن جرير .

وقيل : رد النار إلى بسبب كفره ، وهذا مروي عن مجاهد والحسن .

وقد رجح ابن جرير المعنى الأول ، وهو كما ترى ، ما يشهد له

القرآن فى النصوص التى قدمنا ، واستدل لهذا الوجه من نفس السورة. وذلك لأن الله تعالى قال فى آخرها (فما يكذبك بعد بالدين) أى بعد هذه الحجج الواضحة ، وهى بدء خلق الإنسان وتطوره إلى أحسن أمره ، ثم رده إلى أحط درجات العجز أسفل سافلين ، وهذا هو المشاهد لهم ، يحتج به عليهم .

أما رده إلى النار فأمر لم يشهده ولم يؤمنوا به ، فلا يصلح أن يكون دليلا يقيمه عليهم ، لأن من شأن الدليل أن ينقل من المعلوم إلى المجهول والبعث هو موضع إنكارهم ، فلا يحتج عليهم لإثبات ما ينكرونه بما ينكرونه ، وهذا الذى ذهب إليه واضح .

ومما يشهد لهذا الوجه : أن حالة الإنسان هذه فى نشأته من نطفة ، فعلقة ، فطفلا ، فغلاماً ، فشيخاً ، فهرم ، وعجز . جاء مثلها فى النبات وكلاهما من دلائل البعث ، كما فى قوله : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو — إلى قوله — كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) ، وقوله : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاما ، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب) .

فكذلك الإنسان ، لأنه كالنبات سواء كما قال تعالى : (والله

أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ، ويخرجكم إخراجاً) .

ويكون الاستثناء إلا الذين آمنوا فإنهم لا يصلون إلى حالة الخرف وأرذل العمر ، لأن المؤمن مهما طال عمره ، فهو فى طاعة ، وفى ذكر الله فهو كامل العقل ، وقد تواتر عند العامة والخاصة أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته ، لا يصاب بالخرف ولا الهذيان .

وقد شاهدنا شيخ القراء بالمدينة المنورة الشيخ حسن الشاعر ، لا زال على قيد الحياة عند كتابة هذه الأسطر تجاوز المائة بكثير ، وهو لا يزال يقرىء تلاميذه القرآن ، ويعلمهم القراءات العشر ، وقد يسمع لأكثر من شخص يقرءون فى أكثر من موضع وهو يضبط على الجميع .

وقد روى الشوكانى مثله ، عن ابن عباس أنه قال ، ذلك .

قوله تعالى : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

أى غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم .

وعلى الأول : فالأجر هو الثواب ، إما بدوام أعمالهم لكمال

عقولهم ، وإما بأن الله يأمر الملائكة أن تكتب لهم من الأجر ما كانوا يعملونه فى حال قوتهم من صيام وقيام ، وتصدق من كسبهم ونحو ذلك ، للأحاديث فى حق المريض والمسافر ، فيظل ثواب أعمالهم مستمراً عليهم غير مقطوع .

وعلى الثانى : فيكون الأجر هو النعيم فى الجنة يعطونه ولا يمن عليهم ، ولا يقطع عنهم كما قال تعالى (أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا) .

تنبيه

وهنا وجهة نظر من وجهين : وجه خاص وآخر عام .

أما الخاص : فإن كلمة رددناه ، فالرد يشعر إلى رد لأمر سابق ، والأمر السابق هو خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأحسن تقويم شامل لشكله ومعناه ، أى جسمه وإنسانيته ، فرده إلى أسفل سافلين ، يكون بعدم الإيمان كالحيوان بل هو فى تلك الحالة أسفل دركاً من الحيوان ، وأشرس نفساً من الوحش ، فلا إيمان يحكمه ولا إنسانية تهذبه ، فيكون طاغية جباراً يعيث فى الأرض فساداً ، وعليه يكون الاستثناء ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فبإيمانهم وعملهم الصالحات يترفعون عن السفالة ، ويرتفعون إلى الأعلى فلهم أجر غير ممنون .

والوجهة العامة وهى الشاملة لموضوع السورة من أولها ابتداء من التين والزيتون وما معه فى القسم إلى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا) الآية .

فإنه إن صح ما جاء فى قصة آدم فى قوله : (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) . روى المفسرون أن آدم لما بدت له سوأته ذهب إلى أشجار الجنة ليأخذ من الورق ليستر نفسه ، وكلما جاء شجرة زجرته ولم تعطه ، حتى مرّ بشجرة التين فأعطته ، فأخلفها الله الثمرة مرتين فى السنة ، وكافأها بجعل ثمرتها باطنها كظاهرها لاقشر لها ولا عجم .

وقد روى الشوكانى فى أنها شجرة التين التى أخذ منها الورق ـ قال : وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال « لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالا من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقى فى أطراف أصابعه » .

قال : وأخرج الفريابى وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى وابن عساكر عن ابن عباس قال : « كان لباس آدم وحواء كالظفر ـ وذكر الأثر ـ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » قال : ينزعان ورق التين ، فيجعلانه على سوءاتهما .

وبهذا النقل يكون ذكر التين هنا مع خلق الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رده أسفل سافلين إلا الذين آمنوا سر لطيف جداً ، وهو إشعار الإنسان الآن، أن جنس الإنسان كله بالإنسان الأول أبى البشر ، وقد خلقه الله فى أحسن حالة حساً ومعنى، حتى رفعه إلى منزلة إسجاد الملائكة له وسكناه الجنة ، فهى أعلى منزلة التكريم ، وله فيها أنه لا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى ، وظل كذلك على ذلك إلى أن أغواه الشيطان ونسى عهد ربه إليه ، ووقع فيما وقع فيه وكان له ما كان، فدلاهما بغرور وانتقلا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ، فنزل إلى الأرض يحرث ويزرع ويحصد ويطحن ويعجن ويخبز ، حتى يجد لقمة العيش ، فهذا خلق الإنسان فى أحسن تقويم ورده أسفل سافلين .

وهذا شأن أهل الأرض جميعاً ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون ، برجوعهم إلى الجنة كما رجع إليها آدم بالتوبة ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى .

وإن فى ذكر البلد الأمين لترشيح لهذا المعنى ، لأن الله جعل الحرم لأهل مكة أمناً كصورة الآمن فى الجنة ، فإن امتثلوا وأطاعوا

تمموا بهذا الأمن ، وإن تمردوا وعصوا ، فيخرجون منها ويحرمون أمنهـا .

وهـكذا تـكون السورة ربطاً بين الماضى والحاضر ، وانطلاقاً من الحاضر إلى المستقبل ، فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين . فيما فعل بآدم وفيما يفعل بأولئك ، حيث أنعم عليهم بالأمن والعيش الرغد ، وإرسالك إليهم وفيما يفعل لمن آمن أو بمن يكفر ، اللهم بلى .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ .

فالدين هو الجزاء كما فى سورة الفاتحة (مالك يوم الدين) والخطاب قيل للرسول صلى الله عليه وسلم . وأن ما فى قوله : فما هى بمعنى من أى ، فمن الذى يكذبك بعد هذا البيان ، بمجىء الجزاء والحساب ليلقى كل جزاء عمله .

قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَـٰكِمِينَ ﴾ .

السؤال كما تقدم فى (ألم نشرح) أى للاثبات ، وهو سبحانه وتعالى بلا شك أحكم الحاكمين ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : « اللهم بلى » كما سيأتى .

وأحكم الحاكين ، قيل : أفعل تفضيل من الحكم أى أعدل الحاكين ، كما فى قوله تعالى : (ولا يظلم ربك أحدا) .

وقيل : من الحكمة ، أى فى الصنع والإتقان والخلق ، فيكون اللفظ مشتركا ، ولا يبعد أن يكون من المعنيين معاً ، وإن كان هو فى الحكم أظهر ، لأن الحكيم من الحكمة يجمع على الحكماء .

فعلى القول بالأمرين : يكون من استعمال المشترك فى معنييه معاً ، وهو هنا لا تعارض بل هما متلازمان ، لأن الحكيم لابد أن يعدل ، والعادل لا بدأن يكون حكيما يضع الأمور فى مواضعها .

وقد بين تعالى هذا المعنى فى عدة مواطن كقوله تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) ، الجواب : لا ، وكقوله (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون) ، وفى قوله (ساء مايحكمون) بيان لعدم عدالتهم فى الحكم ، وبعده عن الحكمة .

ومعلوم أن عدم التسوية بينهم فى مماتهم أنه بالبعث والجزاء ، فهو سبحانه أحكم الحاكين فى صنعه وخلقه . خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأعدل الحكام فى حكمه لم يسو بين المحسن والمسىء .

وقد اتفق المفسرون على رواية الترمذى لحديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً : « من قرأ والتين والزيتون ، فقرأ أليس الله بأحكم الحاكمين ، فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » .

ومثله عن جابر مرفوعاً ، وعن ابن عباس قوله « سبحانك اللهم ، فبلى » . والعلم عند الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العلق



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فى هذه الآيات الخمس تسع مسائل مرتبط بعضها ببعض ارتباط السبب بالمسبب ، والعام بالخاص ، والدليل بالمدلول عليه ، وكلها من منهج هذا الكتاب المبارك . وفى الواقع أنها كلها مسائل أساسية بالغة الأهمية عظيمة الدلالة .

وقد قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية : إنها وأمثالها من السور التى فيها العجائب ، وذلك لما جاء فيها من التأسيس لافتتاحية تلك الرسالة العظيمة ، ولا نستطيع إيفاءها حقها عجزاً وقصوراً .

وقد كتب فيها شيخ الإسلام ابن تيمية بأسلوبه مائتين وعشرين صفحة متتالية ، وفصلا آخر فى مباحث تتصل بها ، ولو أوردنا كل ما يسعنا مما تحتمله ، لكان خروجاً عن موضوع الكتاب ، ولذا فإنا نقتصر

القول على مايتصل بموضوعه ، إلا ماجرى القلم به مما لايمكن تركه ، وبالله تعالى التوفيق .

أما المسائل التسع التى ذكرت هنا ، فإنا نوردها لنتقيد بها وهى :

أولا : الأمر بالقراءة ، يوجه لنبى أمى .

والثانية : كون القراءة هذه باسم الرب سبحانه مضافاً للمخاطب صلى الله عليه وسلم باسم ربك .

الثالثة : وصف للرب الذى خلق بدلا من اسم الله ، واسم الذى يحيى ويميت أو غير ذلك .

الرابعة : خلق الإنسان بخصوصه ، بعد عموم خلق وإطلاقه .

الخامسة : خلق الإنسان من علق ، ولم يذكر ما قبل العلقة من نطفة أو خلق آدم من تراب .

السادسة : إعادة الأمر بالقراءة مع وربك الأكرم ، بدلا من أى صفة أخرى ، وبدلا من الذى خلق المتقدم ذكره .

الثامنة : التعليم بالقلم .

التاسعة : تعليم الإنسان مالم يعلم .

لما كانت هذه السورة هى أول سورة نزلت من القرآن ، وكانت تلك الآيات الخمس أول ما نزل منها على الصحيح ، فهى بحق افتتاحية الوحى ، فكانت موضع عناية المفسرين وغيرهم ، والكلام على ذلك مستفيض فى كتب التفسير والحديث والسيرة ، فلا موجب لإيراده هنا . ولكن نورد الكلام على ما ذكرنا من موضوع الكتاب إن شاء الله .

أما المسألة الأولى قوله تعالى : (اقرأ) فالقراءة لغة الإظهار ، والإبراز ، كما قيل فى وصف الناقة : لم تقرأ جنينا ، أى لم تنتج .

وتقدم للشيخ بيان هذا المعنى لغة وتوجيه الأمر بالقراءة إلى نبى أمى لا تعارض فيه ، لأن القراءة تكون من مكتوب وتكون من متلو ، وهنا من متلو يتلوه عليه جبريل عليه السلام ، وهذا إبراز المعجزة أكثر ، لأن الأمى بالأمس صار معلماً اليوم . وقد أشار السياق إلى نوعى القراءة هذين ، حيث جمع القراءة مع التعليم بالقلم .

وفى قوله تعالى : (اقرأ) بدء للنبوة وإشعار بالرسالة ، لأنه يقرأ كلام غيره .

وقوله تعالى : (باسم ربك) تؤكد لهذا الإشعار ، أى ليس من عندك ولا من عند جبريل الذى يقرئك .

وقد قدمنا الرد على كونه صلى الله عليه وسلم لم يكتب ولا يقرأ

مكتوباً ، من أنه صيانة للرسالة ، كما أنه لم يكن يقول الشعر وما ينبغى له ، إذاً لارتاب المبطلون .

كما قال تعالى : (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) الآية . وذلك عند قوله تعالى : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته) .

وهنا لم يبين مايقرؤه ولكن مجىء سورة القدر بعدها بمثابة البيان لما يقرؤه وهى : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ، وجاء بيان ما أنزل فى سورة الدخان (حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) .

وللشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان لذلك عند قوله تعالى : (وعلّمك مالم تكن تعلم) فكأنه فى قوة اقرأ مايوحى إليك من ربك ، والمراد به هو القرآن بالإجماع .

المسألة الثانية قوله : (باسم ربك) أى اقرأ باسم ربك منشئاً ومبتدئاً القراءة باسم ربك ، وقد تكلم المفسرون على الباء أهى صلة ، ويكون اقرأ اسم ربك ، أى قل باسم الله ، كما فى أوائل السور .

وقيل : الباء بمعنى على ، أى على اسم ربك ، وعليه : فالمقروء محذوف .

والذى يظهر والله تعالى أعلم أن قوله : (باسم ربك) أى أن ماتقرؤه هو من ربك ، وتبلغه للناس باسم ربك ، وأنت مبلغ عن ربك على حد قوله : (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى) .

وقوله : (ما على الرسول إلا البلاغ) أى عن الله تعالى .

وكقوله : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) .

ونظير هذا فى الأعراف الحاضرة خطاب الحكم ، أو مايسمى خطاب العرش ، حينما يقول ملقيه باسم الملك ، أو باسم الأمة ، أو باسم الشعب ، على حسب نظام الدولة ، أى باسم السلطة التى منها مصدر التشريع والتوجيه السياسى .

وهنا باسم الله ، باسم ربك ، وصفة ربك هنا لها مدلول الربوبية الذى ينبه العبد إلى ما أولاه الله إياه من التربية والرعاية والعناية ، إذ الرب يفعل لعبده مايصلحه ، ومن كمال إصلاحه أن يرسل إليه من يقرأ عليه وحيه بخيرى الدنيا والآخرة ، وفى إضافته إلى المخاطب إيناس له .

المسألة الثالثة : وصف الرب بالذى خلق مع إطلاق الوصف ، وذلك لأن صفة الخلق هى أقرب الصفات إلى معنى الربوبية ، ولأنها

أجمع الصفات للتعريف بالله تعالى لخلقه ، وهي الصفة التي يسلمون بها (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله) .

(ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) .

ولأن كل مخلوق لابد له من خالق (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) ، وقد أطلق صفة الخلق عن ذكر مخلوق ليعم ويشمل الوجود كله ، خالق كل شيء في قوله : (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) .

(الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) .

(هو الله الخالق البارىء المصور) .

وتلك المسائل الثلاث : هي الأصول في الرسالة ومابعدها دلالة عليها ، فالأمر بالقراءة تكليف لتحمل الوحي ، وباسم ربك بيان لجهة التكليف ، والذي خلق تدليل لتلك الجهة ، أي الرسالة والرسول والمرسل مع الدليل المجمل . ولاشك أن المرسل إليهم لم يؤمنوا ولا بواحدة منها ، فكان لابد من إقامة الأدلة على ثبوتها بالتفصيل .

ولما كانت جهة المرسل هي الأساس وهي المصدر ، كان التدليل عليها أولا ، فجاء التفصيل في شأنها بما يسلمون به ويسلمونه في أنفسهم ، وهي المسألة الرابعة

والخامسة : خلق الإنسان من علق ، وهذا تفصيل بعد إجمال ببيان للبعض من الكل ، فالإنسان بعض مما خلق ، وذكره من ذكر العام بعد الخاص أولا ، ومن إلزامهم بما يسلمون به ثم لانتقالهم مما يعلمون، ويقرون به إلى مالا يعلمون وينكرون .

وفى ذكر الإنسان بعد عموم الخلق تكريم له ، كذكر الروح بعد عموم الملائكة ، تنزل الملائكة والروح فيها ونحوه ، والإنسان هنا الجنس بدليل الجمع فى علق جمع علقة ، ولأنه أوضح دلالة عنده ، ليستدل بنفسه من نفسه كما سيأتى .

وقوله (من علق) وهو جمع علقة ، وهى القطعة من الدم ، كالعرق أو الخيط بيان على قدرته تعالى ، وذلك لأنهم يشاهدون ذلك أحيانا فيما تلقى به الرحم ، ويعلمون أنه مبدأ خلقة الإنسان .

فالقادر على إيجاد إنسان فى أحسن تقويم من هذه العلقة ، قادر على جعلك قارئا وإن لم تكن تعلم القراءة من قبل ، كما أوجد الإنسان من تلك العلقة ولم يكن موجودا من قبل ، ولأن الذى يتعهد تلك العلقة حتى تكتمل إنسانا يتعهدها بالرسالة .

وقد يكون فى اختيار الإنسان بالذات وبخصوصه لتفصيل مرحلة

وجوده ، أن غيره من المخلوقات لم تعلم مبادىء خلقتها كعلمهم بالإنسان ، ولأن الإنسان قد مرّ ذكره فى السورة قبلها (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) ، فبين أنه من هذه العلقة كان فى أحسن تقويم ، ومن حسن تقويم إنزال الكتاب القيم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن المقام هنا مقام دلالة على وجود الله ، فبدأ بما يعرفونه ويسلمون به لله ، ولم يبدأ من النطفة أو التراب ، لأن خلق آدم من تراب لم يشاهدوه ، ولأن النطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان ، فقد تقذف فى غير رحم كالمحتلم ، وقد تكون فيه ، ولا تكون مخلقة . اهـ .

وهذا فى ذاته وجيه ، ولكن لا يبعد أن يقال : إن السورة فى مستهل الوحى وبدايته ، فهى كالذى يقول : إذا كنت بدأت بالوحى إليه ولم يكن من قبل ، ولم يوجد منه شىء بالنسبة إليك ، فليس هو بأكثر من إيجاد الإنسان من علقة ، بعد أن لم يكن شيئاً .

وعليه يقال : لقد تركت مرحلة النطفة مقابل مرحلة من الوحى ، قد تركت أيضاً وهى فترة الرؤيا الصالحة ، كما فى الصحيحين « أنه صلى الله عليه سلم كان أول ما بدىء به الوحى الرؤيا الصالحة ، يراها فتأتى كفلق الصبح » فكان ذلك إرهاصاً للنبوة وتمهيداً لها لمدة ستة أشهر ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الصالحة يراها

الرجل الصالح ، أو ترى له جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة » وهى نسبة نصف السنة من ثلاث وعشرين مدة الوحى ، ولـكن الرؤيا الصالحة قد يراها الرجل الصالح ، ومثل ذلك تماما فترة النطفة ، فقـد تـكون النطفة ولا يكون الإنسان ، كما تـكون الرؤيا ولا تـكون النبوة ، أما العلقة فلا تـكون إلا فى رحم وقرار مكين ، ومن ثم يأتى الإنسان مخلقاً كاملا ، أو غير مخلق على ما يقدر له .

فلما كانت فترة النطفة ليست بلازمة لخلق الإنسان ، وكان مثلها فترة الرؤية ليست لازمة للنبوة ترك كل منها مقابل الآخر ، ويبدأ الدليل بما هو الواقع المسلم على أن الله تعالى هو الخالق ، والخالق للانسان من علقة ، فـكان فيه إقامة الدليل من ذاتية المستدل ، فالدليل هو خلق الانسان ، والمستدل به هو الإنسان نفســه ، كما فى قوله تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فيستدل لنفسه من نفسه على قدرة خالقه سبحانه .

وإذا تم بهذا الاستدلال على قدرة الرب الخالق ، كان بعده إقامة الدليل على صحة النبوة ورسالة الرسول صلى الله عليه وسـلم ، فجاءت المسألة السادسة وهى إعادة القراءة فى قوله : (اقرأ وربك الأكرم) إذ أقام الدليل على أنك مرسل من الله تبلّغ عنه وتقرأ باسمه ، فاعلم أن تلك القراءة وهذا الوحى من ربك الأكرم ، والأكرم

قالوا : هو الذى يعطى بدون مقابل ، ولا انتظار مقابل ، والواقع أن مجىء الوصف هنا بالأكرم بدلا من أى صفة أخرى ، لما فى هذه الصفة من تلاؤم للسياق ، مالا يناسب مكانها غيرها لعظم العطاء وجزيل المنة .

فأولا : رحمة الخليقة بهذه القراءة التى ربطت العباد بربهم . وكفى

وثانياً : نعمة الخلق والإيجاد ، فهما نعمتان متكاملتان : الإيجاد من العدم بالخلق ، والإيجاد الثانى من الجهل إلى العلم ، ولا يكون هذا كله إلا من الرب الأكرم سبحانه .

ثم تأتى المسألة الثامنة : وهى من الدلالة على النبوة والرسالة ، وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، سواء كان الوقف على : اقرأ ، وابتداء الكلام : وربك الأكرم الذى علم بالقلم . أو الوقف على الأكرم وابتداء الكلام . الذى علم بالقلم ، لأن من يعلم الجاهل بالقلم ، يعلّم غيره بدون القلم بجامع التعليم بعد الجهل . فالقادر على هذا قادر على ذلك .

والتاسعة : بيان لهذا الإجمال حيث لم يبين ما الذى علمه بالقلم . فقال (علم الإنسان مالم يعلم) وهذا مشاهد ملموس فى أشخاصهم

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) .

فالله الذى علم الإنسان مالم يعلم ، وكل ما تعلمه الإنسان فهو من الله تعلمونهن مما علمكم الله ، وهل الرسالة والنبوة إلا تعليم الرسول مالم يكن يعلم ؟ وبهذا تم إقامة الدليل على صحة النبوة ، أى الرسالة والرسول والمرسل ، وهى أسس الدعوة والبعثة الجديدة .

وقد اشتهر عند الناس أنه نبىء « باقرأ » وأرسل « بالمدثر » ولكن فى نفس هذه السورة معنى الرسالة ، لما قدمنا من أن القراءة باسم ربك ، إشعار بأنه مرسل من ربه إلى من يقرأ عليهم ، ففيها إثبات الرسالة من أول بدء الوحى .

تنبيه

فى قوله تعالى : (الذى علَّم بالقلم) مبحث التعليم ومورد سؤال ، وهو إذا كان تعالى تمدح بأنه علَّم بالقلم وأنه علَّم الإنسان مالم يعلم ، فكان فيه الإشادة بشأن القلم ، حيث إن الله تعالى قد علم به ، وهذا أعلى مراتب الشرف مع أنه سبحانه قادر على التعليم بدون القلم ، ثم أورده فى معرض التكريم فى قوله : (نۤ والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وعظم المقسم عليه وهو نعمة الله على

رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحى ، يدل على عظم المقسم به ، وهو القلم وما يسطرون به من كتابة الوحى وغيره .

وقد ذكر القلم فى السنة أنواعاً متفاوتة ، وكلها بالغة الأهمية .

منها : أولها وأعلاها : القلم الذى كتب ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، والوارد فى الحديث « أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب » الحديث .

فعلى رواية الرفع ، يكون هو أول المخلوقات ثم جرى بالقدر كله ، وبما قدر وجوده كله .

ثانيها : القلم الذى يكتب مقادير العام فى ليلة القدر من كل سنة ، المشار إليه بقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

ثالثها : القلم الذى يكتب به الملك فى الرحم ما يخص العبد من رزق وعمل .

ثالثها : القلم الذى بأيدى الكرام الكاتبين المنوه عنه بقوله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى بالكتابة كما فى قوله :

(كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون) إذا قلنا إن الكتابة فى ذلك تستلزم قلماً ، كما هو الظاهر .

رابعاً : القلم الذى بأيدى الناس يكتبون به ما يعلمهم الله ، ومن أهمها أقلام كتاب الوحى ، الذين كانوا يكتبون الوحى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتابة سليمان لبلقيس .

وقوله تعالى : (الذى علم بالقلم) شامل لهذا كله ، إذا كان هذا كله شأن القلم وعظم أمره ، وعظيم المنة به على الأمة ، بل وعلى الخليقة كلها .

وقد افتتحت الرسالة بالقراءة والكتابة ، فلماذا لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم الذى أعلن عن هذا الفضل كله للقلم ! لم يكن هو كاتباً به ، ولا من أهله بل هو أمى لا يقرأ ولا يكتب ، كما فى قوله : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) .

والجواب : أنا أشرنا أولا إلى ناحية منه ، وهى أنه أكمل للمعجزة ، حيث أصبح النبى الأمى معلماً كما قال تعالى : (يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب الحكمة) .

وثانياً : لم يكن هذا النبى الأمى مُغْفِلاً شأن القلم ، بل عنى به كل

العناية ، وأولها وأعظمها أنه اتخذ كتّاباً للوحى يكتبون ما يوحى إليه بين يديه ، مع أنه يحفظه ويضبطه ، وتعهد الله له بحفظه وبضبطه فى قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) حتى الذى ينساه يعوضه الله بخير منه أو مثله ، كما فى قوله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) ووعد الله تعالى بحفظه فى قوله : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ومع ذلك ، فقد كان يأمر بكتابة هذا المحفوظ وكان له عدة كتاب ، وهذا غاية فى العناية بالقلم .

وذكر ابن القيم من الكتاب الخلفاء الأربعة ، ومعهم تتمة سبعة عشر شخصاً ، ثم لم يقتصر صلى الله عليه وسلم فى عنايته بالقلم والتعليم به عند كتابة الوحى ، بل جعل التعليم به أعم ، كما جاء خبر عبد الله ابن سعيد بن العاص « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يعلِّم الناس الكتابة بالمدينة ، وكان كاتباً محسناً » ذكره صاحب الترتيبات الإدارية عن ابن عبد البر فى الاستيعاب .

وفى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال « علّمت ناساً من أهل الصفّة الكتابة والقرآن » .

وقد كانت دعوته صلى الله عليه وسلم ، الملوك إلى الإسلام بالكتابة كما هو معلوم .

وأبعد من ذلك ، ما جاء فى قصة أسارى بدر، حيث كان يفادى بالمال من يقدر على الفداء ، ومن لم يقدر . وكان يعرف الكتابة كانت مفاداته أن يعلّم عشرة من الغلمان الكتابة ، فكثرت الكتابة فى المدينة بعد ذلك .

وكان ممن تعلم : زيد بن ثابت وغيره .

فإذا كان المسلمون وهم فى بادىء أمرهم وأحوج مايكون إلى المال والسلاح ، بل واسترقاق الأسارى فيقدمون تعليم الغلمان الكتابة على ذلك كله ، ليدل على أمرين :

أولهما : شدة وزيادة العناية بالتعليم .

وثانيهما : جواز تعليم الكافر للمسلم مالا تعلق له بالدين ، كما يوجد الآن من الأمور الصناعية ، فى الهندسة ، والطب ، والزراعة ، والقتال ، ونحو ذلك .

وقد كثر المتعلمون بسبب ذلك ، حتى كان عدد كتاب الوحى اثنين وأربعين رجلا ثم كان انتشار الكتابة مع الإسلام ، وجاء النص على الكتابة فى توثيق الدين فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) الآية ، وهى أطول آية فى كتاب الله تعالى رسمت فيهم كتابة العدل الحديثة كلها .

وإذا كان هذا شأن القلم وتعلمه، فقد وقع الكلام فى تعليمه للنساء على أنهن شقائق الرجال فى التكاليف والعلم، فهل كن كذلك فى تعلم الكتابة أم لا ؟

مبحث تعليم النساء الكتابة

وقع الخلاف بسبب نصين فى المسألة :

الأول: حديث الشفاء بنت عبد الله قالت «دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة، فقال لى : ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة ؟» رواه المجد فى المنتقى عن أحمد وأبى داود. وقال بعده : وهو دليل على جواز تعلم النساء الكتابة .

والثانى : حديث عائشة رواه الحاكم وصححه البيهقى مرفوعا . لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة - يعنى النساء - وعلموهن الغزل وسورة النور » قال الشوكانى فى نيل الأوطار، على حديث المنتقى وحديث عائشة : إن حديث الشفاء دليل على جواز تعليمهن، وحديث النهى : محمول على من يخشى من تعليمها الفساد، أعنى تعليم الكتابة والقراءة .

أما تعليم العلم فليس محل خلاف، والواقع أن هذه المسألة

واضحة المعالم ، إذا نظرت كالآتى :

أولا : لاشك أن العلم من حيث هو خير من الجهل ، والعلم قسمان : علم سماع وتلقى ، وهذه سيرة زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعائشة كانت القدوة الحسنة فى ذلك فى فقه الكتاب والسنة ، وكم استدركت على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وهذا مشهور ومعلوم .

والثانى : علم تحصيل بالقراءة والكتابة ، وهذا يدور مع تحقق المصلحة من عدمها ، فمن رأى أن تعليمهن مفسدة منعه ، كما روى عن علىّ رضى الله عنه : أنه مرّ على رجل يعلم امرأة الكتابة . فقال : لا تزد الشر شراً .

وروى عن بعض الحكماء : أنه رأى امرأة تتعلم الكتابة ، فقال : أفعى تسقى سما ، وأنشدوا الآتى :

ما للنســـــاء وللكتا   بة والعمالة والخطابه
هـذا لنا ولهن منا   أن يبتن على جنابه

ومثله ما قاله المنفلوطى :

يا قوم لم تخلق بنات الورى   للدرس والطرس وقال وقيل

لها علوم ولها غيرها فعلّموها كيف نشر الغسيل
والثوب والإبرة فى كفها طرس عليه كل خط جميل

وهذا نظر إلى تعليمهن وموقفهن من زاوية واحدة . كما قال الشاعر الآخر :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

مع أننا وجدنا فى تاريخ المرأة نسوة شاركن فى القتال ، حتى عائشة رضى الله عنها كانت تسقى الماء ، وأم سلمة تداوى الجرحى ، إذ لا يؤخذ قول كل منهما على عمومه .

قال صاحب التراتيب الإدارية : أورد القلقشندى أن جماعة من النساء كن يكتبن ، ولم ير أن أحداً من السلف أنكر عليهن ١٠ هـ .

ومن المعلوم رواية « كريمة » لصحيح البخارى ، وهى من الرواية المعتبرة عن المحدثين ، فقد رأيت بنفسى وأنا مدرس بالأحساء نسخة لسنن أبى دواد عند آل المبارك وعليها تعليق لأخت صلاح الدين الأيوبى ، وذكر صاحب التراتيب الإدارية قوله : وقد ثبت عن كثير من نساء أهل الصحراء الأفريقية خصوصاً شنقيط : شنجط ، أى

شنقيط ، وهى المعروفة الآن بموريتانيا ، وتيتبكتو ، وقبيلة كنت العجب ، حتى جاء أن الشيخ المختار الكنتى الشهير ، ختم مختصر خليل للرجال ، وختمته زوجته فى جهة أخرى للنساء . اهـ .

ومما يؤيد ما ذكره أننا ونحن فى بعثة الجامعة الإسلامية لإفريقيا ، سمعنا ونحن فى مدينة أطار وهى على مقربة من مدينة شنجيط المذكورة ، سمعنا من كبار أهلها أنه كان يوجد بها سابقاً مائتا فتاة يحفظن المدونة كاملة .

وقد سمعت فى الآونة الأخيرة ، أنه كانت توجد امرأة تدرس فى المسجد النبوى ، الحديث ، والسيرة ، واللغة العربية وهى شنقيطية .

ويجب أن تكون النظرة لهذه المسألة على ضوء واقع الحياة اليوم وفى كل يوم ، وقد أصبح تعليم المرأة من متطلبات الحياة ، ولكن المشكلة تكمن فى منهج تعليمها ، وكيفية تلقيها العلم

فكان من اللازم أن يكون منهج تعليمها قاصراً على النواحى التى يحسن أن تعمل فيها كالتعليم والطب وكفى .

أما كيفية تعليمها ، فإن مشكلاتها إنما جاءت من الاختلاط فى

مدرجات الجامعات ، وفصول الدراسة فى الثانويات فى فترة المراهقة، وقلة المراقبة ، وفى هذا يكمن الخطر منها وعليها فى آن واحد ، فإذا كان لابد من تعليمها ، فلابد أيضاً من المنهج الذى يحقق الغاية منه ويضمن السلامة فيه ، والتوفيق من الله سبحانه .

أما مايخشى عليها من الاتصال عن طريق الكتابة ، فقد وجد ماهو أقرب وأسرع منها لمن شاءت وهو الهاتف فى البيوت ، فإنه فى متناول المتعلمة والجاهلة . والمدار فى ذلك كله على الحصانة التربوية والمتانة الدينية والقوة الأخلاقية .

وقد أوردت هذا المبحث استطراداً لبيان وجهة النظر فى هذه المسألة ، اقتباساً من قوله تعالى : (الذى علم بالقلم) وبالله التوفيق

مسألة

بيان أولية الكتابة عامة والعربية خاصة ، وأول من خط بالقلم على الأرض :

جاء فى المطالع النصرية للمطابع المصرية فى الأصول الخطية المطبوع سنة ١٣٠٤ مانصه : وإنما أصول الكتابة اثنى عشر على ماقاله ابن خلكان ، وتبعه كثير من المؤلفين ، كالدميرى فى حياة الحيوان ، والحلبى فى السيرة وغيرهما .

قال : إن جميع كتابات الأمم من سكان المشرق والمغرب اثنتى عشرة كتابة ، خمس منها ذهب من يعرفها وبطل استعمالها وهى : الحميرية ، والقبطية ، والبربرية ، والأندلسية ، واليونانية ، وثلاث منهـا فقد من يعرفهـا فى بلاد الإسـلام ومستعملة فى بلادها ، وهى السريانيـة الفارسية والعبرانية والعربية . اهـ . كلامه باختصار وفيه مافيه .

قال: والحـميرية : هى خط أهل اليمن قوم هود وهم عاد الأولى ، وهى عاد إرم ، وكانت كتابتهم تسمى المسند الحـــميرى ، وكانت حروفها كلها منفصلة ، وكانوا يمنعون العامة من تعلمها فلا يتعاطاها أحد إلا بإذنهم ، حتى جاءت دولة الإسلام، وليس بجميع اليمن من يكتب ويقرأ .

وقال المقريزى فى الخطط : القـلم المسند ، هو القـلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد . اهـ .

والمعروف الآن أن الحروف المستعملة فى الـكتابة فى العالم كله بصرف النظر عن اللغـات المنطوق بها هى ثلاثة فقط ، الخط العربى بحروف ألف باء وبها لغات الشرق. والحروف اللاتينية وبها لغات أوربا والحروف الصينية .

أما اللغات ، وهى فوق ألفى لغة « والأمهرية بحرف قريب من اللاتينى » .

أما أولية الكتابة العربية، فقال صاحب المطالع النصرية : فقد اختلفت الروايات فيها، كما قاله الحافظ السيوطى فى الأوائل .

وكذا فى المزهر فى النوع الثانى والأربعين، قال : إنه يرى أن آدم عليه السلام أول من كتب بالقلم ، وأن الكتابات كلها من وضعه ، كان قد كتبها فى طين وطبخه ، يعنى أحرقه ودفنه قبل موته بثلاثمائة سنة ، وبعد الطوفان وجد كل قوم كتابا فتعلموه ، وكانت اثنى عشر كتاباً ، فتعلموه بإلهام إلهى .

وقيل : إن أول من خط بالعربى إسماعيل عليه السلام . اهـ .

وقد أطال السيوطى فى المزهر الكلام فى هذه المسألة ، نقلا عن ابن فارس الشدياى .

وعن العسكرى عن الأوائل فى ذلك أقوال ، فقيل إسماعيل ، وقيل : مرار بن مرة ، وهما من أهل الأنبار ، وفى ذلك يقول الشاعر :

كتبت أبا جاد وخطى مرامز وسورت سربالى ولست بكاتب

وقيل : أول من وضعه أبجد ، وهوز وحطى ، وكلمن ، وصعفص ، وقرشت ، وكانوا ملوكا فسمى الهجاء بأسمائهم .

وذكر عن الحافظ أبي طاهر السلفي بسنده عن الشعبي قال : أول من كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس ، تعلّم من أهل الحيرة ، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار .

وقال أبو بكر ابن أبي داود في كتاب المصاحف : حدثنا عبد الله ابن محمد الزهري حدثنا سفيان عن مجالد عن الشعبي قال : سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : تعلمنا من أهل الحيرة ، وسألنا أهل الحيرة : من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : من أهل الأنبار ، ثم قال ابن فارس : والذي نقوله إن : الخط توقيفي ، وذلك لظاهر قوله تعالى : (الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) .

وقوله : (نٓ والقلم ومايسطرون) .

وإذا كان هذا فليس ببعيد ، أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتابة ، فأما أن يكون شيئاً مخترعا اخترعه من تلقاء نفسه ، فهذا شيء لانعلم صحته إلا من خبر صحيح .

قال السيوطي : قلت يؤيد ماقاله من التوقيف ، ما أخرجه ابن شتة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « أول كتاب أنزله الله من السماء أبا جاد » .

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أبى ذر ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أول من خط بالقلم إدريس عليه السلام » . اهـ .

وقد أطال النقول فى ذلك مما يرجع إلى الأول ، وليس فيه نقل صحيح يقطع به .

وقد أوردنا هذه النبذة بخصوص كلام ابن فارس ، من أن تعليم الكتابة أمر توقيفى ، وما استدل به السيوطى من أول كتاب أنزله الله من السماء ، فإن فى القرآن مايشهد لإمكان ذلك ، وهو أن الله تعالى أنزل الصحف لموسى مكتوبة .

وفى الحديث « إن الله كتب الألواح لموسى بيده ، وغرس جنة عدن بيده » .

وإذا كان موسى تلقى ألواحاً مكتوبة ، فلابد أن تكون الكتابة معلومة له قبل إنزالها ، وإلا لما عرفها .

أما المشهور فى الأحرف التى نكتب بها الآن ، فكما قال السيوطى فى المزهر ، ونقله عنه صاحب المطالع المصرية مانصه :

المشهور عند أهل العلم مارواه ابن الكلبى عن عوانة ، قال : أول من كتب بخطنا هذا . وهو الجزم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة . كما فى القاموس . وهم من عرب طيء تعلموه

من كتاب الوحى لسيدنا هود عليه السلام ، ثم علموه أهل الأنبار، ومنهم انتشرت الكتابة فى العراق والحيرة وغيرها ، فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكانت له صحبة بحرب بن أمية فتعلم حرب منه ، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبى سفيان . فتعلم منه جماعة من أهل مكة .

فبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبيل الإسلام .

ولذا قال رجل كندى من أهل دومة الجندل ، يمن على قريش بذلك :

لاتجحدوا نعماء بشر عليكم فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتموا من المال ما قد كان شتى مبعثرا
وأتقنتموا ما كان بالمال مهملا وطأمنتموا ما كان منه مهترا
فأجريتم الأقلام عودا وبدأة وضاهيتم كتاب كسرى وقيصرا
وأغنيتم عن مسند فى حميرا ومازبرت فى الصحف أقلام حميرا

قال : وكذلك ذكر النووى فى شرح مسلم نقل عن الفراء ، أنه قال : إنما كتبوا الربا فى المصحف بالواو ، لأن أهل الحجاز تعلموا

الخط من أهل الحيرة ، ولقنهم الربوا ، فعلموهم صورة الخط على لغتهم . اهـ .

تنبيه آخر

قوله تعالى : (الذى علم بالقلم) لايمنع تعليمه تعالى بغير القلم ، كما فى قصة الخضر مع موسى عليه السلام فى قوله تعالى : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) .

وكما فى حديث « نفث فى روعى أنه لن تموت نفس ، حتى تستكمل رزقها وأجلها » الحديث .

وكما فى حديث الرقية بالفاتحة لمن لدغته العقرب فى قصة السرية المعروفة ، فلما سأله صلى الله عليه وسلم « ومايدريك أنها رقية ؟ ، قال : شيء نفث فى روعى » .

وحديث علىّ لما سئل « هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم ؟ قال : لا ، إلا فهما يؤتيه الله من شاء فى كتابه . وما فى هذه الصحيفة » .

وقوله : واتقوا الله ويعلمكم الله . نسأل الله علم ما لم نعلم ، والعمل بما نعلم . وبالله التوفيق .

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ . أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾.

ظاهر هذه الآية أن الاستغناء موجب للطغيان عند الإنسان ، ولفظ الإنسان هنا عام ، ولكن وجدنا بعض الإنسان يستغنى ولا يطغى ، فيكون هذا من العام المخصوص ، ومخصصه إما من نفس الآية أو من خارج عنها ، ففى نفس الآية ما يفيده قوله تعالى : (أن رآه) أى إن رأي الإنسان نفسه ، وقد يكون رأيا واهما ويكون الحقيقة خلاف ذلك ، ومع ذلك يطغى ، فلا يكون الاستغناء هو سبب الطغيان .

ولذا جاء فى السنة : ذم العائل المتكبر ، لأنه مع فقره يرى نفسه استغنى ، فهو معنى فى نفسه لا بسبب غناه .

أما من خارج الآية ، فقد دل على هذا المعنى قوله تعالى : (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى) ، فإيثار الحياة الدنيا هو موجب الطغيان ، وكما فى قوله (الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا) الآية .

ومفهومه : أن من لم يؤثر الحياة الدنيا ، ولم يحسب أن ماله أخلده ، لن يطغيه ماله ولا غناه ، كما جاء فى قصة النفر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع من بنى إسرائيل .

وقد نص القرآن على أوسع غنى فى الدنيا فى نبى الله سليمان ،

آتاه الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع هذا قال : (إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها علىّ) الآية .

وقصة الصحابى الموجودة فى الموطأ : لما شغل ببستانه فى الصلاة ، حين رأى الطائر لا يجد فرجة من الأغصان ، ينفذ منه ، فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « يا رسول الله : إنى فتنت ببستانى فى صلاتى ، فهو فى سبيل الله » فعرفنا أن الغنى وحده ليس موجبا للطغيان ، ولكن إذا صحبه إيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، وقد يكون طغيان النفس من لوازمها لو لم يكن غنى . إن النفس لأمارة بالسوء . وأنه لا يقى منه إلا التهذيب بالدين كما قال تعالى : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) الآية .

وقد ذكر عن فرعون تحقيق ذلك حين قال (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) ، وكذلك قال قارون (إنما أوتيته على علم عندى) ، وقال : ثالث الثلاثة من بنى إسرائيل « إنما ورثته كابراً عن كابر ، بخلاف المسلم » إلى آخره . فلا يزيده غناه إلا تواضعاً وشكراً للنعمة ، كما قال نبى الله سليمان (قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن

شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم) وقد نص فى نفس السورة أنه شكر الله (فتبسم ضاحكا من قولها وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) .

وفى العموم قوله : (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة . قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى ، إنى تبت إليك وإنى من المسلمين) .

وقد كان فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحاب المال الوفير فلم يزدهم إلا قرباً لله ، كعثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأمثالهم ، وفى الآية ربط لطيف بأول السورة ، إذا كان خلق الإنسان من علق ، وهى أحوج ما يكون إلى لطف الله وعنايته ورحمته فى رحم أمه ، فإذا بها مضغة ثم عظام ، ثم تكسى لحماً ، ثم تنشأ خلقاً آخر ، ثم يأتى إلى الدنيا طفلا رضيعا لا يملك إلا البكاء ، فيجرى الله له نهرين من لبن أمه ، ثم ينبت له الأسنان ، ويفتق له الأمعاء ، ثم يشب ويصير غلاما يافعا ، فإذا ما ابتلاه ربه بشىء من المال أو العافية ، فإذا هو ينسى كل ما تقدم ، وينسى حتى ربه ويطغى ويتجاوز حده حتى مع الله

خالقه ورازقه ، كما رد عليه تعالى بقوله : (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) الآية .

ومما فى الآية من لطف التعبير قوله تعالى : (أن رآه استغنى) أى أن الطغيان الذى وقع فيه عن وهم ، تراءى له ، أنه استغنى سواء بماله أو بقوته . لأن حقيقة المال ولو كان جبالا ، ليس له منه إلا ما أكل ولبس وأنفق .

وهل يستطيع أن يأكل لقمة واحدة إلا بنعمة العافية ، فإذا مرض فماذا ينفعه ماله ، وإذا أكلها وهل يستفيد منها إلا بنعمة من الله عليه .

ومن هذه الآية أخذ بعض الناس ، أن الغنى الشاكر أعظم من الفقير الصابر ، لأن الغنى موجب للطغيان .

وقد قال بعض الناس : الصبر على العافية ، أشد من الصبر على الحاجة .

قوله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى عليه وعليه فى دفع إيهام الاضطراب : أسند الكذب إلى الناصية ، وفى مواضع أخرى أسنده إلى غير الناصية ، كقوله : (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون) .

وذكر الجواب بأنه أطلق الناصية وأراد صاحبها على أسلوب لإطلاق البعض وإيراد الكل ، وذكر الشواهد عليه من القرآن كقوله تعالى : (تبت يدا أبى لهب وتب) .

والذى ينبغى التنبيه عليه من جهة البلاغة : أن البعض الذى يطلق ويراد به الكل ، لا بد فى هذا البعض من مزيد مزية المعنى المساق فيه الكلام .

فمثلا هنا ذم الكذب وأخذ الكاذب بكذبه ، فجاء ذكر الناصية وهى مقدم شعر الرأس ، لأنها أشد نكارة على صاحبها ونكالا به ، إذ الصدق يرفع الرأس والكذب ينكسه ذلة وخزياً .

فكانت هي هنا أنسب من اليد أو غيرها ، بينما في أبي لهب تطاول بماله ، والغرض مذمة ماله وكسبه الذي تطاول به ، واليد هي جارحة الكسب وآلة التصرف في المال ، فكانت اليد أولى فيه من الناصية .

وهكذا كما يقولون : بث الأمير عيونه : يريدون جواسيس له ، لأن العين من الإنسان أهم ما فيه لمهمته تلك . ولم يقولوا : بث أرجله ولا رؤوسا ولا أيد ، لأنها كلها ليست كالعين في ذلك .

ومن هذا القبيل (قلوب يومئذ واجفة) ، (يا أيتها النفس المطمئنة) .

لأن القلب هو مصدر الخوف والنفس هي محط الطمأنينة ، على أن النفس جزء من الإنسان ، وهكذا ، ومنه الآتي (واسجد واقترب) أطلق السجود وأراد الصلاة ، لأن السجود أخص صفاتها .

قوله تعالى : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ .

ربط بين السجود والاقتراب من الله كما قال : (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) وقوله : في وصف أصحابه رضي الله عنهم : (تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا) فقوله :

(يبتغون فضلا من الله ورضوانا) فى معنى يتقربون إليه يبين قوله :
(واسجد واقترب) .

وهذا مما يدل لأول وهلة أن الصلاة أعظم قربة إلى الله ، حيث
وجه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم من أول الأمر ، كما بين تعالى
فى قوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون العبد إلى الله
وهو ساجد » .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

الضمير فى أنزلناه للقرآن قطعاً .

وحكى الألوسى عليه الإجماع ، وقال : ما يفيد أن هناك قولا ضعيفاً لا يعتبر من أنه لجبريل .

وما قاله عن الضعف لهذا القول ، يشهد له السياق ، وهو قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) .

والمشهور : أن الروح هنا هو جبريل عليه السلام ، فيكون الضمير فى أنزلنا لغيره ، وجىء بضمير الغيبة ، تعظيما لشأن القرآن ، وإشعاراً بعلو قدره .

وقد يقال : ذكر سورة القدر قبلها مشعرة به فى قوله (اقرأ باسم ربك) ثم جاءت (إنا أنزلناه) أى القرآن المقروء والضمير المتصل فى إنا ، ونا فى إنا أنزلناه مستعمل للجمع وللتعظيم ، ومثلها نحن ، وقد اجتمعا فى قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر) والمراد بهما هنا التعظيم قطعاً لاستحالة التعدد أو إرادة معنى الجمع .

فقد صرح فى موضع آخر باللفظ الصريح فى قوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى) والمراد به القرآن قطعاً ، فدل على أن المراد بتلك الضمائر تعظيم الله تعالى .

وقد يشعر بذلك المعنى وبالاختصاص تقديم الضمير المتصل إنا ، وهذا المقام مقام تعظيم واختصاص لله تعالى سبحانه ، ومثله (إنا أعطيناك الكوثر) ، وقوله (إنا أرسلنا نوحا) (إنا نحن نحيى ونميت) وإنزال القرآن منة عظمى .

وقد دل على تعظيم المنة وتعظيم الله سبحانه فى قوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) ، فقال : كتاب أنزلناه بضمير التعظيم ، ثم قال فى وصف الكتاب : مبارك .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنصيص على أنه للتعظيم عند الكلام على آية ص هذه (كتاب أنزلناه إليك مبارك) .

والواقع أنه جاءت الضمائر بالنسبة إلى الله تعالى بصيغ الجمع للتعظيم وبصيغ الإفراد ، فمن صيغ الجمع ماتقدم ، ومن صيغ الإفراد قوله (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ، وقوله (إنى خالق بشراً من طين) ، وقوله (إنى أعلم ما لاتعلمون) .

ويلاحظ فى صيغ الإفراد : أنها فى مواضع التعظيم والإجلال ، كالأول فى مقام خلق البشر من طين ، ولا يقدر عليه إلا الله .

والثانى : فى مقام أنه يعلم ما لاتعلمه الملائكة ، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه ، فسواء جىء بضمير بصيغة الجمع أو الإفراد ، ففيها كلها تعظيم لله سبحانه وتعالى سواء بنصها ، بأصل الوضع أو بالقرينة فى السياق .

ثم اختلف فى المنزل ليلة القدر ، هل هو الكل أو البعض ؟

فقيل : وهو رأى الجمهور أنه أوائل تلك السورة فقط أى بداية الوحى بالقرآن ، وهو مروى عن ابن عباس ، قال : « ثم تتالى نزول الوحى ، بعد ذلك وكان بين أوله وآخره عشرون سنة » .

وقيل : المنزل فى تلك الليلة ، هو جميع القرآن جملة واحدة ، وكله إلى سماء الدنيا ، ثم صار ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجماً حسب الوقائع .

وهذا الأخير هو رأى الجمهور كما قدمنا ، وقد اختاره الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وحكاه الألوسى وحكى عليه الإجماع .

وعن ابن حجر فى فتح البارى ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول يجمع فيه بين القولين الأخيرين ، وهو أنه لا منافاة بين القولين ، ويمكن الجمع بينهما ، بأن يكون نزل جملة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، وبدء نزول أوله (اقرأ باسم ربك) فى ليلة القدر .

وقد أثير حول هذه المسألة جدال ونقاش كلامى حول كيفية نزول القرآن، وأدخلوا فيها القول بخلق القرآن، وأن جبريل نقله من اللوح المحفوظ، وأن الله لم يتكلم به، عند نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد سئل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن ذلك، وكتب جوابه وطبع، فكان كافياً . وقد نقل فيه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وبيّن أن الله تعالى تكلم به عند وحيه، ورد على كل شبهة فى ذلك .

والواقع أنه لا تعارض كما تقدم، بين كونه فى اللوح المحفوظ ونزوله إلى السماء الدنيا جملة، ونزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً، لأن كونه فى اللوح المحفوظ، فإن اللوح فيه كل ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة، ومن جملة ذلك القرآن الذى سينزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم .

ونزوله جملة إلى سماء الدنيا، فهو بمثابة نقل جزء مما فى اللوح وهو جملة القرآن، فأصبح القرآن موجوداً فى كل من اللوح المحفوظ كغيره مما هو فيه، وموجوداً فى سماء الدنيا ثم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً .

ومعلوم أنه الآن هو أيضاً موجود فى اللوح المحفوظ، لم يخل منه

اللوح ، وقد يستدل لإنزاله جملة ثم تنزيله منجماً بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) لأن نزل بالتضعيف تدل على التكرار كقوله (تنزل الملائكة) أى فى كل ليلة قدر .

وقد جاء (أنزلناه) فتدل على الجملة .

وقد بينت السنة تفصيل تنزيله مفرقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى هريرة وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ؛ كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ، حتى إذا فزع عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلى الكبير » الحديث فى صحيح البخارى .

وفى أبى داود وغيره « إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماوات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان » .

وعلى هذا يكون القرآن موجوداً فى اللوح المحفوظ حينما جرى القلم بما هو كائن وما سيكون ، ثم جرى نقله إلى سماء الدنيا جملة فى ليلة القدر ، ثم نزل منجماً فى عشرين سنة . وكلما أراد الله إنزال شىء منه تكلم سبحانه بما أراد أن ينزله ، فيسمعه جبريل عليه السلام عن الله تعالى . ولا منافاة بين تلك الحالات الثلاث . والله تعالى أعلم .

وقد قدمنا الكلام على صور كيفية نزول الوحى وتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم للوحى .

وقيل : معنى (أنزلناه فى ليلة القدر) أى أنزلنا القرآن فى شأن ليلة القدر تعظيما لها ، فلم تكن ظرفا على هذا الوجه .

والواقع : أن هذا القول وإن كان من حيث الأسلوب ممكنا إلا أن ما بعده يغنى عنه ، لأن إعظام ليلة القدر وبيان منزلتها قد نزل فيها قرآن فعلا ، وهو ما بعدها مباشرة فى قوله : (وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر) إلى آخر السورة .

وعليه ، فيكون أول السورة فى شأن إنزال القرآن وبيان ظرف إنزاله ، وآخر السورة فى ليلة القدر وبيان منزلتها .

وقد ذكرت ليلة القدر مبهمة ، ولكن جاء فى القرآن ما يعين الشهر التى هى فيه ، وهو شهر رمضان لقوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الدخان بيان ذلك ، وأنها الليلة التى فيها يبرم كل أمر حكيم ، وليست ليلة النصف من شعبان كما يزعم بعض الناس .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان الحكمة من إنزاله

مفرقاً عند قوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) .

قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

القدر : الرفعة ، والقدر : بمعنى المقدار .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى مذكرة الإملاء ووجه تسميتها ليلة القدر فيه وجهان :

أحدهما : أن معنى القدر الشرف والرفعة ، كما تقول العرب : فلان ذو قدر ، أى رفعة وشرف .

الوجه الثانى : أنها سميت ليلة القدر ، لأن الله تعالى يقدر فيها وقائع السنة ، ويدل لهذا التفسير الأخير قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا) .

وهذا المعنى قد ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الدخان من الأضواء .

والواقع أن فى السورة ما يدل للوجه الأول وهو القدر والرفعة ، وهو قوله : (وما أدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر) .

فالتساؤل بهذا الأسلوب للتعظيم كقوله (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة) ، وقوله (خير من ألف شهر) فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها ، إذ أنها تعدل فى الزمن فوق ثلاث وثمانين سنة ، أى فوق متوسط أعمار هذه الأمة .

وأيضا كونها اختصت بإنزال القرآن فيها ، وبتنزل الملائكة والروح فيها ، وبكونها سلاما هي حتى مطلع الفجر ، لفيه الكفاية بما لم تختص وتشاركها فيه ليلة من ليالي السنة .

وعليه : فلا مانع من أن تكون سميت بليلة القدر ، لكونها محلا لتقدير الأمور في كل سنة ، وأنها بهذا وبغيره علا قدرها وعظم شأنها ، والله تعالى أعلم ، تذكير بنعمة كبرى .

إذا كانت أعمال العبد تتضاعف في تلك الليلة ، حتى تكون خيراً من ألف شهر ، كما في هذا النص الكريم . فإذا صادفها العبد في المسجد النبوي يصلي ، وصلاة فيه بألف صلاة ، فكم تكون النعمة وعظم المنة ، من المنعم المتفضل سبحانه ؛ إنه لما يعلي الهمة ويعظم الرغبة .

وقد اقتصرت على ذكر المسجد النبوي دون المسجد الحرام ، مع زيادة المضاعفة فيه ، لأن بعض المفسرين قال بمضاعفة السيئة فيها .

كذلك أي أن المعصية في ليله القدر كالمعصية في ألف شهر ، ، والمسجد الحرام يحاسب فيه العبد على مجرد الإرادة ، فيكون الخطر أعظم ، وفي المدينة أسلم .

ولعل مما يؤيد ذلك أن ليـــالي القدر كلها ، كانت لرسول الله

صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وقد أثبتها أهل السنة كافة ، وادعت الشيعة نسخها ورفعها كلية ، وهـذا لا يلتفت إليه لصحة النصوص وشبه المتواترة .

تنبيـــه

لم يأت تحديد لتلك الليلة من أى رمضان تـكون ، وقد أكثر العلماء فى ذلك القول وإيراد النصوص .

فالأقوال منها على أعم ما يكون ، من أنهـا فى عموم السنة ، وهذا لم يأت بجديد ، وهو عن ابن مسعود وإنما أراد الاجتهاد .

ومنها : أنها فى عموم رمضان ، وهذا حسب عموم نص القرآن .

ومنهـا : أنهـا فى العشر الأواخر منه ، وهـــذا أخص من الذى قبله .

ومنها : أنها فى الوتر من العشر الأواخر ، وهـذا أخص من الذى قبله .

ومنها : أنها فى آحاد الوتر من العشر الأواخر .

فقيل : فى إحدى وعشرين .

وقيل : ثلاث وعشرين .

وقيل : خمس وعشرين .

وقيل : سبع وعشرين .

وقيل : تسع وعشرين .

وقيل : آخر ليلة من رمضان على التعيين . وفى كل من ذلك نصـــوص .

ولـكن أشهرها وأكثرها وأصحها ، ماجاء أنها فى سبع وعشرين ، وإحدى وعشرين ، ولا حاجة إلى سرد النصوص الواردة فى كل ذلك ، فلم يبق كتاب من كتب التفسير إلا ذكرها ، ولا سيما ابن كثير والقرطبي .

تنبيـــه

إذا كانت كل النصوص التى وردت فى الوتر من العشر الأواخر صحيحة ، فإنه لا يبعد أن تكون ليـلة القدر دائرة بينهـا ، وليست بلازمة فى ليلة منهـا ولا تخرج عنها ، فقد تـكون فى سنة هى ليـلة إحدى وعشرين ، بينما فى سنة أخرى ليلة خمس أو سبع وعشرين ،

وفى أخرى ليلة ثلاث أو تسع وعشرين ، وهكذا . والله تعالى أعلم .

وقد حكى هذا الوجه ابن كثير عن مالك والشافعى وأحمد وغيرهم ، وقال : وهو الأشبه ، والله تعالى أعلم .

وقد قيل : إنه صلى الله عليه وسلم قد أنسيها ، لتجتهد الأمة فى الشهر كله أو فى العشر كلها ، ومما يؤكد أنها فى العشر الأواخر اعتكافه صلى الله عليه وسلم ، التماساً لليلة القدر .

وقد جاء فى فضلها ما استفاضت به كتب الحديث والتفسير ، ويكفى فيها نص القرآن الكريم .

وفى هذه الليلة مباحث عديدة يطول تتبعها ، منها ما يذكر من أماراتها .

ومنها : محاولة البعض استخراجها من القرآن .

ومنها : علاقتها بحكم بنى أمية ، وليس على شىء من ذلك نص يمكن التعويل عليه ، لذا لا حاجة إلى إيراده ، اللهم إلا ما جاء فى بعض أمارات نهارها صبيحتها ، حيث جاء التنويه عن شىء منه فى الحديث « أرويتنى أسجد صبيحتها فى ماء وطين » .

فذكروا من علامات يومها أن تطلع الشمس بيضاء ، وقالوا :

لأن أنوار الملائكة عند صعودها ، تتلاقى مع أشعة الشمس فتحدث فيها بياض الضوء ، وهذا مروى عن أبي في صحيح مسلم .

ومنها : اعتدال هوائها وجوها ونحو ذلك ؛ ومما يمكن أن يكون له صلة بالسورة ذاتها ، ما حكاه ابن كثير أن بعض السلف ، أراد استخراجها من كتاب الله في نفس السورة ، فقال : إن كلمة هي في قوله : (سلام هي) تقع السابعة والعشرين من عدّ كلماتها ، فتكون ليلة سبع وعشرين .

وقيل أيضا : إن حروف كلمة ليلة القدر تسعة أحرف ، وقد تكررت ثلاث مرات ، فيكون مجموعها سبعة وعشرين حرفاً ، فتكون ليلة سبع وعشرين .

ولعل أصوب ما يقال : هو ما قدمنا من أنها تتصل في لياله الوتر من العشر الأواخر ، ولا تخرج عنها . والله تعالى أعلم[1] .

---

(١) ومن أهم مباحثها ماجاء عن عائشة رضى الله عنها « ماذا أقول إن أنا صادفتها يارسول الله ؟ قال : قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى » ، وهذا على إيجازه جامع لخيرى الدنيا والآخرة ، فالعافية في الدنيا سعادة ، وفي الآخرة نجاة .

قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾

قيل : الروح هو جبريل ، كما فى قوله : (فنفخنا فيها من روحنا) ويكون فيها أى فى جماعة الملائكة ، أو معطوف على الملائكة من عطف الخاص على العام .

وقيل : إن الروح نوع من الملائكة مستقل ، ويكون فيها ظرف للنزول أى فى تلك الليلة .

قوله تعالى : ﴿ مِن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .

الأمر يكون واحد الأمور وواحد الأوامر ، والذى يظهر أنه شامل لهما معا ، لأن الأمر من الأمور لا يكون إلا بأمر من الأوامر (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

ويشهد له ما جاء فى شأنها فى سورة الدخان (فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا) .

والذى يفرق من الأمر ، هو أحد الأمور . حيث يفصل بين الخير والشر والضر والنفع إلى آخره ، ثم قال : (أمراً من عندنا) كما أشار إليه السياق (لا إله إلا هو يحيى ويميت) ، فكل أمر من

الأمور يقتضى أمراً من الأوامر ، وهذا يمكن أن يكون من الألفاظ المشتركة المستعملة فى معنييها ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

قيل . سلام ، هى أى إن الملائكة تسلم على كل مؤمن لقيته .

وقيل : سلام ، هى أى كل أمر فيها فهو سلام ، ولا يصاب أحد فيها بسوء ، وعلى كل فلا تعارض بين القولين ، فالأول جزء من الثانى ، لأن الثانى يجعلها ظرفاً لكل خير ، وينفى عنها كل شر ، ومن الخير العظيم ، سلام الملائكة على المؤمنين .

لطيفــــة

كون إنزال القرآن هنا فى الليل دون النهار ، مشعر بفضل اختصاص الليل .

وقد أشار القرآن والسنة إلى نظائره ، فمن القرآن قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) ، ومنه قوله (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) (ومن الليل فسبحه وأدبار السجود إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) . وقوله : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان ثلث الليل الآخر ، ينزل ربنا إلى سماء الدنيا » الحديث .

وهذا يدل على أن الليل أخص بالنفحات الإلهية ، وبتجليات الرب سبحانه لعباده ، وذلك لخلو القلب وانقطاع الشواغل وسكون الليل ، ورهبته أقوى على استحضار القلب وصفائه .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البينة



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البينة

قال الألوسي : وتسمى سورة القيامة ، وسورة البلد ، وسورة المنفكين ، وسورة البرية ، وسورة لم يكن .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّي تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ : رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ . وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

ذكر هنا الذين كفروا ، ثم جاءت من ، وجاء بعدها أهل الكتاب والمشركين ، مما يشعر بأن وصف الكفر يشمل كلا من أهل الكتاب والمشركين ، كما يشعر مرة أخرى أن المشركين ليسوا من أهل الكتاب لوجود العطف ، وأن أهل الكتاب ليسوا من المشركين .

وهذا المبحث معروف عند المتكلمين وعلماء التفسير ، واتفقوا

على : أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وأن المشركين هم عبدة الأوثان ، والكفر يجمع القسمين .

وأهل الكتاب مختص باليهود والنصارى ، ولكن الخلاف هل الشرك يجمعهما أيضاً أم لا ؟

فبين الفريقين عموم وخصوص ، عموم فى الكفر وخصوص فى أهل الكتاب لليهود والنصارى ، وخصوص فى المشركين لعبدة الأوثان .

ولكن جاءت آيات تدل على أن مسمى الشرك يشمل أهل الكتاب أيضاً ، كما فى قوله تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) .

فجعل مقالة كل من اليهود والنصارى إشراكا .

وجاء عن عبد الله بن عمر منع نكاح الكتابية وقال : « وهل كبر إشراكا من قولها : (اتخذ الله ولدا) » فهو وإن كان مخالفاً للجمهور فى منع الزواج من الكتابيات ، إلا أنه اعتبرهن مشركات .

ولهذا الخلاف والاحتمال وقع النزاع في مسمى الشرك ، هل يشمل أهل الكتاب أم لا ؟ مع أننا وجدنا فرقاً في الشرع في معاملة أهل الكتاب ومعاملة المشركين ، فأحل ذبائح أهل الكتاب ولم يحلها من المشركين ، وأحل نكاح الكتابيات ولم يحله من المشركات ، كما قال تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) .

وقوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) .

وقال : (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) بين ما في حق الكتابيات قال : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن) فكان بينهما مغايرة في الحكم .

وقد جمع والدنا الشيخ محمد الأمين رحمة الله تعالى علينا وعليه بين تلك النصوص في دفع إيهام الاضطراب عند قوله تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله) المتقدم . ذكرها جمعا مفصلا مفاده أن الشرك الأكبر المخرج من الملة انواع ، وأهل الكتاب متصفون ببعض دون دون بعض ، إلى آخر ما أورده رحمة الله تعالى علينا وعليه .

ولعل في نفس آية (وقالت اليهود عزير ابن الله) فيها إشارة إلى ما ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه من وجهين :

الأول : قوله تعالى : (يضاهئون قول الذين كفروا) أي

أى يشابهونهم فى مقالتهم ، وهـذا القـدر اتصف به المشركون من أنواع الشرك .

الثـانى : تذييل الآية بصيغة المضـارع عما يشركون بين ماوصفه عبدة الأوثان فى سورة البينة بالاسم والمشركين .

ومعلوم أن صيغة الفعل تدل على التجدد والحدوث ، وصيغة الاسم تدل على الدوام والثبوت ، فشركو مكة وغيرهم دائمون على الإشراك وعبادة الأصنام ، وأهل الـكتاب يقع منهم حيناً وحيناً .

وقد أخذ بعض العلماء : أن الـكفر مـلة واحدة ، فورث الجميع من بعض ، ومنع الآخرون على أساس المغايرة . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه

بقى المجوس وجاءت السنة أنهم يعاملون معـاملة أهل الـكتاب لحديث : « سنوا بهم سنة أهل الـكتاب » .

وقوله تعالى : (منفـكين حتى تأتيهم البينـة) اختلف فى منفكين اختلافاً كثيراً عند جميع المفسرين ، حتى قال الفخر الرازى عنـد أول هذه السورة مانصه : قال الواحدى فى كتاب البسيط . هـذه الآية من أصعب مافى القرآن العظيم نظماً وتفسيراً ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء .

ثم إنه رحمه الله لم يلخص كيفية الإشكال فيها .

وأنا أقول وجه الإشكال : أن تقدير الآية :(لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة) ، التي هي الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه لم يذكر أنهم منفكون عماذا لكنه معلوم ، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه .

فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة ، التي هي الرسول ، ثم قال بعد ذلك (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية تناقض في الظاهر ، هذا منتهى الإشكال فيما أظن . اهـ . حرفيا .

وقد سقت كلامه لبيان مدى الإشكال في الآيتين ، وهو مبني على أن منفكين بمعنى تاركين : وعليه جميع المفسرين .

والذي جاء عن الشيخ رحمة الله تعالى وعلينا وعليه في إملائه : أن منفكين أي مرتدعين عن الكفر والضلال ، حتى تأتيهم البينة : أي أتتهم .

ولكن فى منفكين ، وجه يرفع هذا الإشكال ، وهو أن تكون منفكين بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين ، أى لم يكونوا جميعاً متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك حتى تأتيهم البينة على معنى قوله تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) وقوله :(الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أى لن يتركوا وقريب منه قوله تعالى : (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) .

وقد حكى أبو حيان قولا عن ابن عطية قوله ، ويتجه فى معنى الآية قول ثالث بارع المعنى ، وذلك أن يكون المراد : لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم ، حتى يبعث الله تعالى إليهم رسولا منذراً ، تقوم عليهم به الحجة ، ويتم على من آمن النعمة ، فكأنه قال : ما كانوا ليتركوا سدى ، ولهذا نظائر فى كتاب الله تعالى . اهـ .

فقول ابن عطية يتفق مع ما ذكرناه ، ويزيل الإشكال الكبير عن المفسرين ، كما أسلفنا

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول فى ذلك نسوقه لشموله ،

وهو ضمن كلامه على هذه السورة فى المجموع جلد ١٦ ص ٤٩٥ قال :

وفى معنى قوله تعالى : لم يكن هؤلاء وهؤلاء منفكين . ثلاثة أقوال ذكرها غير واحد من المفسرين .

هل المراد : لم يكونوا منفكين عن الكفر ؟

أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث ،فلم يكونوا منفكين عن محمد والتصديق بنبوته حتى بعث .

أوالمراد : أنهم لم يكونوا متروكين حتى يرسل إليهم رسول .

وناقش تلك الأقوال وردها كلها ثم قال : فقوله (ولم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) أى لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم يفعلون مايهوونه لا حجر عليهم ، كما أن المنفك لا حجر عليه ، وهو لم يقل مفكوكين ، بل قال : منفكين ، وهذا أحسن ، إلى أن قال : والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون ولاترسل إليهم رسل .

والمعنى : أن الله لا يخليهم ولا يتركهم ، فهو لا يفكهم حتى يبعث

إليهم رسولا ، وهذا كقوله : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) لا يؤمر ، ولا ينهى ، أي : أيظن أن هذا يكون ؟ هذا مالا يكون البتة ، بل لا بد أن يؤمر وينهى .

وقريب من ذلك قوله تعالى (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ، أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين) وهذا استفهام إنكار أى لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ، ونعرض عن إرسال الرسل .

تبين من ذلك كله أن الأصح فى « منفكين » معنى « متروكين » وبه يزول الإشكال الذى أورده الفخر الرازى ، ويستقيم السياق ، ويتضح المعنى ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى :

(حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة) .

أجمل البينة ثم فصلها فيما بعدها (رسول من الله يتلوا صحفاً) .

وفى هذا قيل : إن البينة هى نفس الرسول فى شخصه ، لما كانوا يعرفونه قبل مجيئه ، كما فى قوله : (ومبشراً برسول يأتى من بعدى

اسمه أحمد)، وقوله : (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) .

فكأن وجوده صلى الله عليه وسلم بذاته بينة لهم .

ولذا جاء فى الآثار الصحيحة أنهم عرفوا يوم مولده بظهور نجم نبي الختان إلى آخر أخباره صلى الله عليه وسلم، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وكذلك المشركون كانوا يعرفونه عن طريق أهل الكتاب ، وبما كان متصفاً به صلى الله عليه وسلم ، ومن جميل الصفات كما قالت له خديجة عند بدء الوحى له وفزعه منه : « كلا والله لن يخزيك الله ، والله إنك لتحمل الكلّ وتعين على نوائب الدهر » إلى آخره .

وقول عمه أبي طالب : « والله ما رأيته لعب مع الصبيان ولا علمت عليه كذبة » إلخ . وقد لقبوه بالأمين .

وحادثة شق الصدر فى رضاعه ، بل وقبل ذلك فى قصة أبيه عبد الله ، لما تعرضت له المرأة تريده لنفسها ، فأبى . ولما تزوج ودخل بآمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم لقيها بعد ذلك ، فقالت له : لا حاجة لى بك ، فقال : وكيف كنت تتعرضين لى ؟ فقالت : رأيت نوراً فى وجهك ، فأحببت أن يكون بى ، فلما تزوجت وضعته فى آمنة ولم أره فيك الآن ، فلا حاجة لى فيك .

فكلها دلائل على أنه صلى الله عليه وسلم كان في شخصه بينة لهم، ثم أكرمه الله بالرسالة، فكان رسولا يتلو صحفاً مطهرة، من الأباطيل والزيغ ومالا يليق بالقرآن.

ومما استدل به لذلك قوله تعالى عنه: (وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا) فعليه يكون رسول من الله بدل من البينة مرفوع على البدلية، أو أن البينة ما يأتيهم به الرسول مما يتلوه عليهم من الصحف المطهرة فيها كتب قيمة.

فالتشريع الذى فيها والإخبار الذى أعلنه تكون البينة. وعلى كل، فإن البينة تصدق على الجميع، كما تصدق على المجموع، ولا ينفك أحدهما عن الآخر، فلا رسول إلا برسالة تتلى، ولا رسالة تتلى إلا برسول يتلوها.

وقد عرف لفظ البينة، للاشارة إلى وجود علم عنها مسبق عليها.

فكأنه قيل: حتى تأتيهم البينة الموصوفة لهم في كتبهم، ويشير إليها ما قدمنا في أخبار عيسى عليه السلام عنه، وآخر سورة الفتح

(ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه) الآية .

قوله تعالى :

(فيها كتب) .

جمع كتاب ، وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه : كتب : بمعنى مكتوبات .

وقال ابن جرير : فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة . يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء

وحكاه ابن كثير واقتصر عليه .

وقال القرطبى : إن الكتب بمعنى الأحكام ، مستدلا بمثل قوله تعالى : (كتب عليكم الصيام) وقوله (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) .

وقيل : الكتب القيمة : هى القرآن ، فجعله كتباً ، لأنه يشتمل على أبواب من البيان .

وذكر الفخر الرازى : أنه يحتمل فى كتب أى الآيات المكتوبة

فى المصحف ، وهو قريب من قول الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

وقال الشوكانى : المراد : الآيات والأحكام المكتوبة فيها ، وهذه المعانى وإن كانت صحيحة ، إلا أن ظاهر اللفظ أدل على تضمن معنى كتب منه على معنى كتابة أحكام .

والذى يظهر أن مدلول كتب على ظاهرها ، وهو تضمن تلك الصحف المطهرة لكتب سابقة قيمة ، كما ينص عليه قوله تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) ، ثم قال : (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) ، وكقوله فى عموم الكتب الأولى : (قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه) ، وقوله : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل) .

ولذا قال : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) أى بما فيه من كتبهم القيمة المتقدم إنزالها ، كما فى قوله : (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم)

وقوله : (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) .

وقال : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) ونحو ذلك من الآيات ، مما يدل على أن آى القرآن متضمنة كتباً قيمة مما أنزلت من قبل ، وقد جاء عملياً فى آية الرحمن وقوله : (وكتبنا عليهم فيها — أى فى التوراة — أن النفس بالنفس والعين بالعين) فهذه من الكتب القيمة التى تضمنها القرآن الكريم ، كما قال (ولكم فى القصاص حياة) .

ولعل هذا بين وجه المعنى فيما رواه المفسرون عن الإمام أحمد ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبى بن كعب « أمرت أن أقرأ عليك سورة البينة ، فقال : أو ذكرت ، نعم »

وبكى رضى الله عنه ، لأن فيها زيادة طمأنينة له على إيمانه بأنه آمن بكتاب تضمن الكتب القيمة المتقدمة ، والتى يعرفها عبد الله بن سلام أن الرجم فى التوراة لما غطاها الآتى بها ، كما هو معروف فى القصة . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

يلاحظ أن السورة فى أولها عن الكفار عموماً من أهل الكتاب والمشركين معاً ، وهنا الحديث عن أهل الكتاب فقط ، وذلك مما

يخصهم فى هذا المقام دون المشركين ، وهو أنهم لأنهم أهل كتاب ، وعندهم علم به صلى الله عليه وسلم ، وبما سيـأتى به ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به .

وكقوله صراحة : (وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيـاً بينهم) ، فلمعرفتهم به قبل مجيئـه ، واختلافهم فيـه بعد مجيئـه ، وخصهم هنا بالذكر فى قوله : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة) .

تنبيـــه

مما يدل على ماذكرنا من معنى كتب قيمة ، أمران من كتاب الله .

الأول منهما : اختصاص أهل الـكتاب هنا بعدم عموم الحديث عن الذين كفروا ، وما قدمنا من نصوص .

الثانى : أن القرآن لما ذكر الرسول يتلو على المشركين قال (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته) ، فهذا نفس الأسلوب ، ولـكن قال : آياته ، لأنهم لم يكن لهم علم بالـكتب الأخرى ، فاقتصر على الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ .

وهذا لا يستوجب التفرق فى أمره صلى الله عليه وسلم

ولكن هنا لم يبين موضع الأمر عليهم بعبادة الله مخلصين له الدين ، هل هو فى كتبهم السابقة ، أم فى هـذا القرآن الذى يتلى عليهم فى صحف مطهرة ؟.

وقد بيّن القرآن العظيم أن هذا الأمر موجود فى كل من كتبهم والقرآن الكريم، فما فى كتبهم قوله تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله) .

وقوله : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينـا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

فإقامة الدين وعدم التفرقة فيـه ، هو عين عبـادة الله مخلصين له الدين .

ومما فى القرآن قوله تعالى : (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا

بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) .

فقد نص على كامل المسألة هنا ، أن الكتب القيمة المنصوص عليها فى الصحف المطهرة هى كتب أهل الكتاب ، لقوله تعالى : (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم) وأنهم أمروا فى هذا القرآن بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع التعليمات المذكورة نفسها ، وإقام الصلاة لا يكون إلا عبادة الله بإخلاص

وهذه الأوامر سواء كانت فى كتبهم أو فى القرآن لا تقتضى التفرق ، بل تستوجب الاجتماع والوحدة .

قوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾

القيمة : فيعلة من القوامة ، وهى غاية الاستقامة .

وقد جاء بعد قوله : (فيها كتب قيمة) أى مستقيمة بتعاليمها .

وقد نص تعالى على أن القرآن أقومها وأعدلها كما فى قوله : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) ، وقال تعالى : (الحمد لله الذى أنزل

على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيما) فنفى عنه العوج ، وأثبت له الاستقامة .

وهذا غاية فى القوامة كما قدمنا من قبل ، من أن المستقيم قد يكون فيه انحناء كالطريق المعبد المستقيم عن المرتفعات والمنخفضات، لكنه ينحرف تارة يميناً وشمالا مع استقامته ، فهو مع الاستقامة لم يخل من العوج .

ولكن ما ينتفى عنه العوج وتثبت له الاستقامة ، هو الطريق الذى يمتد فى اتجاه واحد بدون أى اعوجاج إلى أى الجانبين ، مع استقامته فى سطحه .

وهكذا هو القرآن ، فهو الصراط المستقيم ، ولذا قال تعالى : (وذلك دين القيمة) الملة القيمة ، قيمة فى ذاتها ، وقيمة على غيرها ، ومهيمنة عليه ، وكقوله : (ذلك الدين القيم) وقوله : (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

تنبيه

إن فى هذه الآية رداً صريحاً على أولئك الذين ينادون بدون علم إلى دعوة لا تخلو من تشكيك ، حيث لم تسلم من لبس ، وهى دعوة وحدة الأديان ، ومحل اللبس فيها أن هذا القول معه حق ، ومنه باطل .

أما الحق فهو وحدة الأصول ، كما قال تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ، وأما الباطل فهو الإبهام ، بأن هذا ينجر على الفروع مع الجزم عند الجميع ، بأن فروع كل دين قد لا تتفق كلها مع فروع الدين الآخر ، فلم تتحد الصلاة فى جميع الأديان ولا الصيام ، ونحو ذلك .

وقد أجمع المسلمون على أن العبرة بما فى القرآن من تفصيل للفروع والسنة ، تكمل تفصيل ما أجمل .

وهنا النص الصريح بأن ذلك الذى جاء به القرآن هو دين القيمة ، وأن القرآن يهدى للتى هى أقوم ، وهى أفعل تفضيل ، فلا يمكن أن يعادل ويساوى مع غيره أبداً مع نصوص القرآن ، بأن الله أخذ العهد على

جميع الأنبياء لئن أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم ليؤمنن به ، ولينصرنه وليتبعنه ، وأخذ عليهم العهد بذلك . وقد أخبر الرسل أممهم بذلك . فلم يبق مجال فى هذا الوقت ولا غيره لدعوة الجاهلية بعنوان مجوف وحدة الأديان، بل الدين الإسلامى وحده (إن الدين عند الله الإسلام) ، (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

قرئت البرية بالهمزة وبالياء ، فقرأ بالهمز : نافع وابن ذكوان. والباقون بالياء ، فاختلف فى أخذها .

قال القرطبى : قال الفراء : إن أخذت البرية من البراءة بفتح الباء والراء : أى التراب . فأصله غير مهموز بقوله منه : براه الله يبروه بروًا ، أى خلقه ، وقيل : البرية من بريت القلم أى قدرته .

وقد تضمنت هذه الآية مسألتين : الأولى منهما : أن أولئك فى نار جهنم خالدين فيها ، ومبحث خلود الكفار فى النار ، تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وافياً .

والمسألة الثانية أنهم شر البرية ، والبرية أصلها البريئة ، قلبت الهمزة

ياء تسهيلا ، وأدغمت الياء فى الباء ، والبريئة الخليقة والله تعالى بارىء النسم ، هو الخالق البارى المصور سبحانه .

ومن البرية الدواب والطيور ، وهنا النص على عمومه، فأفهم أن أولئك شر من الحيوانات والدواب .

وقد جاء النص صريحاً فى هذا المعنى فى قوله تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقد بين أن المراد بهم الكفار فى قوله : (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) وقال عنهم : (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين) فهم لصممهم وعماهم فى ضلال مبين .

وقد ثبت أن الدواب ليست فى ضلال مبين ، لأنها تعلم وتؤمن بوحدانية الله ، كما جاء فى هدهد سليمان ، أنكر على بلقيس وقومها سجودهم للشمس والقمر من دون الله .

ونص مالك فى الموطأ فى فضل يوم الجمعة « أنه وما من دابة إلا تصيخ بأذنها من فجر يوم الجمعة إلى طلوع الشمس خشية الساعة » ، وهذا كله ليس عند الكافر منه شيء ، ثم فى الآخرة لما يجمع الله جميع الدواب ويقتص للجماء من القرناء ، فيقول لها : كونى ترابا ، فيتمنى الكافر لو كان مثلها فلم يحصل له ، كما قال : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا) .

وذلك والله تعالى أعلم : أن الدواب لم تعمل خيراً فتبقى لتجازى عليه ، ولم تعمل شراً لتعاقب عليه فكانت لا لها ولا عليها إلا ما كان فيما بينها وبين بعضها ، فلما اقتص لها من بعضها انتهى أمرها ، فكانت نهايتها عودتها إلى منبتها وهو التراب . بخلاف الكافر فإن عليه حساب التكاليف وعقاب المخالفة . فيعاقب بالخلود في النار ، فكان شر البرية .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ .

الحكم هنا بالعموم ، كالحكم هناك . ولكنه هنا بالخيرية والتفضيل .

أما من حيث الجنس فلا إشكال ، لأن الإنسان أفضل الأجناس (ولقد كرمنا بنى آدم) .

وأما من حيث العموم ، فقال بعض العلماء فيها ما يدل على صالح المؤمنين أفضل من الملائكة .

ولعل مما يقوى هذا الاستدلال ، هو أن بعض أفراد جنس الإنسان

أفضل من عموم أفراد جنس الملائكة ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا فضل بعض أفراد الجنس لا يمنع فى البعض الآخر ولكن هل بعض أفراد الأمة بعده أفضل من عموم أو بعض أفراد الملائكة ؟ هذا هو محل الخلاف .

وللقرطبي مبحث فى ذلك : مبناه على أصل المادة وورود النصوص من جهة أصل المادة إن كانت البرية مأخوذة من البرى وهو التراب ، فلا تدخل الملائكة تحت هذا التفضيل وإلا فتدخل .

وأما من جهة النصوص ، فقال فى سورة البقرة عند قوله : (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم) ، قال المسألة الثالثة : اختلف العلماء فى هذا الباب أيهما أفضل ، الملائكة أو بنو آدم ؟ على قولين ، فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة .

وذهب آخرون - إلى أن الملأ الأعلى أفضل ، واحتج من فضل الملائكة بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وقوله : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك) .

وبما فى البخارى : « يقول الله : من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى

فى ملإٍ خير منه » وهذا نص على أن الملأ الأعلى خير من ملا الأرض

واحتج من فضل بنى آدم بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريئة)بالهمز من برأ الله الخلق ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الملائـكة لتضع أجنحتها رضًى لطالب العلم » أخرجه أبو داود .

وبأن الله يباهى بأهل عرفات الملائـكة ، ولا يباهى إلا بالأفضل والله تعالى أعلم .

وقال بعض العلماء : ولا طريق إلى القطع بأن الملائكة خيرمنهم ، لأن طريق ذلك خبر الله ، وخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،أو إجماع الأمة .

وليس هاهنا شيء من ذلك خلافاً للقدرية والقاضى أبى بكر ، حيث قالوا : الملائـكة أفضل . قال : وأما من قال من أصحابنا والشيعة : إن الأنبياء أفضل ، لأن الله تعالى أمر الملائـكة بالسجود لآدم، إلى آخره .

ثم رد هذا الاستدلال .

وقد سقنا هذا البحث لبيان الخلاف فى هذه المسألة المشتمل عليها

لفظ البرية ، وأعتقد أن المفاضلة جزئية لا كلية ، وذلك أن جنس البشر خلاف جنس الملائكة ، والملائكة فيهم النص بأنهم(عباد مكرمون) والبشر فيهم النص (ولقد كرمنا بنى آدم) ، والفرق بينهما ، كالفرق بين الاسم والفعل فى الدلالة .

فنى الملائكة بالاسم: مكرمون ، وهو يدل على الدوام والثبوت ، وفى بنى آدم كرمنا ، وهو يدل على التجدد والحدوث .

وهذا هو الواقع ، فالتكريم ثابت ولازم ودائم للملائكة بخلافه فى بنى آدم إذ فيهم وفيهم ، ولا يبعد أن يقال : إن التفضيل فى الأعمال من حيث صدورها من بنى آدم ومن الملائكة ، إذ الملائكة تصدر عنها أعمال الخير جبلة أو بدون نوازع شر ، بخلاف بنى آدم ، وإن أعمال الخير تصدر عنها بمجهود مزدوج ، حيث ركبت فيه النفس اللوامة والأمارة بالسوء . ونحو ذلك من الجانب الحيوانى .

وازدواجية المجهود ، هو أنه ينازع عوامل الشر حتى يتغلب عليها ، ويبذل الجهد فى فعل الخير ، فهو يجاهد للتخليص من نوازع الشر ، ثم هو يجاهد للقيام بفعل الخير ، وهذا مجهود يقتضى التفضيل على المجهود من جانب واحد .

وقد جاء فى السنة ما يشهد لذلك ، لما ذكر صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أن يأتى بعدهم من أن العامل منهم له أجر خمسين ، فقالوا:

خمسين منا أو منهم يا رسول الله ! قال : بل خمسين منكم ، لأنكم تجدون أعوانًا على الخير وهم لا يجدون » .

وحديث « سبق درهم مائة ألف درهم » وبيّن صلى الله عليه وسلم ، أن الدرهم سبق الأضعاف المضاعفة ، لأنه ثانى اثنين فقط ، والمائة ألف جزء من مجموع كثير .

فالنفس التى تجود بنصف ما تملك ، ولا يتبقى لها إلا درهم ، خير بكثير فمن تنفق جزءًا ضئيلا مما تملك ويتبقى لها المال الكثير ، فكانت عوامل التصدق ودوافعه مختلفة منزلة فى النفس متضادة . فالدرهم فى ذاته وماهيته من جنس الدراهم الأخرى ، لم تتفاوت الماهية ولا الجنس ، ولكن تفاوتت الدوافع والعوامل لإنفاقه ، ولعل المفاضلة المقصودة تكون من هذ القبيل أولى . والله تعالى أع

قوله تعالى ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ .

فيه أربع مسائل . ثلاثة مجملة جاء بيانها فى القرآن . والرابعة مفصّلة ولها شواهد.

أما الثلاثة المجملة فأولها قوله : (جزاؤهم عند ربهم) إذ

الجزاء فى مقابل شىء يستوجبه ، وعند ربهم تشعر بأنه تفضل منه ، وإلا لقال : جزاؤهم على ربهم .

وقد بين ذلك صريح قوله تعالى : (إن المتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأساً دهاقا لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا جزاء من ربك عطاء حسابا) فنص على أن هذا الجزاء كله من ربهم عطاء لهم من عنده .

الثانية والثالثة قوله : (جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار) فأجمل مافى الجنات ، ونص على أنها تجرى من تحتها الأنهار ، مع إجمال تلك الأنهار ، وقد فصلت آية (عم يتساءلون) ما أعد لهم فى الجنة من حدائق وأعناب وكواعب وشراب وطمأنينة ، وعدم سماع اللغو إلى آخره كما جاء تفصيل الأنهار فى سورة القتال ، فى قوله تعالى : (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) ، والخلود فى هذا النعيم هو تمام النعيم .

قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

يعتبر هذا الإخبار من حيث رضوان الله تعالى على العباد فى الجنة ، من باب العام بعد الخاص .

وقد تقدم فى سورة الليل فى قوله تعالى : (وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى — إلى قوله — ولسوف يرضى) واتفقوا على أنها فى الصديق رضى الله عنه كما تقدم ، وجاء فى التى بعدها سورة والضحى قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أى للرسول صلى الله عليه وسلم .

وهنا فى عموم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) فهى عامة فى جميع المؤمنين الذين هذه صفاتهم ، ثم قال رضى الله عنهم ، وقد جاء ما يبين سبب رضوان الله تعالى عليهم وهو سبب أعمالهم ، كما فى قوله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) فكانت المبايعة سبباً للرضوان .

وفى هذه الآية الإخبار بأن الله رضى عنهم ورضوا عنه ، ولم يبين زمن هذا الرضوان أهو سابق فى الدنيا أم حاصل فى الجنة ، وقد جاءت آية تبين أنه سابق فى الدنيا ، وهى قوله تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا

ذلك الفوز العظيم) فقوله تعالى : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) ، ثم يأتى بعدها (وأعد لهم جنات).

فهو فى قوة الوعد فى المستقبل ، فيكون الإخبار بالرضى مسبقاً عليه .

وكذلك آية سورة الفتح فى البيعة تحت الشجرة إذ فيها (لقد رضى الله عن المؤمنين) وهو إخبار بصيغة الماضى ، وقد سميت « بيعة الرضوان » .

تنبيه

فى هذا الأسلوب الكريم سؤال ، وهو أن العبد حقاً فى حاجة إلى أن يعلم رضوان الله تعالى عليه ، لأنه غاية أمانيه ، كما قال تعالى : (ذلك الفوز العظيم)

أما الإخبار عن رضى العبد عن الله ، فهل من حق العبد أن يسأل عما إذا كان هو راضياً عن الله أم لا ؟ إنه ليس من حقه ذلك فعلا ، فيكون الإخبار عن ذلك بلازم الفائدة ، وهى أنهم فى غاية من السعادة والرضى فيما هم فيه من النعيم إلى الحد الذى

رضوا وتجاوزا رضاهم حد النعيم إلى الرضى عن المنعم .

كما يشير إلى شيء من ذلك آخر آية والنازعات (عطاء حسابا) ، قالوا : إنهم يعطون حتى يقولوا : حسبي حسبي ، أي كافيني .

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

اسم الإشارة منصب على مجموع الجزاء المتقدم ، وقد تقدم أنه للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهنا يقول : إنه لمن خشي ربه ، مما يفيد أن تلك الأعمال تصدر منهم عن رغبة ورهبة .

رغبة فيما عند الله ، ورهبة من الله ، ومثله قوله تعا (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، وقوله : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) .

والواقع أن صفة الخوف من الله تعالى ، هي أجمع صفات الخير في الإنسان ، لأنها صفة للملائكة المقربين .

كما قال تعالى عنهم (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقد عم الحكم فى ذلك بقوله تعالى : (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) .

وفى هذه الآية السر الأعظم ، وهو كون الخشية فى الغيبة عن الناس ، وهذا أعلى مراتب المراقبة لله ، والخشية أشد الخوف .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الزلزلة



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا . يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

الزلزلة : الحركة الشديدة بسرعة ، ويدل لذلك فقه اللغة من وجهين :

الأول : تكرار الحروف ، أو ما يقال تكرار المقطع الواحد ، مثل صلصل وقلقل وزقزق ، فهذا التكرار يدل على الحركة .

والثاني : وزن فعّل بالتضعيف كغلق وكسر وفتح ، فقد اجتمع في هذه الكلمة تكرار المقطع وتضعيف الوزن .

ولذا ، فإن الزلزال أشد ما شهد العالم من حركة ، وقد شوهدت حركات زلزال في أقل من ربع الثانية ، فدمر مدناً وحطم قصوراً .

ولذا فقد جاء وصف هذا الزلزال بكونه شيئاً عظيما في قوله تعالى : (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) ويدل على هذه الشدة تكرار

الـكلمة فى زلزلت وفى زلزالها ، كما تشعر به هذه الإضافة .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إيراد النصوص المبينة لذلك فى أول سورة الحج كقوله تعالى : (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ، وقوله : (إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً) ، وقوله : (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) وساق قوله : (وأخرجت الأرض أثقالها) .

واختلف فى الأثقال ما هى على ثلاثة أقوال :

فقيل : موتاها . وقيل : كنوزها ، وقيل : التحدث بما عمل عليها الإنسان . ولعل الأول أرجح هـذه الثلاثة ، لأن إخراج كنوزها سيكون قبل النفخة ، والتحدث بالأعمال منصوص عليه بذاته ، فليس هو الأثقال . ورجحوا القول الأول لقوله تعالى : (ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا) .

وقالوا : الإنس والجن ثقلان على ظهرها ، فهما ثقل عليها ، وفى بطنها فهم ثقل فيها ، ولذا سميا بالثقلين . قاله الفخر الرازى وابن جرير .

وروى عن ابن عباس : أنه موتاها .

وشبيه بذلك قوله : (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت)

ولا يبعد أن يكون الجميع إذا راعينا صيغة الجمع أثقالها ، ولم يقل ثقلها وإرادة الجميع مروية أيضاً عن ابن عباس . ذكره الألوسي ، وابن جرير عنه وعن مجاهد .

وحكى الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القولين فى إملائه : أى موتاها ، وقيل : كنوزها وقوله تعالى : (وقال الإنسان مالها) لفظ الإنسان هنا عام . وظاهره أن كل إنسان يقول ذلك ، ولكن جاء ما يدل على أن الذى يقول ذلك هو الكافر . أما المؤمن فيقول : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلين) ، وذلك فى قوله : (ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

فالكافر يدعو بالويل والمؤمن يطمئن للوعد ، ومما يدل على أن الجواب من المؤمنين ، لا من الملائكة ، كما يقول بعض الناس ، ما جاء فى آخر السياق قوله : (فإذا هم جميع - أى كلا الفريقين - لدينا محضرون) .

وقوله ، (مالها) سؤال استيضاح ، وذهول من هول مايشاهد . وقوله : (يومئذ تحدث أخبارها) التحديث هنا صريح فى الحديث وهو على حقيقته ، لأن فى ذلك اليوم تتغير أوضاع كل شىء وتظهر

حقائق كل شيء ، وكما أنطق الله الجلود ينطق الأرض ، فتحدث بأخبارها ، (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء) ، وتقدم تفصيل ذلك عند أول سورة الحشر ، لأن الله أودع فى الجمادات القدرة على الإدراك والنطق . والمراد بإخبارها أنها تخبر عن أعمال كل إنسان عليها فى حال حياته .

ومما يشهد لهذا المعنى حديث المؤذن « لا يسمع صوته حجر ولا مدر إلا وشهد له يوم القيامة » ، وذكر ابن جرير وجها آخر ، وهو أن إخبارها هو ما أخرجته من أثقالها بوحى الله لها والأول أظهر ، لأنه يثبت معنى جديداً . ويشهد له الحديث الصحيح .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

فى هاتين الآيتين مبحثان أحدهما فى معنى من لعمومه ، والآخر فى صيغة يعمل .

أما الأول فهو مطروق فى جميع كتب التفسير على حد قولهم : من للعموم المسلم والكافر ، مع أن الكافر لا يرى من عمل الخير شيئاً ، لقوله تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً)

وفى حق المسلم، قد لا يرى كل ما عمل من شر، لقوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة بتوسع فى دفع إيهام الاضطراب بما يغنى عن إيراده .

أما المبحث الثانى فلم أر من تناوله بالبحث، وهو فى صيغة يعمل، لأنها صيغة مضارع، وهى للحال والاستقبال .

والمقام فى هذا السياق (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) وهو يوم البعث، وليس هناك مجال للعمل، وكان مقتضى السياق أن يقال : فمن عمل مثقال ذرة خيرا يره . ولكن الصيغة هنا صيغة مضارع، والمقام ليس مقام عمل، ولكن فى السياق ما يدل على أن المراد يعمل مثقال ذرة أى من الصنفين ما كان من قبل ذلك، لقوله تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم) فهم إنما يروا فى ذلك اليوم أعمالهم التى عملوها من قبل، فتكون صيغة المضارع هنا من باب الالتفات، حيث كان السياق أولا من أول السورة فى معرض الإخبار عن المستقبل : إذا زلزلت الأرض زلزالها، وإذا أخرجت الأرض أثقالها، وإذا قال الإنسان مالها . فى ذلك اليوم الآتى تحدث أخبارها، وفى ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم التى

عملوها من قبل كما فى قوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، وقوله : (ووجدوا ما عملوا حاضراً).

ثم جاء الالتفات بمخاطبتهم على سبيل التنبيه والتحذير ، فمن يعمل الآن فى الدنيا مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل الآن فى الدنيا مثقال ذرة شراً يره فى الآخرة ، ومثقال الذرة ، قيل : هى النملة الصغيرة ، لقول الشاعر :

من القاصرات الطرف لو دب محول   من الذر فوق الإتب منها لأثرا

والإتب : قال فى القاموس : الإتب بالكسر ، والمئتبة كمكنسة برد يشق ، فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين ، وقيل : هى الهباء التى ترى فى أشعة الشمس ، وكلاهما مروى عن ابن عباس رضى الله عنه .

وسيأتى زيادة إيضاح لكيفية الوزن فى سورة القارعة إن شاء الله .

ولعل ذكر الذرة هنا على سبيل المثال لمعرفتهم لصغرها ، لأنه تعالى عمم العمل فى قوله : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) أياً كان هو مثقال ذرة أو مثاقيل القناطير ، وقد جاء النص صريحاً بذلك فى قوله تعالى : (وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) .

وهنا تنبيهان : الأول من ناحية الأصول ، وهو أن النص على

مثقال الذرة من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فلا يمنع رؤية مثاقيل الجبال ، بل هى أولى وأحرى .

وهذا عند الأصوليين ما يسمى الإلحاق بنفى الفارق ، وقد يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به ، وقد يكون مساوياً له . فمن الأول هذه الآية وقوله : (فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما) ، ومن المساوى قوله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) فإن إحراق ماله وإغراقه ملحق بأكله، بنفى الفارق وهو مساوٍ لأكله فى عموم الإتلاف عليه ، وهو عند الشافعى ما يسمى القياس فى معنى الأصل ، أى النص .

التنبيه الثانى فى قوله تعالى : (وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك) .

رد على بعض المتكلمين فى العصر الحاضر ، والمسمى بعصر الذرة ، إذ قالوا : لقد اعتبر القرآن الذرة أصغر شىء ، وأنها لا تقبل التقسيم ، كما يقول المناطقة : إنها الجوهر الفرد ، الذى لا يقبل الانقسام .

وجاء العلم الحديث، ففتت الذرة وجعل لها أجزاء . ووجه الرد على تلك المقالة الجديدة ، على آيات من كتاب الله هو النص

الصريح من مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك إلا فى كتاب .

فمعلوم ذلك عند الله ومثبت فى كتاب ما هو أصغر من الذرة ، ولا حد لهذا الأصغر بأى نسبة كانت ، فهو شامل لتفجير الذرة ولأجزائها مهما صغرت تلك الأجزاء .

سبحانك ما أعظم شأنك ، وأعظم كتابك ، وصدق الله إذ يقول : (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا . فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا
فَٱلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه :

العاديات : جمع عادية ، والعاديات : المسرعات فى سيرها

فمعنى العاديات : أقسم بالمسرعات فى سيرها .

ثم قال : وأكثر العلماء على أن المراد به الخيل ، تعدو فى الغزو ،
والقصد تعظيم شأن الجهاد فى سبيل الله

وقال بعض العلماء : المراد بالعاديات : الإبل تعدو بالحجيج من
عرفات إلى مزدلفة ومِنًى .

ومعنى قوله : ضبحاً : أنها تضبح ضبحاً ، فهو مفعول مطلق ،
والضبح : صوت أجواف الخيل عند جريها .

وهذا يؤيد القول الأول الذى يقول هى الإبل ، ولا يختص الضبح
بالخيل

فالموريات قدحاً : أى الخيل تورى النار بحوافرها من الحجارة ، إذا سارت ليلا .

وكذلك الذى قال : العاديات : الإبل . قال : برفعها الحجارة فيضرب بعضها بعضاً .

ويدل لهذا المعنى قول الشاعر

تنفى يداها الحصا فى كل هاجرة نفى الدراهم تنقاد الصياريف

فالمغيرات صبحا ، الخيل تغير على العدو وقت الصبح .

وعلى القول الأول : فالإبل تغير بالحجاج صبحاً من مزدلفة إلى منى يوم النحر .

فأثرن به نقعاً : أى غباراً . قال به . اى : بالصبح أو به . أى بالعدو .

والمفهوم من العاديات : توسطن به جمعاً ، أى دخلن فى وسط جمع أى خلق كثير من الكفار .

ونظير هذا المعنى قول بشر بن أبى حازم :

فوسن جمعهم وأفلت حاجب تحت العجاجة فى الغبار الأقتم

وعلى القول الثانى الذى يقول : العاديات الإبل تحمل ، الحجيج .

فمنى قوله : (فوسطن به جمعا) أى صرن بسبب ذلك العدو ، وسط جمع . وهى المزدلفة ، وجمع اسم من أسماء المزدلفة

ويدل لهذا المعنى قول صفية بنت عبد المطلب ، عمة النبى صلى الله عليه وسلم وأم الزبير بن العوام رضى الله عنهما :

فلا والعاديات مغيرات جمع بأيدها إذا سطع الغبار

وهذا الذى ساقه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قد جمع أقوال جميع المفسرين فى هذه الآيات ، وقد سقته بحروفه لبيانه للمعنى كاملا .

ولكن مما قدمه رحمة الله تعالى علينا وعليه أن من أنواع البيان فى الأضواء : أنه إذا اختلف علماء التفسير فى معنى وفى الآية قرينة . ترد أحد القولين أو تؤيد أحدهما فإنه يشير إليه .

وقد وجد اختلاف المفسرين فى هذه الآيات فى نقطة أساسية من هذه الآيات مع اتفاقهم فى الألفاظ ، ومعانيها . والأسلوب وتراكيبه .

ونقطة الخلاف هى معنى الجمع الذى توسطن به ، أهو المزدلفة لأن

من أسمائها جمعاً كما فى الحديث : « وقفت ها هنا وجمع كلها موقف » وهذا مروى عن على رضى الله عنه ، فى نقاش بينه وبين ابن عباس . ساقه ابن جرير

أم الجمع جمع الجيش فى القتال على ما تقدم ، وهو قول ابن عباس وغيره . حكاه ابن جرير وغيره .

وقد وجدنا قرائن عديدة فى الآية تمنع من إرادة المزدلفة بمعنى جمع ، وهى كالآتى : أولا وصف الخيل أو الإبل على حد سواء بالعاديات ، حتى حد الضبح وورى النـار بالحوافر وبالحصا ، لأنها أوصاف تدل على الجرى السريع .

ومعلوم أن الإفاضة عن عرفات ثم من المزدلفة لا تحتمل هذا العدو ، وليس هو فيها بمحمود ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينادى « السكينة السكينة » فلو وجد لمـا كان موضع تعظيم وتفخيم .

ثانياً : أن المشهور أن إثارة النقع من لوازم الحرب ، كما قال بشـار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أى : لشدة الـكر والفر .

ثالثاً : قوله تعالى : (فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعاً) جاء مرتباً بالفاء ، وهى تدل على الترتيب والتعقيب .

وقد تقدم المغيرات صبحاً ، وبعدها فوسطن به جمعاً .

وجمع هى المزدلفة ، وإنما يؤتى إليها ليلا . فكيف يقرن صبحاً ، ويتوطنَّ المزدلفة ليلا .

وعلى ما حكاه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أنهم يغيرون صبحاً من المزدلفة إلى منى ، تكون تلك الإغارة صبحاً بعد التوسط بجمع ، والسياق يؤخرها عن الإغارة ولم يقدمها عليها .

فتبين بذلك أن إرادة المزدلفة غير متأتية فى هذا السياق .

ويبقى القول الآخر وهو الأصح . والله تعالى أعلم .

ولو رجعنا إلى نظرية ترابط السور لكان فيها ترشيحاً لهذا المعنى ، وهو أنه فى السورة السابقة ، ذكرت الزلزلة وصدور الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم .

وهنا حث على أفضل الأعمال التى تورث الحياة الأبدية والسعادة الدائمة فى صورة مماثلة ، وهى عدوهم أشتاتاً فى سبيل الله لتحصيل ذلك

العمل الذى يحبون رؤيته فى ذلك الوقت ، وهو نصرة دين الله أو الشهادة فى سبيل الله ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : (إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير لشديد) .

هذا الجواب قال القرطبى : الكنود : الكفور الجحود لنعم الله ، وهو قول ابن عباس .

وقال الحسن : يذكر المصائب وينسى النعم ، أخذه الشاعر فنظمه :

يا أيها الظالم فى فعله والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

وروى أبو أمامة الباهلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكنود هو الذى يأكل وحده ، ويمنع رفده ، ويضرب عبده » .

وروى ابن عباس قال : « ألا أبشركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من نزل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده »

خرجهما الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول .

وروى ابن عباس أيضاً أنه قال : « الكنود بلسان كندة : العاصى ، وبلسان ربيعة ومضر : الكفور ، وبلسان كنانة : البخيل السيء الملكة » .

وقال مقاتل . وقال الشا

كنود لنعماء الرجال ومن يكن   كنوداً لنعماء الرجال يبعد

أى كفور .

ثم قيل : هو الذى يكفر اليسير ، ولا يشكر الكثير .

وقيل : الجاحد للحق .

وقيل : سميت كندة كندة ، لأنها جحدت أباها .

وقال إبراهيم بن هرمة الشاعر :

دع البخلاء إن شمخوا وصدوا   وذكرى بخل ثمانية كنود

فى نقول كثيرة وشواهد .

ومنها : الكنود الذى ينفق نعم الله فى معصية الله .

وعن ذى النون : الهلوع والكنود : هو الذى إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعا .

وقيل : الحسود الحقود .

ثم قال القرطبي رحمه الله في آخر البحث :

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بخصال مذمومة، وأحوال غير محمودة ، فإن صح فهو أعلى ما يقال ، ولا يبقى لأحد معه مقال . اهـ .

وهكذا كما قال : إن صح الأثر فلا قول لأحد ، ولكن كل هذه الصفات من باب اختلاف التنوع ، لأنها داخلة ضمن معنى الجحود للحق أو للنعم .

وقد استدل ذو النون المصري بالآية الكريمة ، وهي مفسرة للكنود على المعاني المتقدمة بأنه هو الهلوع (إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) .

ومثلها قوله : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن)

وقد عقب عليه هناك بمثل ما عقب عليه هنا .

فهناك قال تعالى : (كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لماً . وتحبون المال حباً جماً) .

وهنا عقب عليه بقوله : وإنه لحب الخير لشديد) والله تعالى أعلم .

وقوله : إن الإنسان عام فى كل إنسان ، ومعلوم أن بعض الإنسان ليس كذلك ، كما قال تعالى : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) مما يدل على أنه من العام المخصوص .

وأن هذه الصفات من طبيعة الإنسان إلا ما هذبه الشرع ، كما قال تعالى : (وأحضرت الأنفس الشح) .

وقوله : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) .

ونص الشيخ فى إملائه أن المراد به الكافر .

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .

اختلف فى مرجع الضمير فى : وإنه ، فقيل : راجع للانسان ، ورجحه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب ، مستدلا بقوله تعالى بعده (وإنه لحب الخير لشديد) .

وقيل : راجع إلى رب الإنسان .

واختار هذا القرطبي وقدمه .

وجميع المفسرين يذكرون الخلاف ، وقد عرفت الراجح منها، وعليه ، فعلى أنه راجع لرب الإنسان فلا إشكال فى الآية ، وعلى أنه راجع للانسان ففيه إشكال أورده الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى دفع إيهام الاضطراب وأجاب عليه .

وهو أنه جاءت نصوص تدل على أنه ينكر ذلك ، وأنه كان يحب أنه يحسن صنعاً ، ونحو ذلك .

ومن الجواب عليه : أن شهادته بلسان الحال .

وقد أورد بعض المفسرين شهادتهم بلسان المقال فى قوله تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) إلا أن هذه الشهادة بالكفر هى الشرك . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .

الخير عام ، كما تقدم فى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) .

ولكنه هنا خاص بالمال ، فهو من العام الذى أريد به الخاص.

من قصر العام على بعض أفراده ، لأن المال فرد من أفراد الخير ، كقوله تعالى : (إن ترك خيراً) أى مالا ، لأن عمل الخير يصحبه معه ولا يتركه .

وفى معنى هذا وجهان : الأول وإنه لحب الخير أى بسبب حبه الخير لشديد بخيل ، شديد البخل .

كما قيل :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى

عقيلة مال الفاحش المتشدد

أى شديد البخل على هذه الرواية من هذا البيت .

والوجه الثانى : وإنه لشديد حب المال . قالهما ابن كثير .

وقال : كلاهما صحيح، والواقع أن الثانى يتضمن الأول .

ويشهد للوجه الثانى ، قوله تعالى : (وتأكلون التراث أكلا لماً وتحبون المال حباً جماً) .

وقلنا : إن الثانى يتضمن الأول ، لأن من أحب المال حباً جماً سيحمله حبه على البخل .

وفى هذا النص مذمة حب المال وهو جبلة فى الإنسان ، إلا من

هذّبه الإسلام ، إلا أن الذم ينصب على شدة الحب التى تحمل صاحبها على ضياع الحقوق أو تعدى الحدود .

وهذه الآية وما قبلها نازلة فى الكفار كما قدمنا كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى إملائه .

قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ .

البعثرة : الإنتشار .

وقال الزمخشرى : إن هذه الكلمة مأخوذة من أصلين : البعث والنثر .

فالبعث : خروجهم أحياء .

والنثر : الانتشار كنثر الحب . فهى تدل على بعثهم منتشرين .

وقد نص تعالى على هذا المعنى فى قوله : (وإذا القبور بعثرت) أى بعثر من فيها .

وقوله (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً) .

وقوله : (كأنهم جراد منتشر) .

وقوله : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) .

قوله تعالى ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾

قيل : حصل أى أبرز . قاله ابن عباس .

وقيل ميز الخير من الشر .

والحاصل من كل شيء ما بقى .

قال لبيد :

وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمراد بما فى الصدور الأعمال ، وهذا كقوله : (يوم تبلى السرائر) .

ونص على الصدور هنا ، مع أن المراد القلوب ، لأنها هى مناط العمل ومعقد النية .

والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها على النية ، كما فى حديث « إنما الأعمال بالنيات » وحديث « ألا إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله » الحديث

وقال الفخر الرازى : خصص القلب بالذكر ، لأنه محل لأصول الأعمال .

ولذا ذكره فى معرض الذم ، فإنه (آثم قلبه) ، وفى معرض المدح (وجلت قلوبهم).

ويشهد لما قاله قوله : (إلا من أتى الله بقلب سليم) .

وقوله : (ثم قست قلوبكم) .

وقال : (ثم تلين جلودهم وقلوبهم) .

وقوله : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ونحو ذلك .

ومما يدل على أن المراد بالصدور ما فيها هو القلب .

قوله : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

وقال الفخر الرازى : نص على الصدور ليشمل الخير والشر ، لأن القلب محل الإيمان .

والصدر محل الوسوسة لقوله تعالى : (الذى يوسوس فى صدور الناس) .

وهذا وإن كان وجيهاً ، إلا أن محل الوسوسة أيضاً هو القلب ، فيرجع إلى المعنى الأول . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ .

ذكر الظرف هنا يشعر بقصر الوصف عليه مع أنه سبحانه خبير بهم في كل ، وقت في ذلك اليوم ، وقبل ذلك اليوم ، ولكنه في ذلك اليوم يظهر ما كان خفياً ، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، وهو سبحانه لا يخفى عليه خافية.

ولكن ذكر الظرف هنا للتحذير مع الوصف بخبير ، أخص من عليم ، كما في قوله : (قال نبأني العليم الخبير) .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القارعة



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى أول سورة الواقعة ، وقال : كالطامة والصاخة ، والآزفة ، والقارعة . ا هـ . أى وكذلك الصاخة والساعة

ومعلوم أن الشيء إذا عظم خطره كثرت أسماؤه .

أو كما روى عن الإمام على : كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى .

ومعلوم أن ذلك ليس من المترادفات ، فإن لكل اسم دلالة على معنى خاص به .

فالواقعة لصدق وقوعها ، والحاقة لتحقق وقوعها ، والطامة لأنها تطم وتعم بأحوالها ، والآزفة من قرب وقوعها أزفة الآزفة مثل اقتربت الساعة ، وهكذا هنا .

قالوا : القارعة : من قرع الصوت الشديد لشدة أهوالها .

وقيل : القارعة اسم للشدة .

قال القرطبي : تقول العرب : قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة ، إذا وقع بهم أمر فظيع .

قال ابن جرير :

وقارعة من الأيام لولا سبيلهم لزاحت عنك حينا

وقال تعالى : (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) وهى الشديدة من شدائد الدهر .

وقوله (وما أدراك ما القارعة) تقدم قولهم : إن كل ما جاء وما أدراك أنه يدريه وما جاء وما يدريك لا يدريه .

وقد أدراه هنا بقوله : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش) ، وهذا حال من أحوالها .

وقد بيّن بعض الأحوال الأخرى فى الواقعة بأنها خافضة رافعة ، وفى الطامة والصاخة : ينظر المرء ما قدمت يداه .

وقوله : (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه) .

وأيضاً فإن كل حالة يذكر معها الحال الذى يناسبها ، فالقارعة من القرع وهو الضرب ، ناسب أن يذكر معها ما يوهن قوى

الإنسان إلى ضعف الفراش المبثوث ، ويفكك ترابط الجبال إلى هباء العهن المنفوش .

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ .

الفراش : جمع فراشة .

وقيل : هى التى تطير وتتهافت فى النار .

وقيل : طير رقيق يقصد النار ولا تزال يتقحم على المصباح ونحوه حتى يحترق .

و ذكر الشيخ فى إملائه قول جرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلى

وقال الفراء : هو غوغاء الجراد الذى ينتشر فى الأرض ويركب بعضه بعضاً من الهول .

ونقل القرطبى عن الفراء : أنه الهمج الطائر من بعوض وغيره

ومنه الجراد . ويقال : هو أطيش من فراشة قال :

طويش من نفر أطياش أطيش من طائرة الفراش

وفى صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش

يقعن فيها ، وهو يزيدهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى » .

والمبثوث : المنتشر .

ومثله قوله : (يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم جراد منتشر) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيانه فى « سورة اقتربت الساعة » ، سورة ق والقرآن ، وسورة يس والقرآن الحكيم . بما يغنى عن إعادته هنا .

وقد قيل : إن وصفها بالفراش فى أول حالها فى الاضطراب والحيرة .

ووصفهم كالجرد فى الكثرة ووحدة الاتجاه (مهطعين إلى الداع) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورة الواقعة بيان أحوال الجبال يوم القيامة من بدئها بكثيب مهيل ، ثم كالعهن المنفوش ، ثم تسير كالسراب .

وأحال فيها على غيرها ، كقوله : (تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) .

وتقدمت الإشارة إلى ذلك فى سورة سأل سائل .

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ . فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ .

فى قوله : (ثقلت موازينه) دلالة على وقوع الوزن لـكل إنسان .

والموازين : يراد بها الموزون ، ويراد بها آلة الوزن ، كالمعايير ، وهما متلازمان .

وتقدم أن المعايير بالذرة وأقل منها .

وقد جاء نصوص على وضع الموازين وإقامتها بالعدل والقسط .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

وقوله : (فهو فى عيشة راضية) قالوا : بمعنى مرضية ، وراضية أصلها مرضية ، كما فى قوله : (وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية) ، إسناد الرضى للعيشة ، على أنها هى فاعلة الرضى ، لأن كلمة العيشة جامعة لنعيم الجنة وأسباب النعيم ، راضية طائعة لينة لأصحاب الجنة، فتتفجر لهم الأنهار طواعية ، وتدنو الثمار طواعية ، كما فى قوله : (قطوفها دانية) .

فالقول الأول : هو المعروف في البلاغة بإطلاق المحل وإرادة الحال ، كقوله تعالى (فليدع ناديه) .

والنادي : مكان منتدى القوم ، أي ينادي بعضهم بعضاً للاجتماع فيه .

والمراد : من يحل في هذا النادي ، ويكون هنا أطلق المحل وهو محل العيشة ، وأراد الحال فيها .

وعلى الثاني : فهو إسناد حقيقي من إسناد الرضى لمن وقع منه أو قام به ؛ ومما هو جدير بالذكر أن حمله على الأسلوب البياني ليس متجهاً كالآية الأخرى ، لأن العيشة ليست محلا لغيرها بل هي حالة ، والمحل الحقيقي هو الجنة والعيشة حالة فيها ، وهي اسم لمعاني النعيم كما تقدم ، فيكون حمل الإسناد على الحقيقة أصح .

وقد جاءت الأحاديث : أن الجنة تحس بأهلها وتفرح بعمل الخير ، كما أنها تتزين وتبتهج في رمضان ، وأنها تناظرت مع النار وكل يدلي بأهله وفرحه بهم ، حتى وعد الله كلا بملئها .

ونصوص تلقي الحور والولدان والملائكة في الجنة لأهل الجنة بالرضى والتحية معلومة .

وقوله : (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) أى لا يتأخر عنهم شيء .

وقوله : (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) .

وقوله : (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) وقاصرات الطرف عن رضى بأهلهن . ومثله (حور مقصورات فى الخيام) أى على أزواجهن .

وقوله : (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) ونحو ذلك ، مما يشعر بأن نعيم الجنة بنفسه راض بأهل الجنة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

وقع الخلاف فى المراد من قوله (فأمه هاوية) هل المراد بأمه مأواه وهى النار ، وأن هاوية من أسمائها ، أم المراد بأمه رأسه وأن هاوية من الهوى ، فيلقى فى النار منكساً رأسه يهوى فى النار .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ذلك فى دفع إيهام الاضطراب ، ولا يبعد من يقول إنه لا تعارض بين القولين .

فتكون أمه هاويه ، وهى النار ويلقى فيها منكساً تهوى رأسه والعياذ بالله .

وحكى القرطبي على أن الأم بمعنى قول لبيد :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

وعلى ومعنى الهاوية البعيدة والداهية ، قول الشاعر :

يا عمرو لو نالتك رماحنا كنت كمن تهوى به الهاويه

والهاوية : مكان الهوى .

كما قيل :

أكلت دما إن لم أرعك بضرة

بعيدة مهوى القرط مياسة القد

أو طيبة النشر .

وفى الحديث : « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أربعين خريفاً » .

نسأل الله السلامة .

وقد فسر الهاوية بما بعدها : (وما أدراك ماهيه نار حاميه) .

وقد فسر الهاوية بأنها أسفل دركات النار . عياذاً بالله .

وقد جاء قوله تعالى : (كلا لينبذن فى الحطمة، وما أدراك ما الحطمة، نار الله الموقدة) .

والنبذ : الطرح ، مما يرجح ما قلناه من إمكان إرادة المعنيين كون أمه هى الهاوية أى النار ، يهوى فيها على أم رأسه ، وذلك بالنبذ فى الهاوية بعيدة المهوى ، وعادة الجسم إذا ألقى من شاهق بعيداً يسبقه إلى أسفل أثقله ، وأثقل جسم الإنسان رأسه . والله تعالى أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التكاثر



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ أَلْهَـٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ . حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ .

ألهاكم : أى شغلكم ، ولهاه : تلهية ، أى علله .

ومنه قول امرىء القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

أى شغلتها .

والتكاثر : المكاثرة . ولم يذكر هنا فى أى شىء كانت المكاثرة ، التى ألهتهم .

قال ابن القيم : ترك ذكره ، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشىء لا المتكاثر به ، وإما إرادة الإطلاق . اه .

ويعنى رحمه الله بالأول : ذم الهلع ، والنهم .

وبالثانى : ليعم كل ما هو صالح للتكاثر به ، مال وولد وجاه ، وبناء وغراس .

ولم أجد لأحد من المفسرين ذكر نظير لهذه الآية .

ولكنهم اتفقوا على ذكر سبب نزولها فى الجملة ، من أن حيين تفاخرا بالآباء وأمجاد الأجداد ، فعددوا الأحياء ، ثم ذهبوا إلى المقابر ، وعدّد كل منهما مالهم من الموتى يفخرون بهم ، ويتكاثرون بتعدادهم .

وقيل : فى قريش بين بنى عبد مناف وبنى سهم .

وقيل : فى الأنصار .

وقيل : فى اليهود وغيرهم ، مما يشعر بأن التكاثر كان فى مفاخر الآباء .

وقال القرطبي : الآية تعم جميع ما ذكر وغيره .

وسياق حديث الصحيح : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب ، لأحب أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

قال ثابت : عن أنس عن أبى : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت (ألهاكم التكاثر) .

وكأن القرطبي يشير بذلك ، إلى أن التكاثر بالمال أيضاً .

وقد جاءت نصوص من كتاب الله تدل على أن التكاثر الذى ألهام ، والذى ذمّهم الله بسببه أو حذّرهم منه ، إنما هو فى الجميع ، كما فى قوله تعالى : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ـ إلى قوله ـ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

ففيه التصريح : بأن التفاخر والتكاثر بينهم فى الأموال والأولاد .

ثم جاءت نصوص أخرى فى هذا المعنى كقوله : (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون) .

وقوله (وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) .

ولكون الحياة الدنيا بهذه المثابة ، جاء التحذير منها والنهى عن أن تلهيهم ، فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) .

وبين تعالى أن ما عند الله للمؤمنين خير من هذا كله فى قوله

(وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) .

ومما يرجح أن التكاثر في الأموال والأولاد في نفس السورة ، ما جاء في آخرها من قوله : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) لمناسبتها لأول السورة .

هو ظاهر بشمول النعيم المال شمولا أولياً .

وقوله (حتى زرتم المقابر) .

أخذ منه من قال : إن تفاخرهم ، حملهم على الذهاب إلى المقابر ليتكاثروا بأمواتهم ، كما جاء في أخبار أسباب النزول المتقدمة .

والصحيح في : زرتم المقابر : يعني متم ، لأن الميت يأتي إلى القبر كالزائر لأن وجوده فيه مؤقتاً .

وقد روى : أن أعرابياً سمع هذه الآية ، فقال : بعثوا ورب الكعبة ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأن الزائر لابد أن يرتحل .

تنبيـــه

قد بحث بعض العلماء مسألة زيارة القبور هنا لحديث : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها فإنها تزهِّد في الدنيا وتذكِّر في الآخرة » .

وقالوا : إن المنع كان عاماً من أجل ذكر مآثر الآباء والموتى ، ثم بعد ذلك رخص في الزيارة ، واختلفوا فيمن رخص له . فقيل : للرجال دون النساء لعدم دخولهن في واو الجمـــاعة في قوله : « فزوروها » .

وقيل : هو عام للرجال والنساء ، واستدل كل فريق بأدلة يطول إيرادها .

ولكن على سبيل الإجمال لبيان الأرجح ، نورد نبذة من البحث .

فقال المانعون للنساء : إنهن على أصل المنـــع ، ولم تشملهن الرخصة ، ومجيء اللعن بالزيارة فيهن .

وقال المجيزون : إنهن يدخلن ضمناً في خطاب الرجال ،

كدخولهن فى مثل قوله : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فإنهن يدخلن قطعاً .

وقالوا : إن اللعن المنوه عنه جاء فى الحديث بروايتين رواية : « لعن الله زائرات القبور » .

وجاء « لعن الله زوّارات القبور والمتّخذات عليهن السرج » إلى آخره .

فعلى صيغة المبالغة : زوّارات لا تشمل مطلق الزيارة ، وإنما تختص المكثرات ، لأنهن بالإكثار لا يسلمن من عادات الجاهلية من تعداد مآثر الموتى المحظور فى أصل الآية .

أما مجرد زيارة بدون إكثار ولا مكث ، فلا .

واستدلوا لذلك بحديث عائشة رضى الله عنها لما ذكر لها صلى الله عليه وسلم ، السلام على أهل البقيع ، فقالت « وماذا أقول يا رسول الله ، إن أنا زرت القبور ؟ قال : قولى : السلام عليكم آل دار قوم مؤمنين » الحديث .

فأقرها صلى الله عليه وسلم ، على أنها تزور القبور وعلّمها ماذا تقول إن هى زارت .

وكذلك بقصة مروره على المرأة التى تبكى عند القبر فكلّمها ، فقالت : إليك عنى ، وهى لا تعلم من هو ، فلما ذهب عنها قيل لها : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاءت تعتذر فقال لها : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

ولم يذكر لها المنع من زيارة القبور ، مع أنه رآها تبكى .

وهذه أدلة صريحة فى السماح بالزيارة . ومن ناحية المعنى ، فإن النتيجة من الزيارة للرجال هن فى حاجة إليها كذلك ، وهى كون زيارة القبور تزهِّد فى الدنيا وترغِّب فى الآخرة .

وليست هذه بخاصة فى الرجال دون النساء ، بل قد يكن أحوج إليه من الرجال .

وعلى كل ، فإن الراجح من هذه النصوص والله تعالى أعلم ، هو الجواز لمن لم يكثرن ولا يتكلمن بما لا يليق ، مما كان سبباً للمنع الأول ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيه آخر

من لطائف القول فى التفسير ، ما ذكره أبو حيان عن التكاثر فى قوله : (حتى زرتم المقابر) ما نصه :

وقيل هذا تأنيب على الإكثار من زيارة ، تكثيراً بمن سلف وإشادة بذكره ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم قال : « فزوروها » أمر إباحة للاتعاظ بها ، لا لمعنى المباهاة والتفاخر .

ثم قال : قال ابن عطية : كما يصنع الناس في ملازمتها وتسنيمها بالحجارة والرخام وتلوينها شرفاً ، وبيان النواويس عليها ، أى الفوانيس ، وهى السرج .

ثم قال أبو حيان ، وابن عطية : لم ير إلا قبور أهل الأندلس ، فكيف لو رأى ما يتباهى به أهل مصر في مدافنهم بالقرافة الكبرى والقرافة الصغرى ، وباب النصر وغير ذلك . وما يضيع فيها من الأموال ، لتعجب من ذلك ولرأى ما لم يخطر بباله .

وأما التباهى بالزيارة : ففي هؤلاء المنتمين إلى الصوفية أقوام ليس لهم شغل لا زيارة قبور : زرت قبر سيدى فلان بكذا ، وقبر فلان بكذا ، والشيخ فلان بكذا ، والشيخ فلانا بكذا ، فيذكرون أقاليم طافوها على قدم التجريد .

وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ ، بحيث لو كتبت لجاءت أسفار . وهم مع ذلك لايعرفون فروض الوضوء ولا سننه .

وقد سخر لهم الملوك وعوام الناس فى تحسين الظن بهم وبذل المال لهم ، وأما من شذ منهم لأنه يتكلم للعامة فيأتى بعجائب ، يقولون : هذا فتح من العلم اللدنى على الخضر .

حتى إن من ينتمى إلى العلم ، لما رأى رواج هذه الطائفة سلك مسلكهم ، ونقل كثيرا من حكاياتهم ، ومزج ذلك بيسير من العلم طلباً المال والجاه وتقبيل اليد .

ونحن نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته . اهـ . بحروفه .

وهذا الذى قاله رحمه الله من أعظم ما افتتن به المسلمون فى دينهم ودنياهم معاً .

أما فى دينهم : فهو الغلو الذى نهى عنه صلى الله عليه وسلم ، صيانة للتوحيد ، من سؤال غير الله .

وأما فى الدنيا فإن الكثير من هؤلاء يتركون مصالح دنياهم من زراعة أو تجارة أو صناعة ، ويطوف بتلك الأماكن تاركا ومضيعاً من يكون السعى عليه أفضل من نوافل العبادات .

مما يلزم على طلبة العلم فى كل مكان وزمان ، أن يرشدوا الجهلة منهم ، وأن يبينوا للناس عامة خطأ وجهل أولئك ، وأن الرحيل لتلك

القبور ليس من سنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا كان من عمل الخلفاء الراشدين ، ولا من عامة الصحابة ولا التابعين ، ولا من عمل أئمة المذاهب الأربعة رحمهم الله .

وإنما كان عمل الجميع زيارة ماجاورهم من المقابر للسلام عليهم والدعاء لهم ، والاتعاظ بحالهم ، والاستعداد لما صاروا إليه .

نسأل الله الهداية والتوفيق ، لاتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاقتفاء بآثار سلف الأمة . آمين .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

كلا : زجر عن التلهى والتكاثر المذكور ، وسوف تعلمون : أى حقيقة الأمر ، ومغبة هذا التلهى ، ثم كلا سوف تعلمون ، تكرار للتأكيد .

وقيل : إنه لا تكرار ، لما روى عن علىّ رضى الله عنه : أن الأولى فى القبر ، والثانية يوم القيامة . وهو معقول .

واستدل به البعض على عذاب القبر .

ومعلوم صحة حديث القبر « إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار »

والسؤال فيه معلوم ، ولكن أرادوا مأخذه من القرآن .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى الكلام على سورة غافر ، عند (وحاق بآل فرعون سوء العذب) إثبات عذاب القبر من القرآن

وكذلك بيان معناه فى آخر سورة الزخرف عند الكلام على قوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) .

وهذا الزجر هنا والتحذير لهم رداً على ما كانوا عليه فى التكاثر .

كما قال الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العزة للكاثر

وأصرح دليل لإثبات عذاب القبر من القرآن ، هو قوله تعالى : (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) لأن الأول فى الدنيا ، والثانى فى الآخرة .

قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ .

لو : هنا شرطية ، جوابها محذوف باتفاق قدره ابن كثير .

أى لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الآخرة ،

حتى صرتم إلى المقابر ، وعلم اليقين : أجاز أبو حيان إضافة الشيء لنفسه ، أي لمغايرة الوصف ، إذ العلم هو اليقين ، ولكنه آكد منه .

وعن حسان قوله :

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم لو يعلمون يقين العلم ماساروا

ولترون الجحيم : جواب لقسم محذوف .

وقال : المراد برؤيتها عند أول البعث ، أو عند الورود ، أو عند مايتكشف الحال في القبر .

ثم لترونها عين اليقين :

قيل : هذا للكافر عند دخولها ، هذا حاصل كلام المفسرين .

ومعلوم أن هذا ليس لمجرد الإخبار برؤيتها ، ولكن وعيد شديد وتخويف بها ، لأن مجرد الرؤية معلوم .

وإن منكم إلا واردها ، ولكن هذه الرؤية أخص ، كما في قوله : (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) أي أيقنوا بدليل قوله : (ولم يجدوا عنها مصرفا) .

وقد يبدو وجه في هذا المقام ، وهو أن الرؤية هنـــا للنار نوعان :

الرؤية الأولى : رؤية علم وتيقن ، فى قوله : (لوتعلمون علم اليقين) علماً تستيقنون به حقيقة يوم القيامة لأصبحتم بمثابة من يشاهد أهواله ويشهد بأحواله ، كما فى حديث الإحسان : « تعبد الله كأنك تراه » .

وقد وقع مثله فى قصة الصديق لما أخبر نبأ الإسراء ، فقال : « صدق محمد ، فقالوا : تصدقه وأنت لم تسمع منه ؟ قال: إنى لأصدقه على أكثر من ذلك » .

فلعلمه علم اليقين بصدقه صلى الله عليه وسلم فيما يخبر ، صدق بالإسراء كأنه يراه .

وتكون الرؤية الثانية ، رؤية عين ومشاهدة ، فهو عين يقين .

وقد قدمنا مراتب العلم الثلاث : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

فالعلم : ما كان عن دلائل .

وعين اليقين : ما كان عن مشاهدة .

وحق اليقين : ما كان عن ملابسة ومخالطة ، كما يحصل العلم بالكعبة ، ووجهتها فهو علم اليقين ، فإذا رآها فهو عين اليقين بوجودها . فإذا دخلها وكان فى جوفها فهو حق اليقين بوجودها . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

أصل النعيم كل حال ناعمة من النعومة والليونة ، ضد الخشونة واليبوسة ، والشدائد ، كما يشير إليه قوله تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله) .

ثم قال : (إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) فقابل النعمة بالضر .

ومثله قوله تعالى : (ولئن أذقناه نعماء ، بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى) .

وعلى هذا فإن نعم الله عديدة ، كما قال . (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) .

وبهذا تعلم أن كل ماقاله المفسرون ، فهو من قبيل التمثيل لا الحصر ، كما قال تعالى (لاتحصوها) .

وأصول هذه النعم أولها الإسلام (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

ويدخل فيها نعم التشريع والتخفيف ، عما كان على الأمم الماضية .

كما يدخل فيها نعمة الإخاء فى الله (واذكروا نعمة الله عليكم

إذ كنتم إخوانا فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) ، وغير ذلك كثيرا .

وثانيها : الصحة ، وكمال الخلقة والعافية ، فمن كمال الخلقة الحواس (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين) .

ثم قال : (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) .

وثالثها : المال فى كسبه وإنفاقه سواء ، ففى كسبه من حله نعمة ، وفى إنفاقه فى أوجهه نعمة .

هذه أصول النعم ، فماذا يسأل عنه ، مما جاءت السنة بأنه سيسأل عن كل ذلك جملة وتفصيلا .

أما عن الدين والمال والصحة ، ففى مجمل الحديث « إذا كان يوم القيامة ، لا تزال قدم عبد حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أبلاه ، وعن علمه فيم عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن شبابه فيم أفناه » .

ولعظم هذه الآية وشمولها ، فإنها أصبحت من قبيل النصوص مضرب المثل ، فقد فصلت السنة جزئيات ما كانت تخطر ببال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى القرطبي ماجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يارسول الله، قال: وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوما فقاما معه، فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلا، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين فلان؟ قالت: يستعذب لنا من الماء — أي يطلب ماء عذبا — إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم ضيفاً مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إياك والحلوب، فذبح لهم فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» وخرجه الترمذي.

وقال فيه: «هذا والذي نفسي بيده، من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة، ظل بارد ورطب طيب، وماء بارد» وكنى الرجل الذي من الأنصار.

فقال: أبو الهيثم بن التيهان .

قال القرطبي : قلت : اسم هذا الرجل مالك بن التيهان ، ويكنى أبا الهيثم .

وقد ذكر ابن كثير هذه القصة من عدة طرق .

ومنها : عند أحمد أن عمر رضى الله عنه أخذ بالفرق وضرب به الأرض ، وقال « إنا لمسؤولون عن هذا يا رسول الله ؟ قال : نعم ، إلا من ثلاثة : خرقة لف الرجل بها عورته ، أو كسرة سد بها جوعته ، أو جحر يدخل فيه من الحر والقر » .

وقال سفيان بن عيينة : إن ما سد الجوع ، وستر العورة من خشن الطعام ، لا يسأل عنه المرء يوم القيامة ، وإنما يسأل عن النعيم ، والدليل عليه أن الله أسكن آدم الجنة فقال له : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) .

فكانت هذه الأشياء الأربعة ما يسد به الجوع ، وما يدفع به العطش ، وما يسكن فيه من الحر ويستر به عورته ، لآدم عليه السلام بالإطلاق ، لا حساب عليه فيها لأنه لابد له منها .

وذكر عن أحمد أيضاً بسنده « أنهم كانوا جلوساً فطلع عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا :

يا رسول الله ، نراك طيب النفس ؟

قال : أجل ، قال : خاض الناس في ذكر الغنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى الله ، خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » .

قال : ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة .

وبهذا ، فقد ثبت من الكتاب والسنة ، أن النعيم الذي هو محل السؤال يوم القيامة عام في كل ما يتنعم به الإنسان في الدنيا ، حساً كان أو معنى .

حتى قالوا : النوم مع العافية ، وقالوا : إن السؤال عام للكافر والمسلم ، فهو للكافر توبيخ وتقريع وحساب ، وللمؤمن تقرير بحسب شكر النعمة وجحودها وكيفية تصريفها . والعلم عند الله تعالى .

وكل ذلك يراد منه الحث على شكر النعمة ، والإقرار للمنعم

والقيام بحقه سبحانه فيها ، كما قال تعالى عن نبي الله : (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى ، إنى تبت إليك وإنى من المسلمين) .

اللهم أوزعنا شكر نعمتك ، واجعل ما أنعمت علينا عوناً لنا على طاعتك .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العصر



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَٱلْعَصْرِ . إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ .

العصر : اسم للزمن كله أو جزء منه .

ولذا اختلف فى المراد منه ، حيث لم يبين هنا .

فقيل : هو الدهر كله ، أقسم الله به لما فيه من العجائب ، أمة تذهب وأمة تأتى ، وقدر ينفذ ، وآية تظهر ، وهو هو لا يتغير ، ليل يعقبه نهار ، ونهار يطرده ليل ، فهو فى نفسه عجب .

كما قيل :

موجود شبيه المعدوم ، ومتحرك يضاهى الساكن .

كما قيل :

وأرى الزمان سفينة تجرى بنا نحو المنون ولا نرى حركاته

فهو فى نفسه آية ، سواء فى ماضيه لا يعلم متى كان ، أو فى حاضره لا يعلم كيف ينقضى ، أو فى مستقبله .

واستدل لهذا القول بما جاء موقوفا على علىّ رضى الله عنه ، ومرفوعاً من قراءة شاذة : والعصر ونوائب الدهر . وحمل على التفسير إن

لم يصح قرآنا ، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس .

وعليه قول الشاعر :

سبيل الهوى وعر ، وبحر الهوى غمر
ويوم الهوى شهر ، وشهر الهوى دهر

وقيل العصر : الليل والنهار .

قال حميد بن ثور :

ولم يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا مايتيمما

والعصران : أيضاً الغداة والعشى .

كما قيل :

وأمطله العصرين حتى يملنى ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

والمطل : التسويف وتأخير الدين .

كما قيل:

قضى كل ذى دين فوفّى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

وقيل : إن العشى مابعد زوال الشمس إلى غروبها ، وهو قول الحسن وقتادة .

ومنه قول الشاعر :

تروح بنا ياعمرو قد قصر العصر
وفى الروحة الأولى الغنيمة والاجر

وعن قتادة أيضاً : هو آخر ساعة من ساعات النهار ، لتعظيم اليمين فيه ، وللقسم بالفجر والضحى .

وقيل : هو صلاة العصر لكونها الوسطى .

وقيل : عصر النبي صلى الله عليه وسلم أو زمن أمته ، لأنه يشبه عصر عمر الدنيا .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن أقرب هذه الأقوال كلها قولان : إما العموم بمعنى الدهر للقراءة الشاذة ، إذ أقل درجاتها التفسير ، ولأنه يشمل بعمومه بقية الأقوال .

وإما عصر الإنسان أى عمره ومدة حياته الذى هو محل الكسب والخسران لإشعار السياق ، ولأنه يخص العبد فى نفسه موعظة وانتفاعاً .

ويرشح لهذا المعنى مايكتنف هذه السورة من سور التكاثر قبلها ، والهمزة بعدها ، إذ الأولى تذم هذا التلهى والتكاثر بالمال والولد ، حتى زيارة المقابر بالموت ، ومحل ذلك هو حياة الإنسان .

وسورة الهمزة في نفس المعنى تقريباً ، في الذي جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده .

فجمع المال وتعداده في حياة الإنسان وحياته محدودة ، وليس مخلداً في الدنيا ، كما أن الإيمان وعمل الصالحات مرتبط بحياة الإنسان .

وعليه ، فإما أن يكون المراد بالعصر في هذه السورة العموم لشموله الجميع وللقراءة الشاذة ، وهذا أقواها .

وإما حياة الإنسان ، لأنه ألزم له في عمله ، وتكون كل الإطلاقات الأخرى من إطلاق الكل ، وإرادة البعض ، والله تعالى أعلم .

وقوله : (إن الإنسان لفي خسر)

لفظ الإنسان وإن كان مفرداً ، فإن أل فيه جملته للجنس .

وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، وتقدم التنبيه عليه مراراً ، فهو شامل المسلم والكافر ، إلا من استثنى الله تعالى .

وقيل : خاص بالكافر . والأول أرجح للعموم .

وإن الإنسان لفي خسر ، جواب القسم ، والخسر : قيل : هو

الغبن ، وقيل : النقص ، وقيل : العقوبة ، وقيل : الهلكة ، والكل متقارب .

وأصل الخسر والخسران كالكفر والكفران ، النقص من رأس المال ، ولم يبين هنا نوع الخسران فى أى شىء ، بل أطلق ليعم ، وجاء بحرف الظرفية ، ليشعر أن الإنسان مستغرق فى الخسران ، وهو محيط به من كل جهة .

ولو نظرنا إلى أمرين وهما المستثنى والسورة التى قبلها ، لاتضح هذا العموم ، لأن مفهوم المستثنى يشمل أربعة أمور : عدم الإيمان وهو الكفر ، وعدم العمل الصالح وهو العمل الفاسد ، وعدم التواصى بالحق وهو انعدام التواصى كلية أو التواصى بالباطل ، وعدم التواصى بالصبر ، وهو إما انعدام التواصى كلية أو الهلع والجزع .

والسورة التى قبلها تلهى الإنسان بالتكاثر فى المال والولد ، بغية الغنى والتكثر فيه ، وضده ضياع المال والولد وهو الخسران .

فعليه يكون الخسران فى الدين من حيث الإيمان بسبب الكفر ، وفى الإسلام وهو ترك العمل ، وإن كان يشمله الإيمان فى الاصطلاح والتلهى فى الباطل وترك الحق ، وفى الهلع والفزع .

ومن ثم ترك الأمر والنهى بما فيه مصلحة العبد وفلاحه وصلاح

دينه ودنياه ، وكل ذلك جاء فى القرآن مايدل عليه نجمله كالآتى :

أما الخسران بالكفر . فكما فى قوله تعالى . (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) .

وقوله : (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) ، أى لأنهم لم يعملوا لهذا اللقاء ، وقصروا أمرهم فى الحياة الدنيا فضيعوا أنفسهم ، وحظهم من الآخرة .

وأما الخسران بترك العمل ، فكما فى قوله تعالى : (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) لأن الموازين هى معايير الأعمال كما تقدم (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) .

ومثله : (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً) ، لأنه سيكون من حزب الشيطان (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) أى بطاعتهم إياه فى معصية الله .

وأما الخسران بترك التواصى بالحق فليس بعد الحق إلا الضلال ، والحق هو الإسلام بكامله ، وقد قال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

وأما الخسران بترك التواصى بالصبر والوقوع فى الهلع والفزع ،

فكما قال تعالى : (ومن الناس من يعبـد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين) .

تحقيق المناط فى حقيقة خسران الإنسان

اتفقوا على أن رأس مال الإنسان فى حياته هو عمره . كلف بإعماله فى فترة وجوده فى الدنيا ، فهى له كالسوق . فإن أعمله فى خير ربح ، وإن أعمله فى شر خسر .

ويدل لهذا المعنى قوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) الآية .

وقوله : (هل أدلـكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله) الآية .

وفى الحديث عند مسلم : « الطهور شطر الإيمان » .

وفى آخره « كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » مما يؤكد أن رأس مال الإنسان عمره .

ولأهمية هذا العمر جاء قسيم الرسالة والنذارة فى قوله : (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) .

وعلى هذا قالوا : إن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى .

وهدى كل إنسان النجدين ، وجعل لكل إنسان منزلة فى الجنة ومنزلة فى النار .

فمن آمن وعمل صالحا كان مآله إلى منزلة الجنة ، وسلم من منزلة النار . ومن كفر كان مآله إلى منزلة النار ، وترك منزلته فى الجنة .

كما جاء فى حديث القبر « أول ما يدخل فى قبره إن كان مؤمناً يفتح له باب إلى النار ، ويقال له : ذاك مقعدك من النار لو لم تؤمن ثم يقفل عنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ويقال له : هذا منزلك يوم تقوم الساعة ، فيقول : رب ، أقم الساعة » .

وإن كان كافراً كان على العكس تماماً ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيأخذ كل منزلته فيها ، وتبقى منازل أهل النار فى الجنة خالية فيتوارثها أهل الجنة ، وتبقى منازل أهل الجنة فى النار خالية ، فتوزع على أهل النار ، وهنا يظهر الخسران المبين ، لأن من ترك منزلة فى الجنة وذهب إلى منزلة فى النار ، فهو بلا شك خاسر ، وإذا ترك منزلته فى الجنة لغيره وأخذ هو بدلا منها منزلة غيره فى النار ، كان هو الخسران المبين ، عياذاً بالله .

أما فى غير الكافر وفى عموم المسلمين ، فإن الخسران فى التفريط بحيث لو دخل الجنة ولم ينل أعلى الدرجات يُحسّ بالخسران فى الوقت الذى فرط فيه ، ولم يتنافس فى فعل الخير ، لينال أعلى الدرجات .

فهذه السورة فعلا دافع لكل فرد إلى الجد والعمل المربح ، ودرجات الجنة رفيعة ومنازلها عالية مهما بذل العبد من جهد ، فإن أمامه مجال للكسب والربح ، نسأل الله التوفيق والفلاح .

وقد قالوا : لايخرج إنسان من الدنيا إلا حزينًا ، فإن كان مسيئا فعلى إساءته ، وإن كان محسناً فلتقصيره . وقد يشهد لهذا المعنى قوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) .

فالخوف من المستقبل أمامهم ، والحزن على الماضى خلفهم ، والله تعالى أعلم .

ويبين خطر هذه المسألة : أن الانسان إذا كان فى آخر عمره ، وشعر بأيامه المعدودة وساعاته المحدودة ، وأراد زيادة يوم فيها ، يتزود منها أو ساعة وجيزة يستدرك بعضاً مما فاته ، لم يستطع لذلك سبيلا ، فيشعر بالأسى والحزن على الأيام والليالى والشهور والسنين التى ضاعت عليه فى غير ما كسب ولا فائدة ، كان من الممكن أن

تكون مربحة له ، وفى الحديث الصحيح : « نعمتان مغبون فيهمـا الإنسان : الصحة والفراغ » .

أى أنهما يمضيان لا يستغلهما فى أوجه الـكسب المـكتملة ، فيفوتان عليه بدون عوض يذكر ثم يندم ، ولات حين مندم .

كما قيل فى ذلك :

بدلت جمـة برأس أزعرا وبالثنايا البيض الدر دررا
* كما اشترى المسلم إذ تنصرا *

تنبيـــه

فى سورة التـكاثر تقبيح التلهى بالتـكاثر بالمال والولد ونحوه ، ثم الإشعار بأن سببه الجهل ، لأنهم لو كانوا يعلمون علم اليقين لمـا ألهـاهم ذلك حتى باغتهم الموت .

وهنا إشعار أيضاً بأن سبب هذا الخسران الذى يقع فيه الإنسان ، هو الجهل الذى يجر إلى الـكفر والتمادى فى الباطل ، ويساعد على هذا قسوة القلب ، وطول الأمل . كما قال تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)

تنبيه آخر

قوله تعالى (إن الإنسان لفى خسر) نص على الإنسان على ماتقدم وقد جاءت آية أخرى تدل على أن الجن كالإنس فى قوله تعالى : (أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين) .

وتقدم بيان تكليف الجن بالدعوة واستجابتهم لها . والدعوة إليها.

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

هذا هو المستثنى من الإنسان المتقدم ، مما دل على العموم كما قدمنا ، والإيمان لغة التصديق وشرعا الاعتقاد الجازم بأركان الإيمان الست ، فى حديث جبريل عليه السلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان .

وعملوا الصالحات : العطف يقتضى المغايرة .

ولذا قال بعض الناس : إن الأعمال ليست داخلة فى تعريف الإيمان ومقالاتهم معروفة .

والجمهور : أن الإيمان اعتقاد بالجنان ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح.

فالعمل داخل فيه ويزيد وينقص ، وقد قدمنا : أن العمل شرط

أقرب من أن يكون جزءا ، أى أن الإيمان يصدق بالاعتقاد ، ولا يتوقف وجوده على العمل ، ولكن العمل شرط فى الانتفاع بالإيمان ، إذا تمكن العبد من العمل ، ومما يدل لكون الإيمان يصدق عليه حد الإعتقاد والنطق ، ولو لم يتمكن العبد من العمل ، قصة الصحابى الذى أسلم عند بدء المعركة ، وقاتل ، واستشهد ولم يصل لله ركعة ، فدخل الجنة .

والجمهور : على أن مجرد الاعتقاد لا ينفع صاحبه ، كما كان يعتقد عم النبى صلى الله عليه وسلم صحة رسالته ، ولكنه لم يقل كلمة يحاج له صلى الله عليه وسلم بها ، وكذلك لو اعتقد ونطق بالشهادتين ، ولم يعمل كان مناقضاً لقوله .

وقد قدمنا هذه المسألة مفصلة .

والصالحات : جمع صالحة . وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه تعريفه وشروط كون العمل صالحا بأدلته من كونه موافقاً لكتاب الله وعمله صاحبه خالصاً لوجه الله ، وكونه صادراً من مؤمن بالله . إلخ .

وقوله : (وتواصوا بالحق) .

يعتبر التواصي بالحق ، من الخاص بعد العام ، لأنه داخل فى عمل الصالحات .

وقيل : إن التواصى ، أن يوصى بعضهم بعضاً بالحق .

وقيل : الحق كل ما كان ضد الباطل ، فيشمل عمل الطاعات ، وترك المعاصى .

واعتبر هذا أساساً من أسس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بقرينة التواصي بالصبر ، أى على الأمر والنهى . على ما سيأتى إن شاء الله

وقيل : الحق ، هو القرآن . لشموله كل أمر وكل نهى ، وكل خير ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى حق القرآن (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل)

وقوله : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين) .

وقد جاءت آيات فى القرآن تدل على أن الوصية بالحق تشمل الشريعة كلها ، أصولها وفروعها ، ماضيها وحاضرها ، من ذلك ما وصى الله به الأنبياء وعموما ، من نوح وإبراهيم ومن بعدهم فى قوله تعالى

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

وإقامة الدين القيام بكليته ، وقد كانت هذه الوصية عمل الرسل لأممهم ومن بعدهم ، فنفذها إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى : (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .

ومن بعد إبراهيم يعقوب كما قال تعالى :

(أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) .

فهذا تواصى الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة ، وكذلك بالعبادة من صلاة وزكاة ، كما فى قوله تعالى عن نبى الله عيسى عليه السلام (وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتى) .

وكذلك الحالة الاجتماعية ماثلة فى الوصية بالوالدين والأولاد ، لترابط الأسرة ، ففى الوالدين قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) .

وفى الأبناء قال : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) .

وفى الحقوق العامة أوامر ونواهى ، عبادات ومعاملات ، جاءت آيات الوصايا العشر التى قال عنها ابن مسعود رضى الله عنه « من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التى عليها خاتمه فليقرأ : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ،لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) » .

تلك الوصايا الجامعة أبواب الخير الموصدة أبواب الشر والمذيلة بهذا التبيين والتعريف ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل

ولو أردنا أن نربط بين هذا وبين التواصى بالحق وبينهما وبين فاتحة الكتاب ، لكانت النتيجة كالآتى فى قوله : (وتواصوا بالحق) إحالة على تلك الوصايا ، وهى شاملة جامعة وممنون لها بأنها صراط الله المستقيم .

فكأن قوله : (وتواصوا بالحق) مساويا لقوله : وتواصوا بالصراط المستقيم . واستقيموا عليه .

ثم فى سورة الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم) وهذا صراط الله المستقيم فاتبعوه .

فكانت سورة العصر مشتملة على التواصى بالاستقامة على صراط الله المستقيم واتباعه ، ويأتى عقبها قوله (وتواصوا بالصبر) بمثابة التثبيت على هذا الصراط المستقيم ، إذ الصبر لازم على عمل الطاعات ، كما هو لازم لترك المنكرات .

وتلك الوصايا العشر جمعت أمراً ونهياً فعلا وتركا ، وكذلك فيه الإشارة إلى ما يقوله دعاة الإسلام من أن العمل الصالح والدعوة إلى الحق والتواصى به ، فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغالباً من يقوم به يتعرض لأذى الناس ، فلزمهم التواصى بالصبر ، كما قال

لإبنه يوصيه وجامعاً فى وصيته وصية سورة العصر إذ قال : (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا عليه بيان قواعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالتفصيل عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ) فى سورة المائدة .

فصارت هذه السورة بحق جامعة لأصول الرسالة .

كما روى عن الشافعى رحمه الله أنه قال : لو تأمل الناس هذه السورة لكفتهم .

قوله : (وتواصوا بالصبر) جاء الحث على التواصى بالرحمة أيضاً مع الصبر ، فى قوله تعالى : (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) .

وبهذه الوصايا الثلاث : بالتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر والتواصى بالمرحمة ، تكتمل مقومات المجتمع المتكامل قوامه الفضائل المثلى ، والقيم الفضلى .

لأن بالتواصى بالحق إقامة الحق ، والاستقامة على الطريق المستقيم .

وبالتواصى بالصبر ، يستطيعون مواصلة سيرهم على هـذا الصراط ، ويتخطون كل عقبات تواجههم .

وبالتواصى بالمرحمة : يكونون مرتبطين كالجسد الواحد ، وتلك أعطيات لم يعطها إلا القرآن وأعطاها فى هـذه السورة الموجزة . وبالله التوفيق .

تنبيـه

قال الفخر الرازى : إن الله تعالى لمـا أخبر عن هؤلاء بالنجاة من الخسران ، وفوزهم بالعمل الصالح والإيمان ، أخبر عنهم أنهم لم يكتفوا بما يتعلق بهم أنفسهم بل تعدوا إلى غيرهم ، فدعوهم إلى ما فازوا به على حد قوله صلى الله عليه وسلم « حب لأخيك ما تحب لنفسـك » اهـ . ملخصاً

ويشهد لهذا قوله تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة — إلى قوله ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صـالحاً وقال إننى من المسـلمين ، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

فقد بين تعالى أن الناس أقسام ثلاثة ، إزاء دعوة الرسل .

قوم آمنوا وقالوا : ربنا الله ، واستقاموا على ذلك بالعمل الصالح .

وقوم : ارتفعت همتهم إلى دعوة غيرهم وهم أحسن قولا بلا شك .

وقوم : عادوا الدعاة وأساؤوا إليهم .

ثم بين موقف الدعاة من أولئك المسيئين فى غضون قوله تعالى : (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع) أى إساءة المسيئين (بالتى هى أحسن) فيصبحوا أولياء لك وبين أن هذه المنزلة (لا يلقاها إلا الذين صبروا) ثم بين أن من ارتفع إليها وسلك مسالكها (أنه ذو حظ عظيم) .

تنبيه

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قوله للدعاة عدوان : أحدهما : من الإنس . والآخر من الشياطين .

وقد أرشدنا الله لكيفية التغلب عليهما واكتفاء شرهما .

أما عداوة الإنس فبمقابلة الإساءة بالإحسان ، فيصبح ولياً حميماً .

وأما عدو الجن فبالاستعاذة منه (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) .

نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق .

وقد أشرنا إلى أن الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قدم مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم) .

وذكر سورة العصر عندها ، وعقد مسائل متعددة في منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بما لا غنى عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ .

اختلف فى معنى كلمة ويل .

فقيل : هو واد فى جهنم .

وقيل : هى كلمة عذاب وهلاك .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ذكر هذين المعنيين فى سورة الجاثية عند قوله تعالى : (ويل لكل أفاك أثيم) ، وبين أنها مصدر لا لفظ له من فعله ، وأن المسوغ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها فى معرض الدعاء عليهم بالهلاك .

وقد استظهر رحمه الله تعالى هذا المعنى .

ومما يشهد لما استظهره رحمه الله ، ماجاء فى حق أصحاب الجنة التى أصبحت كالصريم ، أنهم قالوا عند رؤيتهم إياها (قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين) فهى كلمة تقال عند نزول المصائب ، وعند التقبيح .

وقال الفخر الرازى : أصل الويل لفظة السخط والذم ، وأصلها

وى لفلان ، ثم كثرت في كلامهم فوصلت باللام ، ويقال : ويح بالحاء للترحم اهـ.

ومما يدل لقول الرازي أيضاً قول قارون (ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) .

ومثله للتعجب في قوله : (قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا) .

وقوله : (قال ياويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى) .

فالظاهر : أنها كلمة تقال عند الشدة والهلكة ، أو شدة التعجب مما يشبه المستبعد .

والذى يشهد له القرآن : هو هذا المعنى ، وسبب الخلاف قد يرجع لمجيئها تارة مطلقة كقوله : (ويل يومئذ للمكذبين) ، وهنا (ويل لكل همزة لمزة) .

ويجىء مع ذكر مايتوعد به كقوله : (فويل للذين كفروا من النار) ، وقوله : (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) ، فذكر النار والعذاب الأليم .

وكذلك قوله : (فويل للذين ظلموا من مشهد يوم عظيم) ، فهى فى هذا كله للوعيد الشديد، مما ذكر معها من النار والعذاب الأليم ومشهد يوم عظيم ، وليست مقصودة بذاتها دون ماذكر معها ، والعلم عند الله تعالى .

وقوله : (همزة لمزة) قيل : هما بمعنى واحد ، وهو الغيبة .

وأنشد ابن جرير قول زياد الأعجم :

تدلى بودى إذا لاقيتنى كذبا   وإن أغيب فأنت الهامز الهمزه

وعزا هذا لابن عباس ، وهو الذى يصيب الناس ويطعن فيهم .

وقد جاء فى القرآن استعمال كل من الكلمتين مفردة عن الأخرى ، بما يدل على المغايرة .

ففى الهمزة قوله : (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم) مما يدل على الكذب والنميمة .

وفى الهمزة قوله تعالى : (ولا تلمزوا أنفسكم ولاتنابزوا بالألقاب) .

وقوله : (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) مما يدل على أنها أقرب للتنقص والعيب فى الحضور لا فى الغيبة ، فتغاير الهمز فى المعنى ، وفى

الصفة ، والجمع بينهما جمع بين القبيحين ، فكان مستحقاً لهذا الوعيد الشديد بكلمة ويل .

وقد قيل : الهمز باليد : وقيل : باللسان فى الحضرة ، واللمز فى الغيبة .

وقيل : الهمز باليد ، واللمز باللسان ، والغمز بالعين ، وكلها معان متقاربة تشترك فى تنقص الآخرين .

قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ .

هذا الوصف يشعر بأنه علة فيما قبله ، إذ الموصول هنا يدل من كل المتقدمة ، وليس العيب فى جمع مالا بل فى عدده . يحسب أن ماله أخلده . وفى عدده عدة معان :

قيل : عده كل وقت وآخر ، تحفظاً عليه .

وقيل : عدده كنزه

وقيل : عدده أعده للحاجة .

وقرىء : جمّع وعدّد بالتشديد وبالتخفيف . والمراد به من لم يؤد حق الله فيه شحاً وبخلا ، كما تقدم فى سورة (ألهاكم التكاثر) .

قوله تعالى ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ .

هذا الحسبان هو المذموم عليه ، والمنصب عليه الوعيد ، لأنه كفر بالبعث . كما قال صاحب الجنة فى الكهف (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة) .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ .

كلا : ردع وزجر له على حسبانه الباطل ، ولينبذن فى جواب قسم محذوف دل عليه قوله : كلا .

وهذا يفسره ماتقدم فى قوله : (فأمه هاوية) أى ينبذ نبذا ، فيهوى على أم رأسه . عياذاً بالله .

والحطمة : فعلة من الحطم ، وهو الكسر ، ثم الأكل الكثير .

وقد فسرت بما بعدها (نار الله الموقدة) ، وسميت « حطمة » لأنها تحطم كل ما ألقى فيها ، وتقول : هل من مزيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ .

قيل : مؤصدة فى عمد . بأن العمد صارت وصداً للباب كالقفل والغلق له .

وقيل : فى عمد : أنهم يدخلون فى عمد كالقصبة ، مجوفة الداخل .

وقيل : فى عمد : أى توضع أرجلهم فى العمد على صورة القيد فى الخشبة الممتدة ، يشد فيها عدد من الأشخاص فى أرجلهم

وكنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى ذلك : أن العمد بمعنى القصبة المجوفة تضيق عليهم ، كما فى قوله : (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا) .

فيكون أرجح فى هذا المعنى .

وقد نص عليه فى إملائه رحمة الله تعالى علينا وعليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

٥١٩

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

اختلف فى معنى السجيل هنا .

فقال قوم: هو السجين ، أبدلت النون لاما ، والسجين النار .

وقيل: إن السجيل من السجل ، كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجينا لديوان أعمالهم واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وهى حجارة مرسلة لقوله (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) .

وقوله: إن سجينا ، ء ديوان أعمالهم ، يعنى قوله تعالى: (كلا إن كتاب الفجار لفى سجين) .

وقيل: معنى سجيل سنك وطين ، يعنى بعض حجر وبعض طين .

وقيل: معناه الشديد .

وقيل: السجيل اسم لسماء الدنيا .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ترجيح أنها من طين شديد القوة .

وهذا مايشهد له القرآن لما فى سورة الذاريات (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين) فنص على أنها من طين .

والحجارة من الطين : هى الآجر وهو الطين المطبوخ حتى يتحجر .

وجاء النص الآخر أنها من سجيل منضود فى قوله : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود) .

وقيل فيها : كالحصة والعدسة ، والضمير فى عليهم راجع لأصحاب الفيل ، وقصتهم طويلة مشهورة .

تنبيه

قد أوردنا نصوص معنى سجيل ، وترجيح الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : أنها حجارة من طين شديد القوة تنبيهاً على ماقيل من استبعاد ذلك ، ورداً على من صرف معناها إلى غير الحجارة المحسوسة .

أما من استبعدها ، فقد حكاه الفخر الرازى بقوله : واعلم أن من الناس من أنكر ذلك .

وقالوا : لو جوزنا أن يكون فى الحجارة التى تكون مثل العدسة من الثقل مايقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل ، وأن يكون فى وزن التبنة ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات .

فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ، ولا نراها ، وأن يحصل الإدراك فى عين الضرير ، حتى يكون هو بالمشرق ، ويرى قطعة من الأرض بالأندلس ، وكل ذلك محال .

ثم قال : واعلم أن ذلك جائز فى مذهبنا ، إلا أن العادة جارية بأنها لاتقع .

وهذا القول يحكيه الفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ ستمائة وست ، فنرى استبعادهم إياها مبنى على تحكيم العقل ، وهذا باطل لأن خوارق العادات دائماً فوق قانون العقل ، بل إن تصورات العقل نفسه منشؤها من تصوراتنا لما نشاهده .

وإذا حدث العقل بما لم يشهده أو يعلم كنه وجوده لاستبعده كما هو فى واقعنا اليوم ، لو حدثت به العقول سابقا من نقل الحديث ، والصورة على الأثير ، وتوجيه الطائرات وأمثالها ، لما قوى على تصورها لأنها فوق نطاق محسوساته ومشاهداته .

وحتى نحن لو لم يسايرها من علم بما يحمله الأثير من تيار كهربائى ، وما له من دور فعال فى ذلك لما أمكننا تصوره ، ثم من يمنع شيئاً من ذلك على قدرته تعالى .

وقد أخبرنا أن تلك الجبال سيأتى يوم تكون فيه كالعهن المنفوش أخف من التبنة ، التى مثلوا بها ، بل ستكون أقل من ذلك ، كما قال تعالى : (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ، فظهر بطلان هـذا القول الذى استبعدها لعدم إدراك العقل لها .

أما من يؤول هذا المعنى إلى معنى آخر ، فهو قريب من الأول من حيث المبدأ ، إلا أنه أثبت الأصل وفسره بما يتناسب والعقل .

وهو يحكى عن الإمام محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ، إذ فسرا الحجارة من سجيل ، بأنه وباء الجدرى .

وبالتالى : فالطير الأبابيل : هى البعوض وما أشبهه .

وقد اعتذر له السيد قطب : بأن الدافع لذلك هو ماكان شائعاً فى عصره من موجات متضـاربة ، موج انحراف فى التفكير نحو الإسلام واستغلال الإسرائيليات ، كمثال على مايشبه الأباطيل فى تشويه حقائق الإسلام عند غير المسلمين .

ومن ناحية أخرى طوفان على حديث ، من إنتاج العقل البشرى فبدلا من أن تثبت حادثة كهذه صرفت إلى ما يألفه العقل من إيقاع ميكروب الجدرى بجيش أبرهة حتى أهلكه ، لكى لا يتصادم فى إثبات الحادثة على ما نص عليه القرآن بواقع العقلية العلمانية الحديثة .

هذا ملخص ما اعتذر به السيد قطب عن هذا القول .

ولكن من الناحية العلمية والنصوص القرآنية ، فقد تقدم : أن الحجارة التى من سجيل ، جاء النص على أنها ليست خاصة بهؤلاء القوم ، بل ألقيت على قوم لوط ، بعد أن جعل عاليها سافلها ، فما موقع الجدرى منهم بعد إهلاكهم بإفكها المذكور ؟

ثم جاء أيضاً : أنها من طين ، فأين الطين من الجراثيم الجدرية ؟

ومن الناحية العلمية : من أين جىء بميكروب الجدرى ؟ وأين كان قبل أن تأتى به الطير الأبابيل ؟

ومتى كان ميكروب الجدرى أو غيره ، يميز بين قرشى وحبشى ؟

ومتى كان أى ميكروب يفتك بقوم وبسرعة ، يجعلهم كعصف مأكول ، مع أن : فجعلهم ، تشعر بالسرعة فى إهلاكهم ، والعصف اليابس الذى تعصف به الريح لخفته .

ومتى كان وجود الجدرى طفرة وفجــاءة ، إنه يظهر فى حالات فردية ، ثم ينتشر هذا من الناحية العلمية ، وإدراك العقل ، لما عرف من ميكروب الجدرى .

ولـكن ملابسات الحادثة تمنع من تصور ذلك عقلا لعدم انتشاره فى جميع أفراد المنطقة ، ولعدم تأثيره فعلا بهذه الصورة ، ولعدم أيضاً تصور مجيئه فجاءة ، فدل العقل نفسه على عَدم صحة هذا القول .

ثم من ناحية أخرى إذا رددنا خوارق العادات لعدم تصور العقل لها ، فكيف نثبت مثل : حنين الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك ، وتسبيح الحصى فى كفه صلوات الله وسلامه عليه ؟

وقد شاهد العقل الصورة القصوى ، وهى خروج الناقة من الصخرة لقوم صالح ، بل إننا الآن بالحس والعقل نشاهد مالاندرك كنهه فى وسائل الإعـلام ، ونسمع الصوت من الجمــاد مسجـلا على شريط بسيط جداً .

فهل ينفى الباقى ؟ بل كيف أثبت النصارى عيسى ابن مريم علَيه السلام إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، وعمل الطير من الطين ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .

وكيف أثبت اليهود لموسى أمر العصا وشق البحر ؟ وأين العقل من ذلك كله ؟

الواقع أننا فى كل زمان ومع كل قضية ، يجب أن نلتزم جانب الاعتدال ، لا هو جرى وراء كل خبر ، ولو كان إسرائيلياً ولا هو رد لكل نص ولو كان صريحا قرآنيا ، بل كما قال السيد قطب فى ذلك :

يجب أن نستمد فكرنا من نصوص القرآن ، وأن مايقرره نعتقده ونقول به .

وقد ناقشنا هاتين الفكرتين القديمة التى استبعدت ذلك كلية ، والحديثة التى أولتها .

ونضيف شيئاً آخر فى جانب الفكرة الثانية ، وهى لعل مما حدا بأصحابها إلى ذلك ماجاء عن قتادة قوله : إنه لم ير الجدرى بأرض العرب مثل تلك السنة .

وقيل أيضاً : لم ير شجر الحنظل ، إلا فى ذلك التاريخ .

فيقال أيضاً : إن العقل لايستبعد هنا أن يكون إهلاك هذا الجيش الكبير بتلك الحجارة فى مكان معسكره فى بطن الوادى ، ووقوع

الجثث مصابة بها ، لايمتنع أن تتعفن ثم يتولد منها مكروب الجدرى ، ولا مانع من ذلك . والعلم عند الله تعالى .

تنبيـــه آخر

قالوا : إن أصحاب هذا الجيش نصارى وهم أهل دين وكتاب ، وأهل مكة وثنيون لادين لهم ، والكعبة ممتلأة بالأصنام ، فكيف أهلك الله النصارى أصحاب الدين ولم يسلطهم على الوثنيين ؟

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة .

منهـا : أن الجيش ظالم باغ ، والبغى مرتعه وخيم ، ولو كان المظلوم أقل من الظـالم ، ويشهد لذلك الحديث « فى نصرة المظلوم ، واستجابة دعوته ولو كان كافرا » .

ومنها : أن الوثنية اعتداء على حق الله فى العبادة ، وغزو هـذا الجيش اعتداء على حقوق العباد .

ومنها : أنه إرهاص لمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ ولد فى هذا العام نفسه .

وكلها وإن كانت لها وجه من النظر ، إلا أنه يبدو لى وجه

وهو أن الأصل في نشأة البيت وإقامته ، إنما هو الله رفع قواعده وأقام الصلاة في رحابه ، وكان طاهراً مطهراً للعاكفين فيه والركع السجود ، وإنما الوثنية طارئة عليه وإلى أمد قصير مداه ودنا منتهاه ، لدين جديد .

والمسيحية بنفسها تعلم ذلك وتنص عليه وتبشر به ، فكانت معتدية على الحقين معاً ، حق الله في بيته ، والذى تعلم حرمته وماله ، وحق العباد الذين حوله .

وكانت لو سلطت عليه بمثابة المنتصرة على مبدأ صحيح ، مع فسادها مبدأ صحة وسلامة بناء البيت ، ووضعه البيت الذى من خصائصه أن يكون مثابة للناس وأمنا .

فكيف لايأمن هو نفسه من غزو الغزاة وطغيان الطغاة ، فصانه الله تعالى صيانة لمبدإ وجوده ، وحفاظا على أصل وضعه في الأرض ، ويكفى نسبته لله بيت الله .

وقد أدرك أبوطالب هذا المعنى بعينه إذ قال لأبرهة :

أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه . وأتى باب الكعبة فتعلق بها وقال :

لاهم إن العبد يمنـــــع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهـــــم ومحالهم عدوا محالك

إن يدخلوا البلد الحرا م فأمـر مابدا لك

وقيل : إنه قال :

يارب لا أرجو لهم سواكا يارب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا إنهم لن يقهروا قواكا

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة قريش



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ . إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ .

اختلف فى اللام فى لإيلاف قريش ، هل هى متعلقة بما قبلها ، وعلى أى معنى . أم متعلقة بما بعدها ، وعلى أى معنى .

فمن قال : متعلقة بما قبلها ، قال متعلقة بجعل فى قوله : (فجعلهم كعصف مأكول)

وتكون بمعنى لأجل إيلاف قريش يدوم لهم . ويبقى تعظيم العرب إياهم ، لأنهم أهل حرم الله ، أو بمعنى إلى أى جعلنا العدو كعصف مأكول ، هزيمة له ونصرة لقريش نعمة عليهم ، إلى نعمة إيلافهم رحلة الشتاء والصيف .

ومن قال : متعلقة بما بعدها ، قال لإيلاف قريش إيلافهم الذى

ألقوه أى بمثابة التقرير له ، ورتب عليه ، فليعبدوا رب هذا البيت . أى أثبته إليهم وحفظه لهم .

وهذا القول الأخير هو اختيار ابن جرير ، ورواه ابن عباس ، ورد جواز القول الأول ، لأنه يلزمه فصل السورتين عن بعض .

وقيل : إنها للتعجب ، أى اعجبوا لإيلاف قريش ، حكاه القرطبي عن الكسائى والأخفش ، والقول الأول لغيره .

وروى أيضاً عن ابن عباس وغيره ، واستدلوا بقراءة السورتين معاً فى الصلاة فى ركعة قرأ بهما عمر بن الخطاب ، وبأن السورتين فى أبى بن كعب متصلتان ، ولا فصل بينهما .

وحكى القرطبي القولين ، ولم يرجح أحدهما ، ولا يبعد اعتبار الوجهين لأنه لا يعارض بعضها بعضاً .

وما اعترض به ابن جرير بأنه يلزم عليه اتصال السورتين فليس بلازم ، لأنه إن أراد اتصالهما فى المعنى ، فالقرآن كله متصلة سوره معنى .

ألا ترى إلى فاتحة الكتاب وفيها (اهدنا الصراط المستقيم) فجاءت سورة البقرة : (ذلك الكتاب لا ريب فيه) وبعدها ذكر

أوصافهم وقال (أولئك على هدى من ربهم) فأى ارتباط أقوى من هذا ، كأنه يقول : الهدى الذى تطلبونه فى هذا الكتاب فهو هدى المتقين ، وإن إراد اتصالا حساً بعدم البسملة ، فنظيرها سورة براءة مع الأنفال ، ولكن لا حاجة إلى ذلك ، لأن إجماع القراء على إثبات البسملة بينهما ، اللهم إلا مصحف أبى بن كعب ، وليس فى هذين الوجهين وجه أرجح من وجه .

ولذا لم يرجح بينهما أحد من المفسرين ، سوى ابن جرير رحمه الله :

وصحة الوجهين أقوى وأعم فى الامتنان وتعداد النعم .

والإيلاف : قيل من التأليف ، إذ كانوا فى رحلتيهم يألفون الملوك فى الشام واليمن ، أو كانوا هم فى أنفسهم مؤلفين ومجمعين ، وهو امتنان عليهم بهذا التجمع والتألف ، ولو سلط عليهم لفرقهم وشتتهم ، وأنشدوا :

أبونا قصى كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

وقيل : من الألف والتعود ، أى ألفوا الرحلتين .

فللابقاء لهم على ما ألفوه وقريش . قال أبو حيان : علم على القبيلة .

وقيل : أصلها من التقرش ، وهو الاجتماع أو التكسب والجمع .

وقيل : من دابة البحر المسماة بالقرش وهى أخطر حيواناته ، وهو مروى عن ابن عباس فى جوابه لمعاوية .

وأنشد قول تبع :

وقريش هى التى تسكن البحـــر بها سميت قريش قريشاً
تأكل الرث والسمين ولا تترك فيها لذى جناحين ريشا
هكذا فى البلاد حى قريش يأكلون البلاد أكلا كميشا
ولهـــم آخر الزمان نبى يكثر القتل فيهم والخموشا

وقوله تعالى : (رحلة الشتاء والصيف) هو تفسير لإيلاف سواء على ما كانوا يؤالفون بين الملوك فى تلك الرحلات ، أو ما كانوا يألفونه فيهما .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ .

المراد بالبيت : البيت الحرام ، كما جاء فى دعوة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ .

بمثابة التعليل لموجب أمرهم بالعبادة ، لأنه سبحانه الذى هيأ لهم هاتين الرحلتين اللتين كانتا سبباً فى تلك النعم عليهم ، فكان من واجبهم أن يشكروه على نعمه ويعبدوه وحده .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المعنى ، عند قوله تعالى : (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) وساق النصوص بهذا المعنى بما أغنى عن إعادته .

تنبيه

فى قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ربط بين النعمة وموجبها ، كالربط بين السبب والمسبب .

ففيه بيان لموجب عبادة الله تعالى وحده ، وحقه فى ذلك على عباده جميعاً ، وليس خاصاً بقريش .

وهذا الحق قرره أول لفظ فى القرآن ، وأول نداء فى المصحف ،

فالأول قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) كأنه يقول هو سبحانه مستحق للحمد ، لأنه رب العالمين ، أى خالقهم ورازقهم ، وراحمهم إلى آخره .

والثانى : (يا أيها الناس ، اعبدوا ربكم) .

ثم بين الموجب بقوله : (الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

ثم عدد عليهم نعمه بقوله : (الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) .

فهذه النعم تعادل الإطعام من جوع ، والأمن من خوف ، فى حق قريش ، ومن ذلك قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر) .

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها ، إلا ما كان استدراجا ، فقال فى شكر النعمة : (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وقال فى الكفران وعواقبه : (وضرب الله مثلا قرية كانت

آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

وبهذه المناسبة إن على كل مسلم أفراداً وجماعات ، أن يقابلوا نعم الله بالشكر ، وأن يشكروها بالطاعة والعبادة لله ، وأن يحذروا كفران النعم .

تنبيــه آخر

فى الجمع بين إطعامهم من جوع وأمنهم من خوف ، نعمة عظمى . لأن الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين هاتين معاً ، إذ لا عيش مع الجوع ، ولا أمن مــع الخوف . وتكمل النعمة باجتماعهما .

ولذا جاء الحديث « من أصبح معافى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه ، فقد اجتمعت عنده الدنيا بحذافيرها » .

تنبيــه آخر

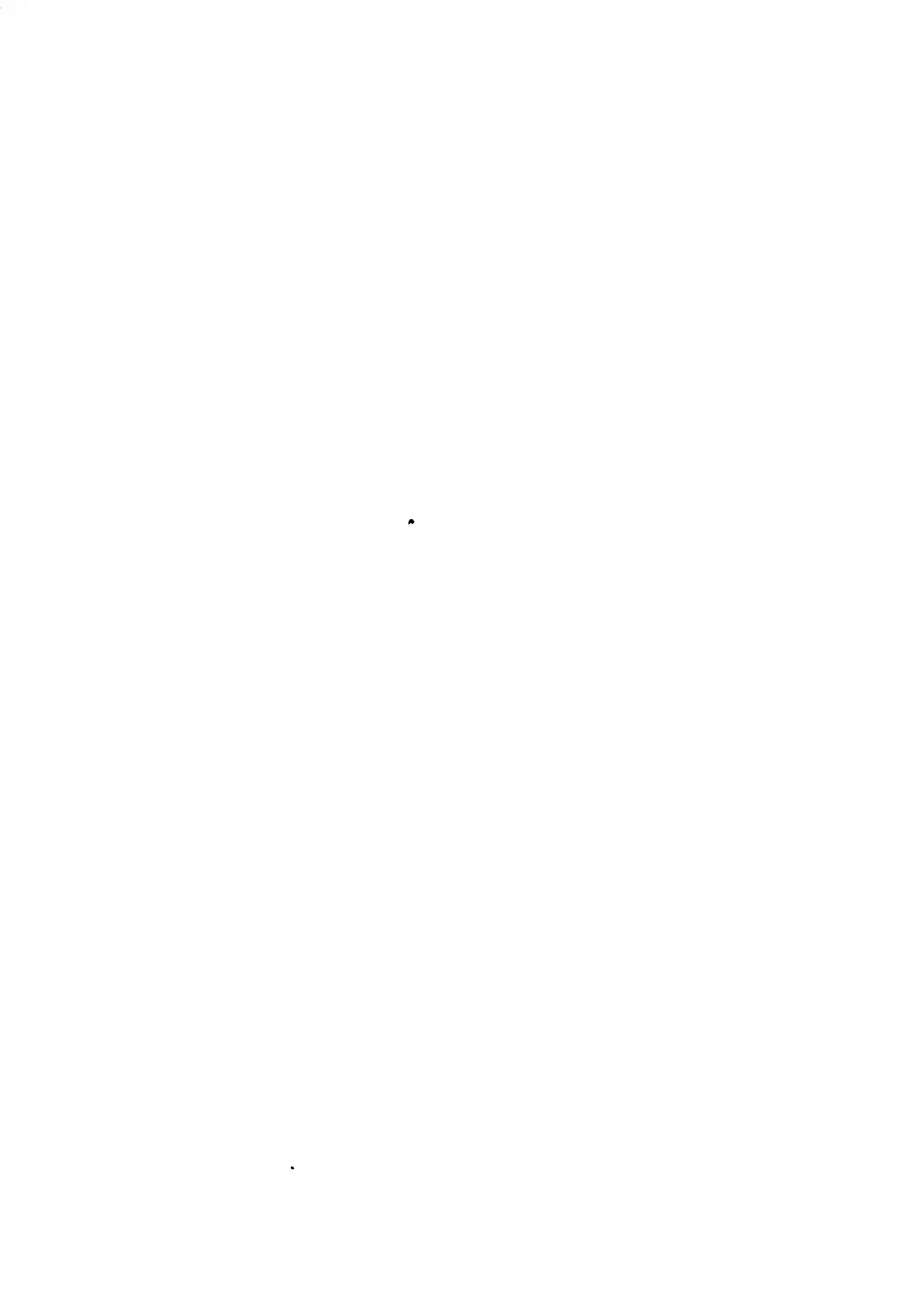
إن فى هذه السورة دليلا على أن دعوة الأنبياء مستجابة ، لأنه الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة السلام دعا لأهل الحرام بقوله :

(فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات) .

وقال : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك) فأطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف ، وبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الماعون



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ . فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ . وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ .

الذى يكذب بالدين ، فيه اسم الموصول مبهم بينه مابعده ، وهو الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين .

وقد بين تعالى فى آية أخرى ، أن الإيمان بيوم الدين يحمل صاحبه على إطعام اليتيم والمسكين ، فى قوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) .

ثم قال مبينا الدافع على إطعامهم إياهم : (إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) .

وهنا سؤال : وهو لم خص المكذبين بيوم الدين ممن يرتكب هذين الأمرين دع اليتيم ، وهو دفعه وزجره ، وعدم الحض على إطعام المسكين ، وبالتالى عدم إطعامه هو من عنده ؟

والجواب : أنهما نموذجان ، ومثالان فقط .

والأول منهما : مثال للفعل القبيح .

والثانى : مثال للترك المذموم .

ولأنهما عملان إن لم يكونا إسلاميين فهما إنسانيان ، قبل كل شيء .

وفى الآية الأخرى توجيه للجواب ، وهو أن المؤمن يخاف من الله يوماً عبوساً ، وعبر بالعبوس فى حق يوم القيامة ، لئلا يعبس هو فى وجه اليتيم والمسكين لضعفهما .

ومن جانب آخر فإن كان التكذيب بيوم الدين ، يحمل على كل الموبقات ، إلا أنها قد تجد مايمنع منها ، كالقتل والزنى والخمر لتعلق حق الآخرين ، وكذلك السرقة والنهب .

أما إيذاء اليتيم وضياع المسكين ، فليس هناك من يدفع عنه ، ولايمنع إيذاء هؤلاء عنهما ، وليس لديهما الجزاء الذى ينتظره أولئك منهم على الإحسان إليهم

وجبلت النفوس على ألا تبذل إلا بعوض ، ولا تكف إلا عن خوف ، فالخوف مأمون من جانبى اليتيم والمسكين ، والجزاء غير مأمول منهما ، فلم يبق دافع للاحسان إليهما ، ولا رادع عن الإساءة

لها إلا الإيمان بيوم الدين والجزاء ، فيحاسب الإنسان على مثقال الذرة من الخير .

وقيل : إن دع اليتيم : هو طرده عن حقه ، وعدم الحض على طعام المسكين : عدم إخراج الزكاة .

ولكن فى الآية مايمنع ذلك ، لأن الزكاة إنما يطالب بها المؤمن والسياق فيمكن يكذب بيوم الدين فلا زكاة .

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .

اختلف فى المصلين الذين توجه إليهم الوعيد بالويل هنا .

والجمهور : على أنهم الذين يسهون عن أدائها ، ويتساهلون فى أمر المحافظة عليها .

وقيل : عن الخشوع فيها وتدبر معانيها .

ولكن الصحيح أنه الأول .

وقد جاء عن عطاء وعن ابن عباس أنهما قالا : الحمد لله الذى قال عن صلاتهم ، ولم يقل فى صلاتهم ، كما أن السهو فى الصلاة لم يسلم منه أحد ، حتى أنه وقع من النبى صلى الله عليه وسلم لما سلم من ركعتين فى الظهر كما هو معلوم من حديث ذى اليدين ، وقال : « إنى

لا أنسى ، ولكنى أنسى لأسن » فكيف ينسيه الله ليسن للناس أحكام السهو ، ويقع الناس فى السهو بدون عمد منهم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » .

وقد عقد الفقهاء باب سجود السهو تصحيحاً لذلك .

لذلك بقى من المراد بالذين هم عن صلاتهم ساهون .

قيل : نزلت فى أشخاص بأعيانهم .

وقيل : فى كل من أخّر الصلاة عن أول وقتها ، أو عن وقتها كله ، إلى غير ذلك ، أو عن أدائها فى المساجد وفى الجماعة .

وقيل : فى المنافقين .

وفى السورة تفسير صريح لهؤلاء ، وهو قوله تعالى : (الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) .

والمرائى فى صلاته قد يكون منافقاً ، وقد يكون غير منافق .

فالرياء أعم من جهة ، والنفاق أعم من جهة أخرى ، أى قد يرائى فى عمل ما ، ويكون مؤمناً بالبعث والجزاء وبكل أركان الإيمان ، ولا يرائى فى عمل آخر ، بل يكون مخلصاً فيه كل الإخلاص .

والمنافق دائماً ظاهره مخالف لباطنه فى كل شىء ، لا فى الصلاة فقط .

ولكن جاء النص : بأن المراءاة فى الصلاة ، من أعمال المنافقين .

وجاء النص أيضاً . بأن منع الماعون من طبيعة الإنسان إلا المصلين ، كما فى قوله تعالى : (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين) .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان السهو عنها وإضاعتها عند قوله تعالى : (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً ، إلا من تاب) الآية .

وبيّن فى آخر المبحث تحت عنوان : مسألة فى حكم تاركى الصلاة جحداً أو كسلا . وزاده بياناً ، عند قوله تعالى : (والذين هم على صلاتهم يحافظون) فى دفع إيهام الاضطراب للجمع بين هذه الآية وآية (ما سلككم فى سقر) .

وذكر قول الشاعر :

* دع المساجد للعباد تسكنها *

على ما سنذكره بعد ، ثم نبه قائلا : إذا كان الوعيد عمن يسهو عنها فكيف عمن يتركها ؟! اهـ .

وقد تساءل بعض المفسرين عن موجب اقتران هذه الآية بالتي قبلها .

وأجابوا : بأن الكل من دوافع عدم الإيمان بالبعث ، ومن موجبات التكذيب بيوم الدين ، فهي مع ما قبلها في قوة ، فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، وعن صلاتهم ساهون ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون .

فجمعهم مع الأول ، ونص على وعيده الشديد ، وبيَّن وصفاً ولهم ، وهو أنهم يمنعون الماعون .

تنبيـه

في هذه السورة ، وفي آية (والذين هم على صلواتهم يحافظون) التي هي من صفات المؤمنين معادلة كبيرة .

إحداها : في المنافقين تاركي الصلاة أو مضيعيها .

والأخرى في المؤمنين المحافظين عليها ، أي أن الصلاة هي المقياس والحد الفاصل .

وعليه قوله صلى الله عليه وسلم : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن ترك الصلاة فقد كفر » .

أما أثر الصلاة فى الاسلام ، وعلى الفرد والجماعة ، فهى أعظم من أن تذكر .

وقد وجدنا بعض آثارها وهو المراءاة فى العمل ، أى ازدواج الشخصية والانعزال فى منع الماعون ، أى لا يمد يد العون ولو باليسير لمجتمعه الذى يعيش فيه ، وقد جاءت نصوص صريحة فى مهمة الصلاة عاجله وآجلة .

ففى العاجل قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ، ومن الفحشاء : دع اليتيم وعدم إطعام المسكين ، فى الدرجة الأولى .

ومنها : كل رذيلة منكرة ، فهى إذن سياج للإنسان يصونه عن كل رذيلة ، وهى عون على كل شديدة ، كما قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة) فجعلها قرينة الصبر فى التغلب على الصعاب ، وهى فى الآخرة نور ، كما قال تعالى : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) الآية . مع قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أمتى يأتون يوم القيامة غراً محجلين من أثر الوضوء » .

وقوله (يمنعون الماعون) قيل : فى الماعون الزكاة لقلتها ،

والماعون : القليل ، والماعون : المال فى لغة قريش .

وقيل : هو ما يعين على أى عمل ، ومنه الدلو والفأس والإبرة والقدر . ونحو ذلك .

وإذا كان السهو عن الصلاة يحمل على منع الماعون ، فإن من يمنع الماعون وهو الآلة أو الإناء يقضى به الحاجة ثم يرد ، كما هو بدون نقصان ، فلأن يمنع الصدقة أو الزكاة من باب أولى .

ومن هنا : لم يكن المنافق ليزكى ماله ولا يتصدق على محتاج ، بل ولا يقرض آخر قرضاً حسناً . ولذا نجد تفشى الربا فى المنافقين أشد وأكثر .

وهنا يأتى مبحثان :

الأول منهما : حكم الرياء وما حده ؟

والثانى : حكم العارية .

أما الرياء : فقيل هو مشتق من الرؤية ، والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمد عليها ، وقد جاء فى الحديث تسميته الشرك الخفى : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفى ،

قالوا : وما الشرك الخفى يا رسول الله ؟ قال : الرياء، فإنه أخفى فى نفوسكم من دبيب النمل ».

وجاء قوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً).

وبيان الشرك فيه أنه يعمل العمل مما هو أصلا لله، كالصلاة أو الصدقة أو الحج، ولكنه يظهره لقصد أن يحمده الناس عليه .

فكأن هذا الجزء منه مشاركة مع الله، حيث أصبح من عمله جزء لطلب الثناء من الناس عليه .

وقد جاء حديث أبى هريرة عند مسلم : يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك معى غيرى تركته وشركه » .

أما حكم الرياء فى العمل ، ففى هذا النص دلالة على رد العمل على صاحبه، وتركه له .

فقيل : إنه يكون لا له فيه، ولا عليه منه .

وقيل : لا يخلو من ذم ، كما حذر الله تعالى منه بقوله :

(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس) .

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من راءى راء الله به ، ومن سمع سمع الله به » رواه مسلم .

والتسميع : هو العمل ليسمع الناس به كما فى حديث الوليمة « فى اليوم الأول والثانى والثالث سمعة . ومن سمع سمع به » .

فالرياء مرجعه إلى الرؤية ، والتسميع مرجعه إلى السماع .

ومعلوم أنها نزلت فى قريش يوم بدر ، وقد أحبط الله عملهم ، وردهم على أعقابهم .

وفى حديث أبى هريرة . وقيل : إنه محبط للأعمال لمسمى الشرك لقوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

وأجيب : بأنه يحبط العمل الذى هو فيه فقط ، فإن راءى فى الصلاة أحبطها ولا يتعدى إلى الصوم ، وإن راءى فى صلاة نافلة لا يتعدى إحباطها إلى صلاة فريضة ، وهكذا ، قد يبدأ عملا خالصاً لله ، ثم يطرأ عليه شبح الرياء ، فهل يسلم له عمله أو يحبطه ما طرأ عليه من الرياء ؟

فقالوا : إن كان خاطرا ودفعه عنه فلا يضره ، وإن استرسل معه . فقد رجح أحمد وابن جرير ، عدم بطلان العمل نظراً لسلامة القصد ابتداء .

ودليلهم فى ذلك : ما روى أبو داود فى مراسيله عن عطاء الخراسانى أن رجلا قال : يا رسول الله ، إن بنى سلمة كلهم يقاتل ، فمنهم من يقاتل للدنيا ، ومنهم من يقاتل نجدة ، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله تعالى قال : « كلهم إذا كان أصل أمره ، أن تكون كلمة الله هى العليا »

وذكر عن ابن جرير : أن هذا فى العمل الذى يرتبط آخره بأوله ، كالصلاة والصيام .

أما ما كان مثل القراءة والعلم ، فإنه يلزمه تجديد النية الخالصة لله ، أى لأن كل جزء من القراءة ، وكل جزء من طلب العلم مستقل بنفسه ، فلا يرتبط بما قبله .

وهناك مسألة : وهى أن العبد يعمل العمل لله خالصاً ، ثم يطلع عليه بعض الناس ، فيحسنون الثناء عليه فيعجبه ذلك . فلا خلاف أنه ليس من الرياء فى شىء لما جاء فى حديث أبى ذر رضى الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يعمل من الخير يحمده الناس

عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم « عاجل بشرى المسلم » رواه مسلم .

وقد ذكر بعض العلماء : أن من كان يعمل عملا خفياً ، ثم حضر بعض الناس فتركه من أجلهم خشية الرياء ، أنه يدخل فى الرياء ، لأنه يضعف فى نفسه أن يخلص النية لله ، وفى هذا بُعد ومشقة .

أما منع الماعون وإعطاؤه ، وهو العارية كما تقدم .

فإن مبحث العارية فى ناحيتين : ما هى العارية ، والثانى : حكمها أواجب أم مباح ، وحكم ضمانها مضمونة أم لا ؟

أما تعريفها عند الفقهاء : هى إباحة الانتفاع بعين من أعيان المال ، مع بقاء عينه .

وقولهم مع بقاء عينه : كالقدر والفأس والإبرة والمنخل ، ونحو ذلك ، بخلاف مايكون إتلافه فى استعماله ، كالشمع للاضاءة ، والزيت للدهن ، والكحل للاكتحال ، ونحو ذلك ، مما تنفد عينه باستعماله ، فلا يكون عارية ، ولكن يكون قرضا ، والقرض يكون معاوضته بمثله .

أما حكم العارية . فقيل : جائز .

وقيل : بل واجب .

وقيل : مستحب .

وحكى ابن قدامة الإجماع على استحبابها ، ودليل من قال بالوجوب بنص الآية : (ويمنعون الماعون) ولحديث أبى هريرة رضى الله عنه فى حق الإبل لما ذكر الزكاة « وأن حقها إعارة دلوها ، وإطراق فحلها ، ومنحه لبنها ، يوم ورودها » .

والواقع أن هذا الحديث ذكر فيه ماليس بعارية قطعا ، مثل طرق الفحل ومنح اللبن ، مما يضعف الاستدلال به .

وقد ساق المجد فى المنتقى برواية أحمد ولهم .

أما الوعيد فى الآية فقالوا : هو منصب على الصفات الثلاث : السهو عن الصلاة ، والرياء فى العمل ، ومنع الماعون جميعا ، ومن اتصف بواحدة فله قدره من الوعيد بحسبه .

وأقل مايقال فيها ماجاء فى قوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) والحديث الصحيح فى حق الزكاة ، لما ذكر صلى الله عليه وسلم الذهب والفضة والإبل والبقر والخيل ، وقال : « ولا ينسى حق الله فى ظهورها » .

ثم سئل عن الحمر ، فقال : « لم أجد إلا الآية الشاذة الفاذة : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) » .

وإعارة المتاع إباحة المنفعة وهى خير كثير .

والحديث الآخر : « لايحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس »

ونقل الشوكانى عن الكشاف قولا : أنها تكون واجبة عند الاضطرار ، وقبيح فى غير الضرورة مروءة . اهـ .

والضرورة : مثل الدلو إذا وردت الماء ولا دلو معك ، وفى اضطرار إلى الماء .

وقياس الفقهاء : أنه لو تلف شيء بسبب ذلك لضمن المانع .

كما قالوا فى الامتناع فى بعض الصور : هل هو فعل أم ترك ؟ مثل من كان عنده خيط ، واحتيج إليه فى خياطة جرح إنسان ، أو قطنة فمات ، فهل يعد ترك إعطاء الخيط مجرد ترك لايؤاخذ عليه ، أو يعتبر فعلا لأنه تسبب عنه موت إنسان . ومثله منع الدلو ليروى أو يسقى إبله أو يشرب هو ؟

والصحيح عندهم : أن الترك فى مثل هذه الحالة يؤاخذ عليه مؤاخذة الفعل ، كما قال صاحب مراقى السعود .

* والترك فعل فى صحيح المذهب *

وهنا مايشهد له الاستعمال العربى الصحيح ، كما قيل فى بناء المسجد :

لئن قعدنا والنبى يعمل   لذاك منا العمل المضلل

فسمى القعود عن العمل عملا مضللا ، فيتحصل من هذا أن العارية مستحبة شرعا ومروءة وعرفا فى حالة الاختيار ، وواجبـــــة فى حالة الاضطرار ، مع ملاحظة أن حالات الاستعارة أغلبها اضطرار ، إلا أن حالات الاضطرار تتفاوت ظروفها .

وقد امتدح الله الأنصار بأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فالعارية من باب أولى ، لأنه ينتفع بها وترد لصاحبها .

وقد امتدح الشاعر القوم بعدم منعهم الماعون ، بقوله :

قوم على الإسلام ولما يمنعوا ماعونهم ويضيع التهليلا

وإن كان بعض الناس حمل الماعون هنا على الزكاة ، ولكن قول الشاعر : قوم على الإسلام ، يتضمن إخراجهم الزكاة ضمن إسلامهم ، فيكون الباقى امتداد حالهم فى خصوص الماعون .

بقى مبحث ضمانها : تختلف الأقوال فى ضمان العـارية ، فبعضهم يعتبرها أمانة ، وعليه فلا تكون مضمونة وهذا مذهب الحنفية والمالكية ، إذا لم يحصل منه تعد .

وعند الشـافعى وأحمد : أنهـا مضمونة ، إلا إذا كانت على الوجه المأذون فيه .

كما قالوا فى السيف : يستعيره فينكسر فى القتال فلا ضمان فيه .

واستدل من قال بضمانها بالحديث العام « على اليد ما أخذت ، حتى تؤديه » رواه المجد فى المنتقى ، وقال: رواه الخمسة إلا النسائى .

وبحديث صفوان بن أمية ، أن النبى صلى الله عليه وسلم استعار منه يوم حنين أذرعاً قيل ثلاثين ، وقيل ثمانين ، وقيل مائة . فقال: أغصباً يامحمد ؟ قال : « بل عارية مضمونة ، فقال : فضاع بعضها ، فعرض عليه النبى صلى الله عليه وسلم أن يضمنها له ، فقال : أنا اليوم فى الإسلام أرغب » رواه أحمد وأبوداود .

ونص الفقهاء : أن ضمانها بقيمتها يوم تلفت أو بمثلها ، إن كانت مثلية ، ويستدل له بما جاء فى قصعة حفصة لما ضربتها عائشة فسقطت على الأرض فانكسرت ، وانتثر الطعام . فأخذ صلى الله عليه وسلم قصعة عائشة وردها إلى حفصة ، وقال : « قصعة بقصعة ، وطعام بطعام » أى أن الضمان إما بالمثل إن كان مثليا ، أو بالقيمة إن كان مقوما .

وإذا كانت العارية مضمونة وحكمها الجواز ، فللمستعير طلب ردها متى شاء ، إلا إذا تعلقت بها مصلحة المستعير ، ولا يمكن ردها إلا بمضرة عليه .

قالوا : كمن أعار سفينة وتوسط بها المستعير عرض البحر ،

فلا يملك المعير ردها لتعذر ذلك وسط البحر .

وقيل : له طلبها ، وتكون بالأجرة على المستعير ، والأول أرجح .

وكالذى أعار أرضا للزرع ، وقبل أن يستحصد الزرع يطلبها صاحبها ، وهكذا . والله تعالى أعلم .

حكم من جحد العارية

إن حديث المرأة المخزومية مشهور ، وهو أنها كانت تستعير المتاع وتجحده ، فاشتهرت بذلك ، ثم أنها سرقت فقطعت فى السرقة ، لا فى جحد المتاع المستعار ، وهذا هو الأصح . لأن السرقة لاتكون إلا على وجه التخفى ومن حرز .

والاستعارة خلاف ذلك ، وإنما تدخل فى قوله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « على اليد ما أخذت حتى تؤديه »

وحديث « أدِّ الأمانة لمن ائتمنك ، ولا تخن من خانك » رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حديث حسن .

وهذا مجمل مباحث العارية ، وتفصيل فروعها فى كتب الفقه

أوجزنا منه مايتعلق بمنع الماعون وعدم جواز منعه ، ومايتعلق ببـذله ، وبالله تعالى التوفيق .

تنبيـــه

فى هـذه السورة بيـان منهج علمى يلزم كل باحث ، وهو جمع أطراف النصوص وعدم الاقتصار على جزء منه ، وذلك فى قوله تعالى : (فويل للمصلين) وهى آية مستقلة ، ولو أخذت وحدها لكانت وعيداً للمصلين .

كما قال الشاعر الماجن فى قوله :

دع المساجد للعباد تسكنها وسر إلى خانة الخمار يسقينا
ماقال ربك ويل للألى سكروا وإنما قال ويل للمصلينا

ولذا لابد من ضميمة مابعدها للتفسير والبيان ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، ثم فسر هذا التفسير أيضاً بقوله : (الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) .

ومثل هذه الآية من الحديث ، ماجاء عند ابن ماجه مانصه بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : « إن مسيرة المسجد تعطلت : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من عمّر مسيرة المسجد كتب له كفلان من الأجر » .

هذا الحديث وإن كان فى الزوائد ، قال عنه : فى إسناده ليث بن أبى سليم ضعيف ، إلا أنه نص فيما تمثل له لأن من اقتصر على جوابه صلى الله عليه وسلم اعتبر مسيرة المسجد أفضل ، ومن جمع طرق الحديث عرف المقصود منه .

ويتفرع على هذا ما أخذه مالك رحمه الله فى باب الشهادة : أن الشخص لايحق له أن يشهد على مجرد قول سمعه ، إلا إذا استشهدوه عليه ، وقالوا : أشهد عليه ، أو إلا إذا سمع الحديث من أوله مخافة أن يكون فى أوله ماهو مرتبط بآخره ، كما لو قال المتكلم للآخر : لى عندك فرس ، ولك عندى مائة درهم ، فيسمع قوله : لك عندى مائة درهم ، ولم يسمع ماقبلها . فإذا شهد على ماسمع كان إضرارا بالمشهود عليه ، وهذه السورة تدل لهذا المأخذ ، والله تعالى أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكوثر



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ .

الكوثر فوعل من الكثرة ، وأعطيناك قرىء : أنطيناك ، بإبدال العين نونا ، وليست النون مبدلة عن العين ، كإبدال الألف من الواو أو العين فى الأجوف ونحوه ، ولكن كلا منهما أصل بذاته ، وقراءة مستقلة . قاله أبو حيان .

واختلف فى الكوثر .

فقيل : علم .

وقيل : وصف .

وعلى العلمية قالوا : إنه علم على نهر فى الجنة ، وعلى الوصف قالوا : الخير الكثير .

ومما استدل به على العلمية ، ما جاء فى السنة من الأحاديث الصحاح . ذكرها ابن كثير وغيره .

وفى صحيح البخارى عن أنس قال : لما عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال « أتيت نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوف . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر) » .

وبسنده أيضاً عن عائشة رضى الله عنها « سئلت عن قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) قالت : هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم ، شاطئاه عليهما در مجوف ، آنيته كعدد النجوم » .

وبسنده أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه .

قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن الناس يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير ، الذى أعطاه الله إياه .

وذكر ابن كثير هذه الأحاديث وغيرها عن أحمد رحمه الله : ومنها بسند أحمد إلى أنس بن مالك قال : « أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة ، فرفع رأسه متبسماً إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه نزلت علىّ آنفاً سورة ، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، حتى ختمها ،

فقال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : نهر أعطانيه ربى عز وجل فى الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم ، فأقول : يارب إنه من أمتى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك » .

وذكر ابن كثير ماجاء فى صفة الحوض ، وهذه النصوص على أن الكوثر نهر فى الجنة ، أعطاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وفى الحديث الأخير عن الإمام أحمد قوله : « عليه خير كثير » يشعر بأن معنى الوصفية موجود .

ولذا قال بعض المفسرين : إنه الخير الكثير .

وممن قال ذلك ابن عباس ، كما تقدم فى حديث البخارى عنه

واستدلوا على المعنى، بقول الشاعر الكميت :

وأنت كثير يا بن مروان طيب وكان أبوك ابن الفضائل

والذى تطمئن إليه النفس أن الكوثر ، هو الخير الكثير ، وأن الحوض أو النهر من جملة ذلك .

وقد أتت آيات تدل على إعطاء الله لرسوله الخير الكثير ، كما جاء

فى قوله تعالى : (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) الآية .

وفى القريب سورة الضحى وفيها : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أعقبها بنعم جليلة من شرح الصدور ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، واليسر بعد العسر .

وبعدها فى سورة التين جعل بلده الأمين ، وأعطى المؤمنين الذين يعملون الصالحات أجراً غير ممنون .

وبعدها سورة اقرأ . امتن عليه بالقرآن ، وعلمه ما لم يكن يعلم .

وبعدها سورة القدر : أعطاه ليلة خيراً من ألف شهر .

وبعدها سورة البينة : جعل أمته خير البرية ، ومنحهم رضاه عنهم ، وأرضاهم عنه .

وبعدها سورة الزلزلة : حفظ لهم أعمالهم ، فلم يضيع عليهم مثقال الذرة من الخير .

وفى سورة العاديات : أكبر عمل الجهاد ، فأقسم بالعاديات فى سبيل الله ، والنصر على الأعداء .

وفى سورة التكاثر : تربيتهم على نعمه ليشكروها ، فيزيدهم من فضله .

وفى سورة العصر : جعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، تؤمن بالله وتعمل الصالحات ، وتتواصى بالحق وتدعو إليه ، وتتواصى بالصبر ، وتصبر عليه .

وبعدها فى سورة قريش : أكرم الله قومه ، فآمنهم وأعطاهم رحلتيهم .

وفى السورة التى قبلها مباشرة ، وهى سورة الماعون : يمكن عمل مقارنة تامة أولا

وفى الجملة ، لئن كان المنافقون يمنعون الماعون ، فقد أعطيناك الخير الكثير ، ثانياً .

وعلى التفصيل ففى الأولى : وصف المنافقين والمكذبين بدع اليتيم ، وفى الضحى قد بين له حق اليتيم (فأما اليتيم فلا تقهر) فكان هو خير موكل ، وخير كافل ، ووصفهم هنا بأنهم لا يحضون على طعام المسكين .

وقد أوضح له فى الضحى ، (وأما السائل فلا تنهر) فكان يؤثر السائل على نفسه ، وهؤلاء ساهون عن صلاتهم يراءون باعمالهم .

وفى هذه السورة (فصل لربك) أداء الصلاة وخالصة لربه ، وإطعام المسكين بنحر الهدى والضحية والصدقة ، وكل ذلك خير كثير ، يضاف إليه ما جاءت به السنة ، كما فى حديث : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة ، وحلّت لى المغانم، ولم تكن تحل لأحد قبلى . وكان النبى يبعث لقومه خاصة ، فبعثت للناس كافة ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصلّ » .

وقوله : « رفع لى عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » .

وفى قوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحمّلنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى قال : قد فعلت ، قد فعلت » .

وقوله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك

ربك مقاماً محموداً) ، وهو المقـــام الذى يغبطه عليه الأولون والآخرون .

إلى غير ذلك من النصوص ، بما يؤكد قول ابن عباس ، عند البخارى : إن الكوثر : الخير الكثير .

وأن النهر فى الجنة من هذا الكوثر الذى أعطيه صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ .

فى هذا مع ما قبله ربط بين النعم وشكرها ، وبين العبادات وموجبها ، فكما أعطاه الكوثر فليصل لربه سبحانه ولينحر له ، كما تقدم فى سورة لإيلاف قريش ، فى قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

وهناك (إنا أعطيناك الكوثر) وهو أكثر من رحلتيهم وأمنهم ، (فصل لربك) مقابل (فليعبدوا رب هذا البيت) .

وقيل : إنه لما كان فى السورة قبلها بيان حال المنافقين فى السهو عن الصلاة والرياء فى العمل ، جاء هنا بالقدوة الحسنة (فصل لربك) مخلصاً له فى عبادتك ، كما تقدم فى السورة قبلها (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وقوله تعالى فى تعليم الأمة ، فى خطاب شخصه صلى الله عليه وسلم

(لئن أشركت ليحبطن عملك) مع عصمته صلى الله عليه وسلم من أقل من ذلك ، والصلاة عامة والفريضة أخصها .

وقيل : صلاة العيد ، والنحر : قيل فيه أقوال عديدة :

أولها : في نحر الهدى أو نحر الضحية : وهي مرتبطة بقول من حمل الصلاة على صلاة العيد ، وأن النحر بعد الصلاة كما في حديث البراء بن عازب « لما ضحى قبل أن يصلى ، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الضحية بعد الصلاة ، فقال : إني علمت اليوم يوم لحم فعجلت بضحيتي ، فقال له : شاتك شاة لحم ؟ فقال : إن عندنا لعناقا أحبّ إلينا من شاة ، أفتجزىء عني ؟ قال : اذبحها ، ولن تجزىء عن أحد غيرك » .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث الضحية وافيا عند قوله تعالى : (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) وقد ذكروا في معاني : وانحر : أي ضع يدك اليمنى على اليسرى على نحرك في الصلاة ، وهذا مروى عن علىّ رضى الله عنه .

وأقوال أخرى ليس عليها نص .

والنحر : هو طعن الإبل في اللبة عند المنحر ملتقى الرقبة بالصدر .

وأصح الأقوال فى الصلاة .

وفى النحر هو ما تقدم من عموم الصلاة وعموم النحر أو الذبح لما جاء فى قوله تعالى : (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) .

واتفق الفقهاء أن النحر للإبل ، والذبح للغنم ، والبقر متردد فيه بين النحر والذبح ، وأجمعوا على ذلك هو الأفضل ، ولو عمم النحر فى الجميع ، أو عمم الذبح فى الجميع لكان جائزاً ، ولكنه خلاف السنة .

وقالوا : إن الحكمة فى تخصيص الإبل بالنحر ، هو طول العنق ، إذ لو ذبحت لكان مجرى الدم من القلب إلى محل الذبح بعيداً فلا يساعد على إخراج جميع الدم بيسر ، بخلاف النحر فى المنحر ، فإنه يقرب المسافة ويساعد القلب على دفع الدم كله ، أما الغنم فالذبح مناسب لها ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

قال البخارى ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : شانئك : عدوك اه

والأبتر : هو الأقطع الذى لا عقب له .

وأنشد أبو حيان، قول الشاعر :

لئيم بدت فى أنفه خنزوانة على قطع ذى القربى أجذ أباتر

وقال : شانئك : مبغضك .

وفى هذه الآية يخبر سبحانه تعالى : أن مبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأقطع .

فقيل : نزلت فى العاصى بن وائل .

قال لقريش : دعوه، فإنه أبتر لا عقب له ، إذا مات استرحتم، فأنزلها الله تعالى رداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد جاء مصداقها بالفعل فى قوله تعالى: فى غزوة بدر فى قوله تعالى (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) .

فقتل صناديد قريش ، وصدق الوعيد فيهم

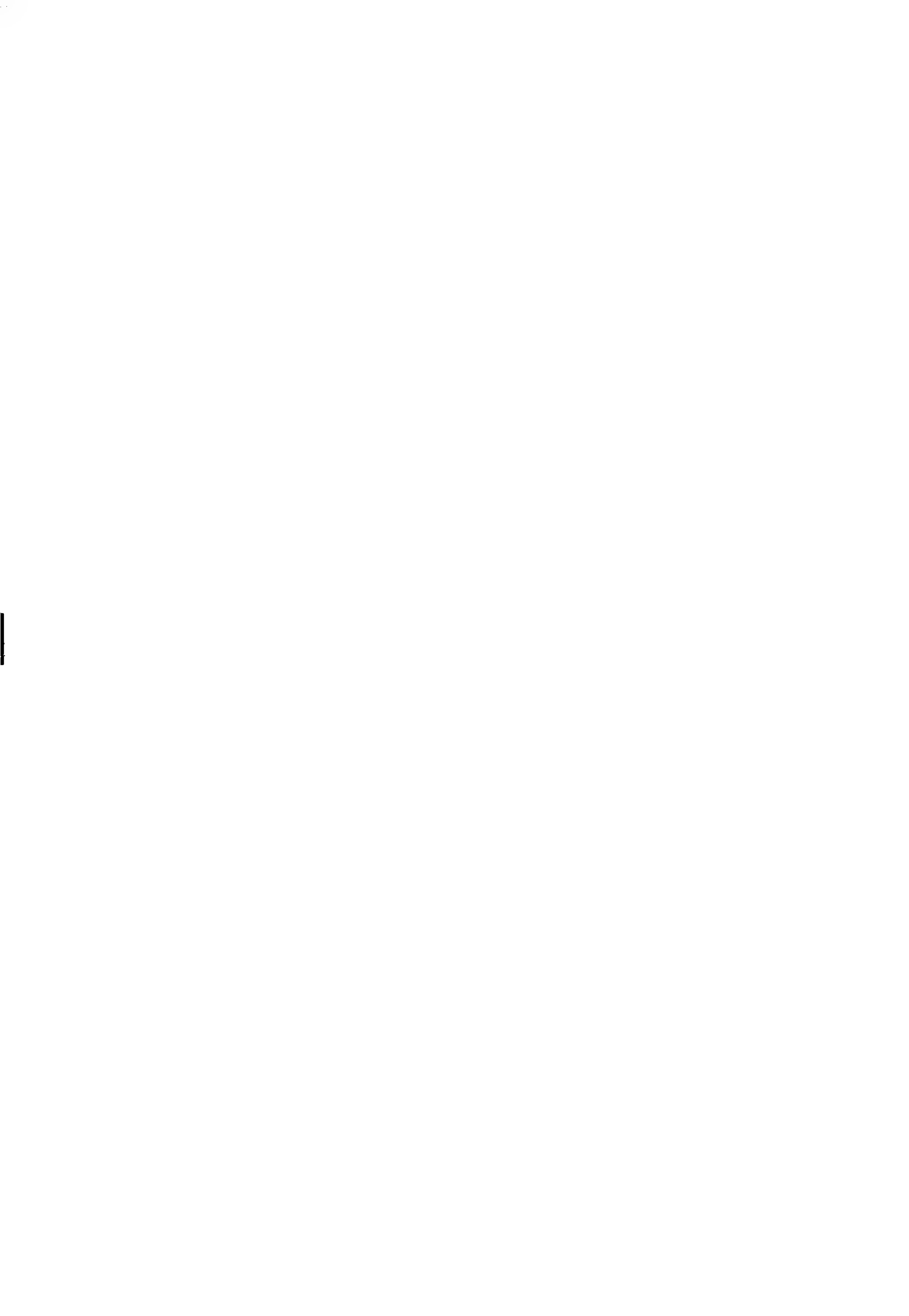
ومثله عموم قوله تعالى : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا . والحمد لله رب العالمين) .

وجاء : (تبت يدا أبي لهب وتب) .

فهي في معناها أيضاً .

وبقي ذكر رسول صلى الله عليه وسلم في عقبه من آل بيته ، وفي أمته كلها .

كما تقدم في قوله تعالى : (ورفعنا لك ذكرك) .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكافرون



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .

نداء للمشركين بمكة ، لما عرضوا عليه صلى الله عليه وسلم أن يترك دعوته ويملكوه عليهم أو يعطوه من المال ما يرضيه ونحوه فرفض ، فقالوا : تقبل منا ما نعرضه عليك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فسكت عنهم فنزلت ، وقالوا له : إن يكن الخير معنا أصبته ، وإن يكن معك أصبناه .

وفي مجيء : قل ، مع أن مقول القول كان قد يكفي في البلاغ ، ولكن مجيئها لغاية فما هي ؟

قال الفخر الرازي : إما لأنهم عابوه صلى الله عليه وسلم في السورة التي قبلها بقولهم : (إنه أبتر) فجاء قوله : (قل) إشعاراً بأن الله يرد عن رسوله بهذا الخطاب ، الذي ينادي عليهم في ناديهم بأثقل الأوصاف عليهم ، فقال له : (قل يا أيها الكافرون) .

أو أنه لما كان هذا الخطاب فيه مغايرة المألوف من تخاطبه معهم من أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ، وكان فيه من التقريع لهم ومجابهتهم ، قال له : قل : إشعاراً بأنه مبلغ عن الله ما أمر به ،

وجاءت يا ، وهى لنداء البعيد ، لبعدهم فى الكفر والعناد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾

قيل : تكرار فى العبارات للتوكيد ، كتكرار (ويل يومئذ للمكذبين) وتكرار : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

ونظيره فى الشعر أكثر من أن يحصر ، من ذلك ما أورده القرطبى رحمه الله :

هل لا سألت جموع كندة يوم ولو أين أينا

وقول الآخر :

يا علقمة يا علقمة يا علقمه خير تميم كلها وأكرمه

وقول الآخر :

يا أقرع بن حابس يا أقرع إنك إن يصرع أخوك تصرع

وقول الآخر :

ألا يا سلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقد جاءت فى أبيات لبعض تلاميذ الشيخ رحمه الله تعالى ، ضمن مساجلة له معه قال فيها :

تالله إنك قد ملأت مسامعي درًّا عليه قد انطوت أحشائي
زدني وزدني ثم زدني ولتكن منك الزيادة شافياً للداء

فكرر قوله: زدني ثلاث مرات .

وقيل: ليس فيه تكرار ، على أن الجملة الأولى عن الماضي والثانية عن المستقبل .

وقيل: الأولى عن العبادة ، والثانية عن المعبود .

وقيل غير ذلك ، على ماسيأتي إن شاء الله .

والسورة في الجملة نص على أنه صلى الله عليه وسلم لا يعبد معبودهم ، ولا هم عابدون معبوده ، وقد فسره قوله تعالى: (فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكلام على هذا المعنى ، عند آية يونس تلك ، وذكر هذه السورة هناك .

وقد ذكر أيضاً في دفع إيهام الاضطراب جوابا على إشكال في السورة وهو قوله تعالى: (لا أعبد ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) نفي لعبادة كل منهما معبود الآخر مطلقاً ، مع أننا قد آمن بعضهم فيما بعد وعبد مايعبده صلى الله عليه وسلم ، وأجاب عن ذلك بأحد أمرين: موجزهما أنها في جنس الكفار ، وإن أسلموا فيما بعد

فهو خطاب لهم ماداموا كفاراً إلى آخره ، أو أنها من العام المخصوص ، فتكون فى خصوص من حقت عليهم كلمات ربك . اهـ . ملخصا .

وقد ذكر أبو حيان وجهاً عن الزمخشرى : أن مايتعلق بالكفار خاص بالحاضر ، لأن ما إذا دخلت على اسم الفاعل تعينه للحاضر .

وناقشه أبو حيان ، بأن ذلك فى مغالب لا على سبيل القطع

والذى يظهر من سياق السورة ، قد يشهد لما ذهب إليه الزمخشرى ، وهو أن السورة تتكلم عن الجانبين على سبيل المقـابلة جهـة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهة الكفار فى عدم عبـادة كل منهمـا معبود الآخر .

ولـكنها لم يسـاو فى اللفظ بين الطرفين ، فمن جهـة الرسول صلى الله عليه وسلم جاء فى الجملة الأولى (لا أعبد ماتعبدون) عبر عن كل منهما بالفعل المضـارع الدال على الحال : أى لا أعبـد الآن ماتعبدون الآن بالفعل . ثم قال : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فعـبر عنهم بالإسمية وعنه هو بالفعلية ، أى ولا أنتم متصفون بعبادة ما أعبد الآن .

وفى الجملة الثانية قال : ولا أنا عابد ماعبـدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . فعبر عنه بأنه ليس متصفا بعبادة مايعبدون ولاهم عابدون مايعبد . فكان وصفه هو صلى الله عليه وسلم فى الجملتـين بوصفين مختلفين

بالجملة الفعلية تارة وبالجملة الإسمية تارة أخرى ، فكانت إحداهما لنفى الوصف الثابت ، والأخرى لنفى حدوثه فيا بعد .

أما هم فلم يوصفوا فى الجملتين إلا بالجملة الإسمية الدالة على الوصف الثابت ، أى فى الماضى إلى الحاضر ، ولم يكن فيا وصفوا به جملة فعلية من خصائصها التجدد والحدوث ، فلم يكن فيها ما يتعرض للمستقبل فلم يكن إشكال ، والله تعالى أعلم .

فإن قيل : إن الوصف باسم الفاعل يحتمل الحال والاستقبال ، فيبقى الإشكال محتملا .

قيل : ماذكره الزمخشرى من أن دخول ما عليه تعينه للحال ، يكفى فى نفى هذا الاحتمال ، فإن قيل : قد ناقشه أبو حيان .

وقال : إنها أغلبية وليست قطعية .

قلنا : يكفى فى ذلك حكم الأغلب ، وهو مايصدقه الواقع ، إذ آمن بعضهم وعبد معبوده صلى الله عليه وسلم ، وما فى قوله (ماتعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) واقعة فى الأولى على غير ذى علم ، وهى أصنامهم وهو استعمالها الأساسى .

وفى الثانية : فى حق الله تعالى وهو استعمالها فى غير استعمالها الأساسى ، فقيل : من أجل المقابلة ، وقد استعملت فيمن يعلم ، كقوله تعالى

(فأنكحوا ماطاب لـكم من النساء) لأنهن فى معرض الاستمتاع بهن ، فللقرينة جاز ذلك .

وقيل : إنها مع ماقبلها مصدرية ، أى ما مصدرية بمعنى عبادتكم الباطلة ، ولا تعبدون عباداتى الصحيحة .

وهذا المعنى قوى ، وإن تعارض مع ماذكر من سبب النزول ، إلا أن له شاهداً من نفس السورة ويتضمن المعنى الأول ، ودليله من السورة قوله تعالى فى آخر السورة : (لـكم دينكم ولى دين) فأحالهم على عبادتهم ، ولم يحلهم على معبودهم .

قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

هو نظير ماتقدم فى سورة يونس (أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) .

وكقوله : (لنا أعمالنا ولـكم أعمالـكم) .

وليس فى هذا تقريرهم على دينهم الذى هم عليه ، ولـكن من قبيل التهديد والوعيد كقوله :

(وقل الحق من ربـكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها) .

وفى هذه السورة قوله (قل يا أيها الكافرون) وصف يكفى بأن عباداتهم ودياناتهم كفر .

وقد قال لهم الحق (لا أعبد ماتعبدون) لأنها عبادة باطلة ، عبادة الكفار ، وبعد ذلك إن أبيتم إلا هى ، فلكم دينكم ولى دين .

تنبيــــه

فى هذه السورة منهج إصلاحى ، وهو عدم قبول ولا صلاحية أنصاف الحلول ، لأن ماعرضوه عليه صلى الله عليه وسلم من المشاركة فى العبادة ، يعتبر فى مقياس المنطق حلا وسطاً لاحتمال إصابة الحق فى أحد الجانبين ، فجاء الرد حاسماً وزاجراً وبشدة ، لأن فيه أى فيما عرضوه مساواة للباطل بالحق ، وفيه تعليق المشكلة ، وفيه تقرير الباطل ، إن هو وافقهم ولو لحظة .

وقد تعتبر هذه السورة مميزة وفاصلة بين الطرفين ، ونهاية المهادنة ، وبداية المجابهة .

وقد قالوا : إن ذلك بناء على ما أمره الله به فى السورة قبلها (إنا أعطيناك الكوثر) أى وإن كنت وصحبك قلة ، فإن معك الخير الكثير ، ولمجىء قل لما فيها من إشعار بأنك مبلغ عن الله ، وهو الذى ينصرك ، ولذا جاء بعدها حالا سورة النصر وبعد النصر : تبتْ العدو .

وهذا فى غاية الوضوح ، ولله الحمد .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النصر



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ .

فيه ذكر النصر والفتح ، مع أن كلا منهما مرتبط بالآخر ، فمع كل نصر فتح ، ومع كل فتح نصر .

فهل هما متلازمان أم لا ؟

كما جاء النصر مضافاً إلى الله تعالى ، والفتح مطلقاً .

أولا اتفقوا على نزول هذه السورة بعد فتح مكة .

ومعلوم : أنه سبق فتح مكة عدة فتوحات .

منها فتح خيبر ، ومنها صلح الحديبية ، سماه الله تعالى فتحاً في قوله : (فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

والنصر يكون في معارك القتال ويكون بالحجة والسلطان ، ويكون بكف العدو ، كما في الأحزاب . (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً) .

وكما في اليهود قوله : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا) .

فالنصر حق من الله ، (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

وقد علم المسلمون ذلك ، كما جاء في قوله تعالى : (مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فهم يتطلعون إلى النصر .

ويأتيهم الجواب (ألا إن نصر الله قريب) .

وجاء قوله صلى الله عليه وسلم : « نُصرت بالرعب مسيرة شهر »

وقد قال تعالى لموسى وأخيه (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى) فهو نصر معية وتأييد ، فالنصر هنا عام .

وكذلك الفتح في الدين بانتشار الإسلام ، وأعظم الفتح فتحان : فتح الحديبية ، وفتح مكة .

إذ الأول تمهيد للثاني ، والثاني قضاء على دولة الشرك في

الجزيرة ، ويدل لإرادة العموم فى النصر والفتح .

قوله تعالى ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ﴾

فكأن الناس يأتون من كل جهة حتى من اليمن ، وهذا يدل على كمال الدعوة ونجاح الرسالة .

ويدل لهذا مجىء آية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) ، وكان نزولها فى حج تلك السنة .

ويلاحظ أن النصر هنا جاء بلفظ نصر الله ، وفى غير هذا جاء نصر الله ، وما النصر إلا من عند الله .

ومعلوم أن هذه الإضافة هنا لها دلالة تمام وكمال ، كما فى بيت الله. مع أن المساجد كلها بيوت لله ، فهو مشعر بالنصر كل النصر ، أو بتمام النصر كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفتح ، هنا قيل : هو فتح مكة ، وقيل فتح المدائن وغيرها .

وتقدمت الإشارة إلى فتوحات عديدة ، قبل مكة .

وهناك فتوحات موعود بها بعد فتح مكة نص صلى الله عليه وسلم

عليها منها في غزوة الأحزاب وهم ، يحفرون الخندق ، لما اعترضتهم كدية وأعجزتهم ، ودعى إليهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخذ ماء وتمضمض ودعا ما شـاء الله أن يدعو ثم ضرب ، فـكانت كالـكثيب .

وقد جاء فيها ابن كثير بعدة روايات وطرق مختلفة ، وكلها تذكر أنه صلى الله عليه وسلم ضرب ثلاث ضربات ، فأبرقت تحت كل ضربة برقة ، وكبّر صلى الله عليه وسلم عند كل واحدة منهـا ، فسألوه فقال « في الأولى : أعطيت مفاتيح فارس » وذكر اليمن والشام ، وكلها روايات لا تخلو من نقاش ، ولـكن لـكثرتها يقوى بعضها بعضاً .

وأقواها رواية النسائي بسنده قال : « لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر ، فقـام النبي صلى الله عليه وسلم وأخـذ المعول ووضع رداءه ناحية الخندق ، وقال : وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ، فندر ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر ، فبرق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم برقة ثم ضرب الثانية ، وقرأ ما قرأه أولا ، وبرقت أيضاً . ثم الثالثة ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تـكسرت ، فأخذ رداءه صلى الله عليه وسلم

وجلس ، فسأله سلمان لما رآى من البرقات الثلاث : فقال له : أرأيت ذلك ؟ قال : أى والذى بعثك بالحق يا رسول الله ، فأخبرهم أنه رفعت له فى الأولى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رآها بعينه ، فقالوا : ادعو الله لنا أن يفتح علينا .

فدعا لهم ، وفى الثانية : رفعت له مدائن قيصر وما حولها ، وفى الثالثة مدائن الحبشة ، وكلها يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم فتفتح عليهم ، فدعا لهم إلا فى الحبشة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دعوا الحبشة ما ودعوكم . واتركوا الترك ما تركوكم » انتهى ملخصاً .

وقد رواه كل من ابن كثير والنسائى مطولا ، فهذه الروايات وإن كانت تحتمل مقالا .

فقد جاء فى الموطإ ما لا يحتمل مقالا ، ولا شك فى صحته ، ولا فى دلالته ، وهو ما رواه مالك عن هشام عن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير عن سفيان بن أبى زهير أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يفتح اليمن فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وتفتح الشام ، فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة

خير لهم لو كانوا يعلمون ، ويفتح العراق فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

فهذا نص صحيح صريح منه صلى الله عليه وسلم فى حياته بفتح اليمن والشام والعراق ، ومافتحت كلها إلا من بعده صلى الله عليه وسلم إلا اليمن .

ويؤيد هذا القول ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، إذ قال : الله أكبر ، الله أكبر ، جاء نصر الله والفتح ، جاء أهل اليمن ، قيل : يارسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » رواه ابن كثير عنه .

وقد كان فتح مكة عام ثمان من الهجرة ، وجاءت الوفود فى دين الله أفواجا عام تسع منها ، وجاء وفد اليمن وأرسل صلى الله عليه وسلم عماله إلى اليمن بعد فتح مكة ، وقدم عليه علىّ رضى الله عنه من اليمن فى العام العاشر فى موسم الحج ، ففتحت اليمن بعد فتح مكة فى حياته صلى الله عليه وسلم .

وعليه : تكون فتوحات قد وقعت بعد فتح مكة ، يمكن أن يشملها هنا قوله تعالى : (والفتح) ، وليس مقصوراً على فتح مكة كما قالوا .

وقد يؤخذ بدلالة لإيماء : الوعد بفتوحات شاملة ، لمناطق شاسعة من قوله تعالى : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) لأن الإتيان من كل فج عميق ، يدل على الإتيان إلى الحج من بعيد ، والإتيان إلى الحج يدل على الإسلام ، وبالتالى يدل على مجىء المسلمين من بعيد . وهو محل الاستدلال والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

تقدم الكلام على التسبيح ومتعلقه وتصريفه .

وهنا قرن التسبيح بحمد الله ، وفيه ارتباط لطيف بأول السورة وموضوعها ، إذ هى فى الدلالة على كمال مهمة الرسالة بمجىء نصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ولدينه . ومجىء الفتح العام على للسلمين لبلاد الله بالفعل أو بالوعد الصادق كما تقدم ، وهى نعمة تستوجب الشكر ويستحق مولها الحمد .

فكان التسبيح مقتراً بالحمد فى مقابل ذلك وقوله : (بحمد ربك) ليشعر أنه سبحانه المولى للنعم ، كما جاء فى سورة الضحى فى قوله تعالى (ماودعك ربك وما قلى) .

وقوله فى سورة اقرأ : (اقرأ باسم ربك) وتكرارها (اقرأ

وربك الأكرم) لأن صفة الربوبية مشعرة بالإنعا .

وقوله : (واستغفره) قال البعض : إن الاستغفار عن ذنب فما هو . وتقدم الكلام على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند قوله تعالى : (ووضعنا عنك وزرك) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن التوبة دعوة الرسل ، ولو بدأنا من آدم عليه السلام مع قصته ففيها (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) ، ومعلوم موجب تلك التوبة .

ثم نوح عليه السلام يقول : (رب اغفر لى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) الآية .

وإبراهيم عليه السلام يقول : (وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

وبناء عليه قال بعض العلماء : إن الاستغفار نفسه عبادة كالتسبيح ، فلا يلزم منه وجود ذنب .

وقيل : هو تعليم لأمته .

وقيل : رفع لدرجاته صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء فى السنة ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : « توبوا إلى الله ،

فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة » ، فتكون أيضاً من باب الاستكثار من الخير ، والإنابة إلى الله .

تنبيـــه

جاء فى التفسير عند الجميع أنه صلى الله عليه وسلم منـذ أن نزلت هـذه السورة وهو لم يكن يدع قوله : « سبحانك اللهم وبحمـدك » تقول عائشة رضى الله عنها : « يتأول القرآن » أى يفسره ، ويعمل به .

ونقل أبوحيـان عن الزمخشرى أنه قال : والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين ، من الجمع بين الطاعة والاحتراز من المعصية ، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأمته ، ولأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس فهو عبادة فى نفسه .

وفى هذا لفت نظر لأصحاب الأذكار والأوراد الذين يحرصون على دوام ذكر الله تعالى ، حيث هذا كان من أكثر مايداوم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع ماورد عنه صلى الله عليه وسلم فى أذكار الصباح والمساء دون الملازمة على ذكر اسم من أسماء الله تعالى وحده، منفرداً مما لم يرد به نص صحيح ولاصريح .

ولاشك أن الخير كل الخير فى الاتباع لا فى الابتداع ، وأى خير

أعظم مما اختاره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فى آخر حياته ، ويأمر به ، ويلازم هو عليه .

وقلنا فى آخر حياته : لأنه صلى الله عليه وسلم توفى بعدها بمدة يسيرة .

وفى هذه الآية دلالة الإيماء ، كما قالوا : ودلالة الالتزام كما جاء عن ابن عباس فى قصة عمر رضى الله عنه مع كبار المهاجرين والأنصار ، حينما كان يسمح له بالجلوس معهم ، ويرى فى وجوههم ، وسألوه وقالوا :

إن لنا أولادا فى سنه ، فقال : إنه من حيث علمتم .

وفى يوم اجتمعوا عنده فدعاه عمر ، قال ابن عباس : فعلمت أنه مادعانى إلا لأمر ، فسألهم عن قوله تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح) السورة .

فقالوا : إنها بشرى بالفتح وبالنصر ، فقال : ماتقول أنت ياابن عباس ؟

قال : فقلت ، لا والله ، إنها نعت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرنا .

فقال عمر : وأنا لا أعرف فيها إلا كما قلت ، أى أنه

صلى الله عليه وسلم جاء لمهمة ، وقد تمت بمجىء النصر والفتح والدخول في الدين أفواجا .

وعليه يكون قد أدى الأمانة وبلّغ الرسالة . فعليه أن يتأهب لملاقاة ربه ليلاقى جزاء عمله ، وهو مأخذ فى غاية الدقة ، وبيان لقول علىّ رضى الله عنه : أو فهم أعطاه الله من شاء فى كتاب الله .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ المَسَدِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .

التب : القطع .

ومن المادة : بت بتقديم الباء ، فهى تدور على معنى القطع ، كما يفيده فقه اللغة فى دوران المادة على معنى واحد .

وقال : التب ، والتبب ، والتباب ، والتبيب ، والتتبيب : النقص والخسار ، إلى أن قال : وتبت يداه : ضلتا وخسرتا .

وقال الفخر الرازى : التبات : الهلاك ، ونظيره قوله تعالى : (وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى فى هلاك .

وذلك لأن أبا لهب أهلك نفسه بفساد اعتقاده وسوء فعاله ، كما جاء فى السنة قول الأعرابى : هلكت وأهلكت : أى بوقاعه أهله فى رمضان ، وجاء قوله تعالى : (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) .

فقالوا : غير خسران ، والخسران يؤدى إلى الهلاك ، والقطع .

كما جاء فى معناه فى قصة صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . وله تعالى : (فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير) فظهر من هذا كله أن معنى : تبت يدا أبى لهب ، دائر بين معنى القطع والهلاك والخسران .

أما قطعها فلم يقدر عليه قطع يديه قبل موته .

وأما الهلاك والخسران : فقد هلك بالغدة .

وأما الخسران : فما أشد خسرانه بعد هذا الحكم عليه من الله تعالى .

وإذا كان المعنى قد تعين بنص القرآن فى الهلاك والخسران ، فما معنى إسناد التب لليدين ؟

الجواب : أن ذلك من باب إطلاق البعض وإرادة الكل كما تقدم فى قوله تعالى : (ناصية كاذبة) مع أن الكاذب هو صاحبها .

وقد قدمنا هناك أن مثل هذا الأسلوب لابد فيه من زيادة اختصاص الجزء المنطوق فى المعنى المراد .

لما كان الكذب يسوّد الوجه ويذل الناصية ، وعكسه الصدق يبيض الوجه ويعز الناصية ، أسند هناك الكذب إلى الناصية لزيادة اختصاصها بالكذب عن اليد مثلا .

ولما كان الهلاك والخسران غالباً بما تكسبه الجوارح واليد أشد اختصاصاً فى ذلك أسند إليها التب .

ومما يدل على أن المراد صاحب اليدين ، ما جاء بعدها ، قوله تعالى : (وتب) أى أبو لهب نفسه .

وسواء كان قوله تعالى : (تبت يدا أبى لهب) على سبيل الإخبار أو الإنشاء ، فإنه محتمل من حيث اللفظ .

ولكن قوله تعالى بعده : (وتب) فهو إخبار ، فيكون الأول للانشاء كقوله : (قتل الإنسان ما أكفره) .

ثم جاء الثانى تصديقاً له ، وجاءت قراءة ابن مسعود (وقد تب)

قوله تعالى ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾

سواء كانت ما استفهامية فهو استفهام إنكار ، أو كانت نافية

فإنه نص ، على أن ماله لم يغن عنه شـــيئاً .

وقوله : (وما كسب)

فقيل : أى من المـال الأول ما ورثه أو ما كسب من عمل جرّ عليه هذا الهلاك ، وهو عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونظير هذه الآية المتقدمة (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) .

وتقدم الـكلام عليه هناك .

وتقدم للشيخ رحمه الله تعـالى علينا وعليه بيان معنى (ما أغنى عنه ماله وما كسب) عند قوله تعالى : (من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم).

وساق كل النصوص فى هذه المعنى بتمامها .

تنبيــه

فى هذه الآية سؤالان هما :

أولا : لقد كان صلى الله عليه وسلم مع قومه فى مكة ملاطفاً حليما ، فكيف جاء به عمه بهذا الدعاء : (تبت يدا أبى لهب) ؟ والجواب:

أنه كان يلاطفهم ما دام يطمع فى إسلامهم ، فلما يئس من ذلك ، كان هذا الدعاء فى محله ، كما وقع من إبراهيم عليه السلام ، كان يلاطف أباه (يا أبت لا تعبد الشيطان) . (يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً) فلما يئس منه تبرأ منه كما قال تعالى : (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) .

والسؤال الثانى : وهو مجىء قوله تعالى (وتب) بعد قوله (تبت يدا أبى لهب) مع أنها كافية سواء كانت إنشاء للدعاء عليه أو إخباراً بوقوع ذلك منه .

والجواب ، والله تعالى أعلم : أن الأول لما كان محتملا الخبر ، وقد يمحو الله ما يشاء ويثبت ، أو إنشاء وقد لا ينفذ كقوله : (قُتل الإنسان ما أكفره) ، أو يحمل على الذم فقط ، والتقبيح فجاء « وتب » لبيان أنه واقع به لا محالة ، وأنه ممن حقت عليهم كلمات ربك ليبأس صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون من إسلامه ؛ وتنقطع الملاطفة معه ، والله تعالى أعلم .

وقد وقع ما أخبر الله به ، فهو من إعجاز القرآن أن وقع ما أخبر به ، كما أخبر ولم يتخلف .

(وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) . وقوله : (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون) .

نسأل الله العافية ، إنه سميع مجيب .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإخلاص



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ .

الأحـــد :

قال القرطبي : أى الواحد الوتر ، الذى لاشبيه له ولا نظير ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا شريك . ا هـ .

ومعلوم أن كل هذه المعانى صحيحة ، فى حقه تعالى .

وأصل أحد : وحد ، قلبت الواو همزة .

ومنه قول النابغة :

كأن رحلى وقد زال النهار بنا　　بذى الجليل على مستأنس وحد

وقال الفخر الرازى فى أحد وجهان :

أحدهما : أنه بمعنى واحد .

قال الخليل : يجوز أن يقال : أحد اثنان ثلاثة ، ثم ذكر أصلها وحد ، وقلبت الواو همزة للتخفيف .

والثانى : أن الواحد والأحد ليسا اسمين مترادفين .

قال الأزهرى : لايوصف شىء بالأحدية غير الله تعالى ، لايقال: رجل أحد ولا درهم أحد ، كما يقال : رجل واحد أى فرد به ، بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلايشركه فيها شىء .

ثم قال : ذكروا فى الفرق بين الواحد والأحد وجوها :

أحدها : أن الواحد يدخل فى الأحد ، والأحد لايدخل فيه .

وثانيها : أنك لوقلت : فلان لايقاومه واحد ، جاز أن يقال: لـكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد .

فإنك لو قلت : فلان لا يقـاومه أحد ، لايجوز أن يقال : لـكنه يقاومه اثنان .

وثالثها : أن الواحد ، يستعمل فى الإثبـات ، والأحد يستعمل فى النفى .

تقول فى الإثبات : رأيت رجلا واحدا .

وتقول فى النفى : مارأيت أحداً ، فيفيد العموم .

أما مانقله عن الخليل ، وقد حكاه صاحب القاموس فقال : ورجل وحد وأحد ، أى خلافا لما قاله الأزهرى .

وأما قوله : إن أحداً تستعمل فى النفى فقد جاء استعمالها فى الإثبات أيضاً .

كقوله : (أو جاء أحد منكم من الغائط) .

فتكون أغلبية فى استعمالها ودلالتها فى العموم واضحة .

وقال فى معجم مقاييس اللغة فى باب الهمزة والحاء وما بعدها : أحد ، إنها فرع والأصل الواو وحد .

وقد ذكر فى الواو وفى مادة وحد . قال : الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد ، من ذلك الوحدة بفتح الواو وهو واحد قبيلته ، إذا لم يكن فيهم مثله .

قال :

يا واحد العرب الذى ما فى الأنام له نظير

وقيل : إن هذا البيت لبشار يمدح عقبة بن مسلم ، أو إلى ابن المولى يزيد بن حاتم ، نقلا عن الأغانى .

فيكون بهذا ثبت أن الأصل بالواو والهمزة فرع عنه .

وتقدم أن دلالتها على العموم أوضح أى أحد .

وقد دلت الآية الكريمة ، على أن الله سبحانه وتعالى أحد ، أى فى ذاته وصفاته لاشبيه ولا شريك ، ولا نظير ولا ند له ، سبحانه وتعالى .

وقد فسره ضمنا قوله : (ولم يكن له كفوا أحد) .

وقوله : (ليس كمثله شيء) أما المعنى العام فإن القرآن كله ، والرسالة المحمـدية كلها ، بل وجميع الرسالات ، إنما جاءت لتقرير هذا المعنى ، بأن الله سبحانه واحد أحد . بل كل ما في الوجود شاهد على ذلك .

كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

أما نصوص القرآن على ذلك فهي أكثر من أن تحصى، لأنهـا بمعنى لا إله إلا الله .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إشارة إلى ذلك في أول الصافات وفي غيرها ، وفي البقرة (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم).

وفي التوبة : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو) فجاء مقرونا بلا إله إلا الله .

وفي ص قوله : (قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهـار) .

وكما قدمنا أن الرسالة كلها جاءت لتقرير هـذا المعنى ، كما في قوله : (هذا بلاغ للنـاس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد)

سبحانه جل جلاله وتقدست أسماؤه ، وتنزهت صفاته ، فهو واحد أحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله

وقد جاء القرآن بتقرير هذا المعنى عقلا كما قرره نقلا ، وذلك في قوله تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا) .

وقوله : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

فدل على عدم فسادها بعدم تعددهما ، وجمع العقل والنقل في قوله : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون) .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .

قال بعض المفسرين : يفسره مابعده (لم يلد ولم يولد) .

وقال ابن كثير ، وهذا معنى حسن .

وقال بعض العلماء : هو المتناهي في السؤدد ، وفي الكمال من كل شيء

وقيل : من يصمد الخلائق إليه في حاجاتهم ، ولا يحتـــاج هو إلى أحد .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، معنى الصمد فى سورة الأنعام عند قوله تعالى : (وهو يطعم ولا يطعم) ، فذكر شواهد هذه الأقوال كلها .

وبإمعان النظر فى مبدأ يفسره مابعده ، يتضح أن السورة كلها تفسير لأولها (قل هو الله أحد) لأن الأحدية ، هى تفرده سبحانه بصفات الجلال والكمال كلها ، ولأن المولود ليس بأحد ، لأنه جزء من والده .

والوالد ليس بأحد ، لأن جزءاً منه فى ولده .

وكذلك من يكون له كفء ، فليس بأحد لوجود الكفء ، وهكذا السورة كلها لتقرير (قل هو الله أحد) .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان شواهده عند قوله تعالى : (الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك) الآية من سورة الإسراء .

تنبيه

نفى اتخاذ الولد لا يستلزم نفى الولادة ، لأن اتخاذ الولد قد يكون

بدون ولاذة كالتبنى أو غيره ، كما فى قصة يوسف فى قوله تعالى عن عزيز مصر : (أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) .

ففى هذه السورة نفى أخص ، فلزم التنبيه عليه فى هـذه السورة الكريمة وهى سورة الإخلاص . والتى تعدل ثلث القرآن لاختصاصها بحق الله تعالى فى ذاته وصفاته من الوحدانية والصمدية ، ونفى الولادة والولد ، ونفى الكفء ، وكلها صفات انفراد لله سبحانه .

وقد جاء فيها النص الصريح بعدم الولادة ، وأنه سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد ، فهى أخص من تلك ، وهـذا من المسلمات عنـد المسلمين جميعا بدون شك ولا نزاع . ولم يؤثر فيها أى خلاف .

ولـكن غير المسلمين لم يسلموا بذلك ، فاليهود قالوا : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله .

فاتفقوا على ادعاء الولد لله ، ولم يدع أحد أنه سبحانه مولود .

وقد جاءت النصوص الصريحة فى نفى الولد عن الله سبحانه وتعالى، إلا أن مجرد النص الذى لم يؤمن به الخصم لايكفى لإقناعه ، وفى هذه السورة وهى المختصة بصفات الله ، لم يأت التنويه فيها عن المانع من اتخاذ الله للولد ، ومن كونه سبحانه لم يولد .

ولما كان بيان المانع أو الموجب من منهج هذا الكتاب، إذا كان يوجد للحكم موجب أو مانع ولم تتقدم الإشارة إلى ذلك ، فيما تقدم من كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مع أنه رحمه الله ، قد تكلم على آيات الأسماء والصفات جملة وتفصيلا ، بما يكفي ويشفي .

ولكن جاء في القرآن الكريم ذكر ادعاء الولد لله ،سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا .

وجاء الرد من الله تعالى مع بيان المانع مفصلا مع الإشعار بالدليل العقلي ، ولذا لزم التنويه عليه ، وذلك في قوله تعالى : (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل ، مافي السماوات والأرض كل له قانتون ، بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

فهذا نص صريح فيما قالوه : (اتخذ الله ولدا) .

ونص صريح في تنزيه الله سبحانه وتسبيحه عما قالوا .

ثم جاء حرف الإضراب عن قولهم : (بل له مافي السماوات والأرض كل له قانتون) ، ففيه بيان المانع عقلا من اتخاذ الولد بما يلزم الخصم ، وذلك أن غاية اتخاذ الولد أن يكون باراً بوالده ، وأن ينتفع الوالد بولده ، كما في قوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) أو يكون الولد وارثا لأبيه كما في قوله تعالى عن نبي الله تعالى زكريا عليه السلام :

(وهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب) الآية .

والله سبحانه وتعالى حىٌّ باقٍ يرث ولا يورث كما قال تعالى :
(كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك) الآية

وقوله : (ولله ميراث السماوات والأرض) .

فإذا كان لله سبحانه وتعالى كل مافى السماوات والأرض فى قنوت وامتثال طوعاً أو كرهاً ، كما قال تعالى : (وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل مافى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا)

فهو سبحانه وتعالى ليس فى حاجة إلى الولد لغناه عنه .

ثم بين سبحانه قدرته على الإيجاد والإبداع فى قوله تعالى :
(بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)

وهذا واضح فى نفى الولد عنه سبحانه وتعالى .

وقد تمدح سبحانه فى قوله : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبّره تكبيرا) .

أما أنه لم يولد . فلم يدع أحد عليه ذلك ، لأنه ممتنع عقلا ، بدليل الممانعة المعروف وهو كالآتى :

لوتوقف وجوده سبحانه على أن يولد لكان فى وجوده محتاجا إلى من يوجده ، ثم يكون من يلده فى حاجة إلى والد ، وهكذا يأتى الدور والتسلسل وهذا باطل .

وكذلك فإن الحاجة إلى الولد ينفيها معنى الصمدية المتقدم ذكره، ولو كان له والد لكان الوالد أسبق وأحق ، تعالى الله عن ذلك .

وقد يقال : من جانب الممانعة العقلية لو افترض على حد قوله : (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) .

فنقول على هذا الافتراض : لو كان له ولد فما مبدأ وجود هذا الولد وما مصيره ؟ فإن كان حادثا فمتى حدوثه ؟ وإن كان قديما تعدد القدم . وهذا ممنوع .

ثم إن كان باقياً تعدد البقاء ، وإن كان منتهيا فمتى انتهاؤه ؟

وإذا كان مآله إلى الانتهاء فما الحاجة إلى إيجاده مع عدم الحاجة إليه ، فانتفى اتخاذ الولد عقلا ونقلا ، كما انتفت الولادة كذلك عقلا ونقلا .

وقد أورد بعض المفسرين سؤالا فى هذه الآية ، وهو لماذا قدم نفى الولد على نفى الولادة ؟ مع أن الأصل فى المشاهد أن يولد ثم يلد ؟

وأجاب بأنه من تقديم الأهم لأنه رد على النصارى فى قولهم : عيسى ابن الله ، وعلى اليهود فى قولهم : عزير ابن الله ، وعلى قول المشركين : الملائكة بنات الله ، ولأنه لم يدع أحد أنه سبحانه مولود لأحد ، فكانت دعواهم الولد لله فرية عظمى . اه .

كما قال تعالى : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) .

وقوله : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا) .

فلشناعة هذه الفرية قدم ذكرها ، ثم الرد على عدم إمكانها بقوله : (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدًا إن كل من فى السماوات والأرض الا آتى الرحمن عبدا) .

وقد قدمنا دليل المنع عقلا ونقلا .

وهنا سؤال أيضاً ، وهو إذا كان ادعاء الولد قد وقع ، وجاء الرد عليه : فإن ادعاء الولادة لم يقع ، فلماذا ذكر نفيه مع عدم ادعائه ؟

والجواب والله تعالى أعلم : أن من جوّز الولادة له وأن يكون له

ولد ، فقد يجوز الولادة عليه ، وأن يكون مولوداً فجاء نفيها تتمة للنفي والتنزيه ، كما في حديث البحر ، كان السؤال عن الوضوء من مائه فقط ، فجاء الجواب عن مائه وميتته ، لأن ما احتمل السؤال في مائه يحتمل الاشتباه في ميتته . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

قالوا : كفؤا وكفوا وكفاء ، بمعنى واحد ، وهو المثل .

وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى الآية ، وكلها تدور على معنى نفي المماثلة .

فعن كعب وعطاء : لم يكن له مثل ولا عديل .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : أنه بمعنى ليس كمثله شيء .

وعن مجاهد : أي لا صاحبة له .

وقد جاء نفي الكفء والمثل والند والعدل ، فالكفء في هذه السورة والمثل في قوله : (ليس كمثله شيء) ، وقوله : (فلا تضربوا لله الأمثال) .

والند في قوله : (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) .

والعدل في قوله : (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند آية الأنعام بيان لذلك ، أى يساوونه بغيره من العدل بكسر أوله ، وهو أحد شقى حمل البعير على أحد التفسيرين ، والآخر من العدول عنه إلى غيره .

وفى هذه السورة مبحثان يوردها المفسرون . أحدهما : أسباب نزولها ، والآخر : ما جاء فى فضلها ، ولم يكن من موضوع هـذا الـكتاب تتبع ذلك ، إلا ما كان له دوافع تتعلق بالمعنى

أما ما جاء فى فضلها ، فقد قال أبو حيان فى تفسيره : لقد أكثر المفسرون إيراد الآثار فى ذلك ، وليس هذا محلها ، وهو كما قال ، فقد أوردها ابن كثير والفخر الرازى والقرطبى وابن حجر فى الإصابة فى ترجمة معاذ بن جبل وغيرهم ، وليس هـذا محل إيرادها ، اللهم إلا ما جاء فى الصحيح : أن تلاوتها تعدل ثلث القرآن . لتعلق موضوعها بالتوحيد

أما المبحث الآخر وهو سبب نزولها ، فقيل فيه : إن المشركين طلبوا منه صلى الله عليه وسـلم أن ينسب لهم ربه ، فنزلت .

وقوله فيها (لم يلد ولم يولد) رد على إثبات النسب له سبحانه وتعالى .

وقد جاء مثل هذا المعنى حينما سأل فرعون موسى عن ربه ، فقال له : (وما رب العالمين ؟) .

فجاء جوابه (قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) قال لمن حوله : ألا تستمعون ، قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) .

وكنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أن موجب قول فرعون عن موسى لمجنون ، لأنه سأله بما فى قوله : (قال فرعون وما رب العالمين) ؟ وما يسأل بها عن شرح الماهية فكان مقتضى السؤال بها أن يبين ماهية الرب سبحانه وتعالى، من أى شىء هو ، كما يقال فى جواب : ما الإنسان إنه حيوان ناطق .

ولكن موسى عليه السلام أعرض عن سؤال فرعون لجهله عن حقيقة الله تعالى أو لتجاهله ، كما فى قوله تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) وأجابه عما يخصه ويلزمه الاعتراف به من أنه سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما ، لا ربوبيـــــة فرعون الكاذبة .

ومثل ذلك فى القرآن ، لما سألوا عن الأهلة ، ما بالها تبدو صغيرة ، ثم تكبر ؟ فهو سؤال عن حقيقة تغيرها ، فترك القرآن جوابهم على سؤالهم وأجابهم بما يلزمهم وينفعهم .

وكذلك جواب الخليل عليه السلام للنمرود حينما حاجّه في ربه (إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت) .

فذكره سبحانه بصفاته ، وفي هذه السورة لما سألوا عن حقيقة الله ونسبه جاء الجواب بصفاته ، لأن ما يسألون عنه إنما يكون في المخلوقات لا في الخالق سبحانه ، وفي الممكن لا في الواجب الوجود لذاته ، سبحان ما لا يدرك كنهه غيره ، وصدق الله العظيم في قوله : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) .

المعوذتان

سورة الفلق وسورة الناس

يذكر المفسرون عن ابن مسعود ، أنه كان يراهما معوذتين من غير القرآن ، ولكن أبى بن كعب قال : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبرنى أن جبريل عليه السلام قال له : (قل أعوذ برب الفلق) فقلتها وقال : (قل أعوذ برب الناس) فقلتها ، فنحن نقول ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكره ابن كثير عن الإمام أحمد .

وذكر نحوه عن البخارى ثم قال : ثم قد رجع عن قوله إلى قول الجماعة ، فإن الصحابة رضى الله عنهم أثبتوهما فى المصاحف الأئمة ، ونفذوها إلى سائر الآفاق .

وروى عن الإمام أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ بهما فى الصلاة وساق عدة طرق فى إثبات أنهما قرآن ، مما ينفى أى خلاف بعد ذلك فى إثباتهما .

وقد اعتذر القرطبى عن ابن مسعود ، بأنه لم يسمعهما من النبى

صلى الله عليه وسلم ، على أنهما قرآن وسمعهما فظنهما أنهما دعاء من الأدعية ، كقوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق » .

ولما بلغه إثباتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى قول الجمهور .

ومن الجدير بالذكر التنويه عن ارتباطهما بسورة الإخلاص قبلهما .

وهو أنه سبحانه ، لما ذكر أنه سبحانه وتعالى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، والصمد من معانيه الذى تصمد الخلائق إليه فى حاجاتهم ، جاء فى هاتين السورتين توجيه العباد إلى من يستعيذون ويلوذون به ، وهو الله الصمد سبحانه ، فهو وحده الذى يعيذهم ويحفظهم وهو الذى يلجئون إليه سبحانه .

وقل أعوذ برب الفلق : تعاذل الاستعاذة بالخالق مما خلق ، لأن كل موجود منفلق عن غيره ، إلا الله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد .

وجاءت السورة الثانية بعدها قل أعوذ برب الناس إله الناس صفات العظمة كلها لله تعالى .

وسيأتى إن شاء الله تعالى تنبيه على ما يعطيه السياق من ختم المصحف الشريف بهاتين السورتين الكريمتين، وللمقارنة بينهما لبيان عظم منزلتهما .

كما أن الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، قد أحال على سورة الناس لإتمام مبحث إفراد الله تعالى بالعبادة، كما سنوضحه كله إن شاء الله فى محله . وبالله تعالى التوفيق .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ الفَلَقِ



سورة الفلق

قيل: إنه لما صرح تعالى بخالص التوحيد فى سورة الإخلاص، وهى معركة الإيمان والشرك، ومثار الخلاف والخصومة بين النبى صلى الله عليه وسلم وأعدائه، أمر صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ من شرور الخلق فلا يضروه. إلخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

قال أبو حيان وغيره: الفلق فعل بمعنى مفعول أى مفلوق، واختلف فى المراد بذلك.

فقيل: إنه الصبح يتفلق عنه الليل.

وقيل: الحب والنوى.

وقيل: هو جب فى جهنم.

وقال بعض المفسرين: كل ما فلقه الله عن غيره، كالليل عن الصبح، والحب والنوى عن النبت، والأرض عن النبات، والجبال

عن العون ، والأرحام عن الأولاد ، والسحاب عن المطر .

وقال ابن جرير : إن الله أطلق ولم يقيد ، فتطلق كذلك كما أطلق .

والذى يظهر أن كل الأقوال ما عدا القول بأنه جب فى جهنم من قبيل اختلاف التنوع ، وأنها كلها محتملة ، قال ابن جرير على الإطلاق .

أما القول بأنه جب فى جهنم ، فلم يثبت فيه نص ، وليست فيه آية مشاهدة يحال عليها للدلالة على قدرة الله تعالى ، كما فى الأشياء الأخرى المشاهدة .

والذى يشهد له القرآن هو الأول ، كما جاء النص الصريح فى الصبح والحب والنوى ، كقوله تعالى (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) .

وكلها آيات دالة على قدرة الله ، وجاء فى حديث عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحى ، وأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يرى رؤيا ، إلا جاءت كفلق الصبح .

والفلق : بمعنى الصبح . معروف فى كلام العرب .

وعليه قول الشاعر :

بالليلة لم أنمها بت مرتقبا أرعى النجوم إلى أن قدر الفلق

وقول الآخر مثله وفيه : إلى أن نور الفلق بدل قدر ، والواقع أنه فى قوة الإقسام برب الكون كله يتفلق بعضه عن بعض .

قوله تعالى ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ .

وهـذا عام وهو على عمومه ، حتى قال الحسن : إن إبليس وجهنم مما خلق .

والمعتزلة فى هذه الآية كلام حول خلق أفعال العباد ، وأن الله لا يخلق الشر ، وقالوا : كيف يخلقه ويقدره ، ثم يأمر بالاستعاذة به سبحانه مما خلقه وقدره ؟

وأجيب من أهل السنة : بأنه لا مانع من ذلك ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « وأعوذ بك منك » .

وقد قال تعالى : (الله خالق كل شىء) .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مناقشة هـذه المسألة

في مناظرة الأسفرائيني مع الجبائي في القدر .

ومعلوم أن المخلوق لا يتأتى منه شيء قط إلا بمشيئة الخالق ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

قوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ .

الغاسق : قيل الليل ، لقوله تعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) .

ووقب : أي دخل .

وعليه قول الشاعر :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكيت الهم والأرقا

وقول الآخر :

يا طيف هند قد أبقيت لي أرقا إذ جئتنا طارقا والليل قد غسقا

قال القرطبي : وهذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم .

وقيل : الغاسق : القمر إذا كان في آخر الشهر ، لحديث عائشة عند

الترمذى « أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها : تعوّذى من هذا فإنه الغاسق إذا وقب » . أى القمر .

وقائل هذا القول يقول : إنه أنسب لما يجىء بعده من السحر ، لأنه أكثر ما يكون عندهم فى آخر الشهر .

ونقل القرطبي عن ثعلب ، عن ابن الاعرابى ، أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر ، أى سقوطه وغيوبته .

وأنشد قول الشاعر :

أراحنى الله من أشياء أكرهها
منها العجوز ومنها الكلب والقمر
هذا يبوح وهذا يستضاء به
وهذه ضمرز قوامة السحر

والضمرز : الناقة المسنة ، والمرأة الغليظة .

والصحيح الأول ، الذى هو الليل بشهادة القرآن .

والثانى : تابع له ، لأن القمر فى ظهوره واختفائه مرتبط بالليل ، فهو بعض ما يكون فى الليل ، وفى الليل تنتشر الشياطين وأهل الفساد ، من الإنسان والحيوان ويقل فيه المغيث إلا الله .

وفى الحديث « أطفئوا السرج فإن الفويسقة تضرم على الناس بيوتهم ليلا » . أى الفأرة .

قوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّٰثَٰتِ فِى الْعُقَدِ ﴾

المراد به السحرة قطعاً ، سواء كان النفث من النساء كما هو ظاهر اللفظ ، أو من الرجال على معنى الجماعات ، أو النفوس الشريرة فتشمل النوعين .

وأجمع المفسرون : أنها نزلت فى لبيد بن الأعصم ، لما سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتاه جبريل عليه السلام وأخبره .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث السحر وأقسامه وأحكامه وكل ما يتعلق به ، عند الكلام على قوله تعالى : (ولا يفلح الساحر حيث أتى) من سورة طه ، ما عدا مسألة واحدة ، وهى حكم ما لو قتل أو أتلف شيئاً بسحره ، فما يكون حكمه ، ونوردها موجزة .

مسـألة

ذكر ابن قدامة فى المغنى رحمه الله النوع السادس من أنواع القتل : أن يقتله بسحر يقتل غالباً فيلزمه القود ، وإن كان مما لا يقتل غالباً ، ففيه الدية . اهـ .

وذكر النووى فى المنهاج شرح مغنى المحتاج للشافعية : التنبيه على أنه يقتل كذلك .

وذكر مثله ابن حجر فى الفتح : أن الساحر يقتل إذا قتل بسحره .

تنبيـه

يقع تأثير السحر على الحيوان كما يقع على الإنسان .

قال أبو حيان : أخبرنى أنه رأى فى بعض الصحراء عند البعض خيطا أحمر ، قد عقدت فيه عقد على فصلان أى جمع فصيل ، فمنعت من رضاع أمهاتها بذلك ، فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه فى الحين فرضع . اهـ .

كما يقع الحسد أيضاً على الحيوان ، بل وعلى الجماد أى عين العائن تؤثر فى الحيوان والجماد والنبات ، كما تؤثر فى الإنسان

على ما سيأتى إن شاء الله .

قوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

اقتران الحسد بالسحر هنا ، يشير إلى وجود علاقة بين كل من السحر والحسد ، وأقل ما يكون هو التأثير الخفى الذى يكون من الساحر بالسحر ، ومن الحاسد بالحسد مع الاشتراك فى عموم الضرر ، فكلاهما إيقاع ضرر فى خفاء ، وكلاهما منهى عنه .

وقد أوضح فضيلة الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أنواع السحر وأحكامه وأورد فيه كلاماً وافياً .

وقد ظهر بما قدمنا : أن الحسد له علاقة بالسحر نوعاً ما ، فلزم إيضاحه وبيان أمره بقدر المستطاع ، إن شاء الله .

أولا : تعريفه : قالوا : إن الحسد هو تمنى زوال نعمة الغير ، أو عدم حصول النعمة للغير شحاً عليه بها .

وقد قيدت الاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد ، أى عند إيقاعه الحسد بالفعل ، ولم يقيدها من شر الساحر إذا سحر .

وذلك والله تعالى أعلم : أن النفث فى العقد هو عين السحر ،

فتكون الاستعاذة واقعة موقعها عند سحره الواقع منه بنفثه الحاصل منه في العقد .

أما الحاسد فلم يستعذ منه إلا عند إيقاعه الحسد بالفعل ، أي عند توجهه إلى المحسود ، لأنه قبل توجهه إلى المحسود بالحسد لا يتأتى منه شر ، فلا محل للاستعاذة منه .

أما حقيقة الحسد : فيتعذر تعريفه منطقياً .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أنه قال في السحر : لا يمكن تعريفه لخفائه .

ومعلوم أن الحسد أشد خفاء ، لأنه عمل نفسي وأثر قلبي ، وقد قيل فيه : إنه كإشعاع غير مرئي ، ينتقل من قلب الحاسد إلى المحسود ، عند تحرقه بقلبه على المحسود ، وقد شبه حسد الحاسد بالنار في قولهم :

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وقد أنكر بعض الفلاسفة وقوع الحسد ، حيث إنه غير مشاهد وهم محجوجون بكل موجود غير مشاهد ، كالنفس والروح والعقل

وقد شوهدت اليوم أشعة [إكس] وهي غير مرئية ، ولكنها تنفذ إلى داخل الجسم من إنسان وحيوان ، بل وخشب ونحوه . ولا يردها إلا مادة الرصاص لكثافة معدنه ، فتصور داخل جسم الإنسان من عظام وأمعاء وغيرها ، فلا معنى لرد شيء لعدم رؤيته .

تنبيه

قد أطلق الحسد هنا ولم يبين المحسود عليه ، ما هو مع أنه كما تقدم زوال النعمة عن الغير .

وقد نبه القرآن الكريم على أعظم النعمة التي حسد عليها المسلمون عامة ، والرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهي نعمة الإسلام ونعمة الوحي وتحصيل الغنائم .

فأهل الكتاب حسدوا المسلمين على الإسلام في قوله تعالى : (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) .

والمشركون حسدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحي إليه ، كما في قوله تعالى : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) .

والناس هنا عام أريد به الخصوص ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، كما فى قوله تعالى : (الذين قال لهم النـاس إن النـاس قد جمعوا لـكم) .

فالناس الأولى عام أريد به خصوص رجل واحد ، وهو نعيم ابن مسعود الأشجعى .

ومما جاء فيه الحسد عن نعمة متوقعة . قوله تعـالى : (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعـكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلـكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) .

فتبين بنص القرآن أن الحسد يكون فى نعمة موجودة ، ويكون فى نعمة متوقع وجودها .

تنبيه آخر

توجد العين كما يوجد الحسد ، ولم أجد من فرّق بينهما مع وجود الفرق .

وقد جاء فى الصحيح « إن العين لحق » .

كما جاء فى السنن : « لو أن شيئاً يسبق القدر لسبقته العين »

ويقال فى الحسد : حاسد ، وفى العين : عائن ، ويشتركان فى الأثر ، ويختلفان فى الوسيلة والمنطلق .

فالحاسد : قد يحسد ما لم يره ، ويحسد فى الأمر المتوقع قبل وقوعه ، ومصدره تحرق القلب واستكثار النعمة على المحسود ، وبتمنى زوالها عنه أو عدم حصولها له وهو غاية فى حطة النفس .

والعائن : لا يعين إلا ما يراه والموجود بالفعل ، ومصدره انقداح نظرة العين ، وقد يعين ما يكره أن يصاب بأذى منه كولده وماله .

وقد يطلق عليه أيضاً الحسد ، وقد يطلق الحسد ويراد به الغبطة ، وهو تمنى ما يراه عند الآخرين من غير زواله عنهم .

وعليه الحديث : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الخير ، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها بين الناس » .

وقال القرطبي : روى مرفوعاً « المؤمن يغبط ، والمنافق يحسد »

وقال : الحسد أول ذنب عصى الله به فى السماء ، وأول ذنب عصى به فى الأرض ، فحسد إبليس آدم وحسد قابيل هابيل . اه .

تحـــذير

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله : إن أول معصية وقعت هى الحسد ، وجر شؤمها إلى غيرها ، وذلك لما حسد إبليس أبانا آدم على ما آتاه الله من الكرامات من خلقه بيديه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، فحمله الحسد على التكبر ، ومنعه التكبر من امتثال الأمر بالسجود ، فكانت النتيجة طرده ، عياذاً بالله

أسباب الحسد

وبتأمل القصة ، يظهر أن الحامل على الحسد أصله أمران :

الأول : ازدراء المحسود .

والثانى : إعجاب الحاسد بنفسه ، كما قال إبليس معللا لامتناعه من السجود : (أنا خير منه) .

ثم فصل معنى الخيرية المزعومة بقوله : (خلقتنى من نار وخلقته من طين) ويلحق بذلك جميع الأسباب .

وقد ذكروا منها التعزز فى نفسه ، ولا يريد لأحد أن يرتفع عليه ، والتعجب بأن يعجب بنفسه ، ولا يرى أحدا أولى منه ،

والخوف من فوات المقاصد عند شخص إذا رآه سيستغنى عنه ، وحب الرئاسة ممن لا يريد لأحد أن يتقدم عليه فى أى فن أو مجال .

وذكرها الرازى نقلا عن الغزالى .

ومن هنا لا ترى معجبا بنفسه قط ، إلا ويزدرى الآخرين ويحسدهم على أدنى نعمة أنعمها الله عليهم . عافانا الله من ذلك :

تنبيه

إذا كانت أول معصية وقعت هى حسد إبليس بأبينا آدم على ما أنعم الله به عليه ، وجاء حسد المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحى ، وحسد أهل الكتاب المسلمين على نعمة الإسلام ، وجاءت هذه الصورة فى أواخر القرآن ، فكأنها جاءت فى أعقاب القرآن لتذكر المسلمين بعظم نعمته عليهم وشدة حسدهم عليه ، ليحذروا أعداءهم الذين يكيدون لهم فى دينهم ، من كل من الجنة والناس ، على ما سيأتى فى السورة بعدها والأخيرة ، إن شاء الله

مسألة

فى حكم من قتل أو كسر أو أتلف شيئا بالعين

تقدم بيان ذلك فى حق السحر ، أما فى حق العين ، فقد قال

ابن حجر فى فتح البارى فى كتاب الطب مانصه وقد اختلف فى جريان القصاص بذلك، يعنى بالعين.

فقال القرطبى : لو أتلف العائن شيئاً ضمنه لو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه ، بحيث يصير عادة وهو فى ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفرا هـ .

ولم يتعرض الشافعية للقصاص فى ذلك بل منعوه ، وقالوا : إنه لايقتل غالبا ولا يعد مهلكا .

وقال النووى فى الروضة : ولا دية فيه ولا كفارة ، لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام دون مايختص ببعض الناس فى بعض الأحوال ، مما لا انضباط له ، كيف ولم يقع منه فعل أصلا ، وإنما غايته حسد وتمن لزوال نعمة .

وأيضاً ، فالذى ينشأ عن الإصابة بالعين حصوله مكروه لذلك الشخص ، ولايتعين ذلك المكروه فى زوال الحياة ، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين . اهـ .

ولايعكر على ذلك إلا الحكم بقتل الساحر ، فإنه فى معناه ، والفرق بينهما عسير .

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم : أنه ينبغى للإمام منع

العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس ، وأنه يلزمه بيته ، فإن كان فقيراً رزقه مايقوم به ، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذى أمر عمر رضى الله عنه بمنعه من مخالطة الناس ، وأشد من ضرر الثوم الذى منع الشارع آكله من حضور الجماعة .

قال النووى : وهذا القول صحيح متعين ، لايعرف عن غيره تصريح بخلافه . اهـ . من فتح البارى .

وبتأمل قول القرطبى والنووى بدقة ، لايوجد بينهما خلاف فى الأصل ، إذ القرطبى يقيد كلامه بما يتكرر منه بحيث يصير عادة له .

والنووى يقول : إنه لايقتل غالباً ، وعليه فلو ثبت أنه يقتل غالباً وتكرر ذلك منه ، فإنه يتفق مع كلام القرطبى تماماً فى أن من أتلف بعينه وكان معتادا منه ذلك فهو ضامن ، وهذا معقول المعنى ، والله تعالى أعلم .

وعند الحنابلة فى كشاف القناع مانصه : والمعيان الذى يقتل بعينه .

قال ابن نصر الله فى حواشى الفروع : ينبغى أن يلحق بالساحر الذى يقتل بسحره غالباً ، فإذا كانت عينه يستطيع القتل بها ويفعله باختياره وجب به القصاص . اهـ .

مسألة

بيان ماتعالج به العين

لما كان الحسد أضر مايكون على الإنسان ، والإصابة بالعين حق لاشك فيها وجاء فيها : « لو أن شيئا يسبق القدر لسبقته العين » .

وحديث : « إن العين لحق » فقد فصلت السنة كيفية اتقائها قبل وقوعها ، والعلاج منها إذا وقعت .

وذلك فيما رواه مالك فى الموطأ وغيره من الصحاح ، فى حديث سهل بن حنيف ، وبوّب البخارى فى صحيحه باب رقية العين ، وذكر حديث عائشة أنها قالت : « أمرنى النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أمر أن يسترقى من العين » .

وعقد مالك فى الموطأ بابا بعنوان « الوضوء من العين » وباب آخر بعده بعنوان « الرقية من العين » ، وساق حديث سهل بتمامه وفيه بيان كيفية اتقائها وعلاجها ، ولذا نكتفى بإيراده لشموله .

قال : عن محمد بن أبى أسامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبى سهل بن حنيف بالخرار فنزع جبة كانت عليه ،

وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجل أبيض حسن الجلد ، قال : فقال له عامر بن ربيعة : مارأيت كاليوم ولا جلد عذراء ، قال : فوعك سهل مكانه واشتد وعكه ، فأوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر أن سهلا وعك ، وأنه غير رائح معك يارسول الله ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره سهل بالذى كان من أمر عامر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت ، إن العين حق ، توضأ له فتوضأ له عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس » .

وساق مرة أخرى وفيه ، فقال صلى الله عليه وسلم « هل تتهمون له أحداً ؟ قالوا : نتهم عامر بن ربيعة ، قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عامراً فتغيظ عليه ، وقال : علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا بركت ، اغتسل له ، فغسل عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ، وداخل إزاره فى قدح ثم صب عليه فراح سهل مع الناس ، ليس به بأس » .

فهذه القصة تثبت قطعاً وقوع العين ، وهذا أمر مجمع عليه من أهل السنة وسلف الأمة ، كما أنها ترشد إلى أن من برك ، أى قال : تبارك الله .

وفى بعض الروايات لغير مالك : هلا كبّرت ، أى يقول :

الله أكبر ثلاثا ، فإن ذلك يرد عين العائن .

كما جاء فى السنة « أن الدعاء يرد البلاء » فإذا لم تدفع عند صدورها وأصابت ، فإن العلاج منها كما جاء هنا توضأ له ، واللفظ الآخر : « اغتسل له » .

وقد فصل المراد بالغسل له : أنه غسل الوجه واليدين أى الكفين فقط ، والمرفقين والركبتين والقدمين وطرف الإزار الداخلى ، ويكون ذلك فى إناء لايسقط الماء على الأرض ، ويفرغ هذا الماء على المصاب من الخلف ويكفؤ الإناء خلفه .

وقد ذكرها مفصلة القاضى الباجى فى شرح الموطأ فقال : وروى عن يحيى بن يحيى عن ابن نافع فى معنى الوضوء الذى أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يغسل الذى يتهم بالرجل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه ورجليه وداخلة إزاره ، وقال : ولا يغسل مابين اليد والمرفق ، أى لايغسل الساعد من اليد .

وروى عن الزهرى أنه قال : الغسل الذى أدركنا علماءنا يصفونه : أن يؤتى العائن بقدح فيه ماء ، فيمسك مرتفعا من الأرض فيدخل فيه كفه فيمضمض ، ثم يمجه فى القدح ، ثم يغسل وجهه فى

القدح صبة واحدة ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على كفه اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ظهر كفه اليسرى صبة واحدة ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على مرفقه الأيمن ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على مرفقه الأيسر ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على قدمه اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على قدمه الأيسر ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على ركبته اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ركبته اليسرى ، كل ذلك فى قدح ثم يدخل داخلة إزاره فى القدح ولا يوضع القدح فى الأرض ، فيصب على رأس المعين من خلفه صبة واحدة ، وقيل : يغتفل ويصب عليه ، أى فى حالة غفلته ، ثم يكفأ القدح على ظهر الأرض وراءه .

وأما داخلة إزاره : فهو الطرف المتدلى الذى يفضى من مأزره إلى جلده مكانه ، إنما يمر بالطرف الأيمن على الأيسر ، حتى يشده بذلك الطرف المتدلى الذى يكون من داخل . ا هـ .

ومما يرشد إليه هذا الحديث تغيظه صلى الله عليه وسلم على عامر ابن ربيعة .

وقوله صلى الله عليه وسلم « علام يقتل أحدكم أخاه » مما يبين شناعة هذا العمل ، وأنه قد يقتل .

ومما ينبغى مراعاته من كل من الطرفين من ابتلى بالعين ، فليبارك عند رؤيته مايعجبه لئلا يصيب أحداً بعينه ، ولئلا تسبقه عينه .

وكذلك من اتهم أحداً بالعين . فليكبر ثلاثا عند تخوفه منه . فإن الله يدفع العين بذلك . والحمد لله .

وقد ذكروا للحسد دواء كذلك ، أى يداوى به الحاسد نفسه ليستريح من عناء الحسد المتوقد فى قلبه المنغص عليه عيشه الجالب عليه حزنه ، وهو على سبيل الإجمال فى أمرين . العلم ثم العمل .

والمراد بالعلم هو أن يعلم يقيناً أن النعمة التى يراها على المحسود ، إنما هى عطاء من الله بقدر سابق وقضاء لازم ، وأن حسده إياه عليها لايغير من ذلك شيئاً ، ويعلم أن ضرر الحسد يعود على الحاسد وحده فى دينه لعدم رضائه بقدر الله وقسمته لعباده ، لأنه فى حسده كالمعترض على قوله تعالى : (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) وفى دنياه لأنه يورث السقام والأحزان والكآبة ونفرة الناس منه ومقتهم إياه ، ومن وراء هذا وذاك . العقاب فى الآخرة .

أما العمل فهو مجاهدة نفسه ضد نوازع الحسد ، كما تقدمت الإشارة إليه فى الأسباب ، فإذا رأى ذا نعمة فازدرته عينه ، فليحاول أن يقدره ويخدمه .

وإن راودته نفسه بالإعجاب بنفسه ، ردّها إلى التواضع وإظهار العجز والافتقار .

وإن سوّلت له نفسه تمنى زوال النعمة عن غيره ، صرف ذلك إلى تمنى مثلها لنفسه . وفضل الله عظيم .

وإن دعاه الحسد إلى الإساءة إلى المحسود ، سعى إلى الإحسان إليه ، وهكذا ، فيسلم من شدة الحسد ، ويسلم غيره من شره .

وكما فى الأثر : « المؤمن يغبط ، والمنافق يحسد » .

نسأل الله العافية والمعافاة .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الناس



بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الإحالة على هذه السورة عند كلامه على قوله تعالى : (ألا تعبدوا إلا إياه إننى لكم منه نذير وبشير) فى سورة هود ، فقال على تلك الآية : فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التى أنزل القرآن من أجلها ، هى أن يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك به فى عبادته شىء .

وساق الآيات المماثلة لها ثم قال : وقد أشرنا إلى هذا البحث فى سورة الفاتحة ، وسنتقصى الكلام عليه إن شاء الله تعالى فى سورة الناس ، ليكون خاتمة هذا الكتاب المبارك حسنى . اهـ .

وإن فى هذه الإحالة منه رحمة الله تعالى علينا وعليه لتنبيها على المعانى التى اشتملتها هذه السورة الكريمة ، وتوجيهاً لمراعاة تلك الخاتمة .

كما أن فى تلك الإحالة تحميل مسئولية الاستقصاء حيث لم يكتف بما قدمه فى سورة الفاتحة ، ولا فيما قدمه فى سورة هود ، وجعل

الاستقصاء فى هذه السورة، ومعنى الاستقصاء: الاستيعاب إلى أقصى حد .

وما أظن أحداً يستطيع استقصاء مايريده غيره ، ولاسيما ما كان يريده الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وما يستطيعه هو .

ولكن على ماقدمنا فى البداية : أنه جهد المقل ووسع الطاقة. فنستعين الله ونستهديه مسترشدين بما قدمه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى سورتى الفاتحة وهود ، ثم نورد وجهة نظر فى السورتين معاً الفلق والناس ، ثم منهما وفى نسق المصحف الشريف ،آمل من الله تعالى وراج توفيقه ومعونته .

أما الإحالة فالذى يظهر أن موجبها هو أنه فى هذه السورة الكريمة اجتمعت ثلاث صفات لله تعالى من صفات العظمة والكمال : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، ولكأنها لأول وهلة تشير إلى الرب الملك هو الإله الحق الذى يستحق أن يعبد وحده .

ولعله مايرشد إليه مضمون سورة الإخلاص قبلها : هو الله أحد ، الله الصمد ، وهذا هو منطق العقل والقول الحق لأن مقتضى الملك يستلزم العبودية . والعبودية تستلزم التأليه والتوحيد فى الألوهية ، لأن العبد المملوك تجب عليه الطاعة والسمع لمالكه بمجرد الملك ، وإن كان

مالكه عبداً مثله ، فكيف بالعبد المملوك لربه وإلهه ، وكيف بالمالك الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ؟

وقد جاءت تلك الصفات الثلاث : الرب الملك الإله ، فى أول افتتاحية أول المصحف : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) . والقراءة الأخرى (ملك يوم الدين) .

وفى أول سورة البقرة أول نداء يوجه للناس بعبادة الله تعالى وحده ، لأنه ربهم مع بيان الموجبات لذلك فى قوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) .

ثم بين الموجب لذلك بقوله : (الذى خلقكم والذين من قبلكم) :
وقوله : (الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) .

وهذا كله من آثار الربوبية واستحقاقه تعالى على خلقه العبادة ، ثم بين موجب إفراده وحده بذلك بقوله : (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

أى كما أنه لاندّ له فى الخلق ولا فى الرزق ولا فى شىء مما ذكر ، فلا تجعلوا لله أندادا أيضاً فى عبادة ، وأنتم تعلمون حقيقة ذلك .

وعبادته تعالى وحده ونفي الأنداد، هو ماقال عنه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : معنى لا إله إلا الله نفياً وإثباتاً .

فالإثبات فى قوله تعالى : (اعبدوا الله) .

والنفي فى قوله : (فلا تجعلوا لله أنداداً) .

وكون الربوبية تستوجب العبادة ، جاء صريحاً فى قوله تعالى : (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

فالموصول وصلته فى معنى التعليل لموجب العبادة ، وسيأتى لذلك زيادة إيضاح إن شاء الله تعالى فى نهاية السورة .

وقد جاء هنا لفظ (رب الناس) بإضافة الرب إلى الناس ، بما يشعر بالاختصاص ، مع أنه سبحانه رب العالمين ورب كل شيء ، كما فى أول الفاتحة : (الحمد لله رب العالمين) .

وفى قوله : (قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شيء) .

فالإضافة هنا إلى بعض أفراد العام .

وقد أضيف إلى بعض أفراد أخرى كالسماوات والأرض وغيرها .

من بعض كل شيء ، كقوله : (قل من رب السماوات والأرض ، قل الله) .

وقوله : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) .

وإلى البيت (فليعبدوا رب هذا البيت) .

وإلى البلد الحرام (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة) .

وإلى العرش (رب العرش الكريم) .

وإلى الرسول (اتبع ما أوحى إليك من ربك) .

وقوله : (وربك فكبر) إلى غير ذلك .

ولكن يلاحظ أنه مع كل إضافة من ذلك مايفيد العموم ، وأنه مع إضافته لفرد من أفراد العموم ، فهو رب العالمين ، ورب كل شيء ، ففى إضافته إلى السماوات والأرض جاء معها (قل الله) .

وفى الإضافة إلى المشرق والمغرب جاء (لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) .

وفى الإضافة إلى البيت جاء (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) وهو الله سبحانه .

وفى الإضافة إلى البلدة جاء (الذى حرمها) وهو الله تعالى .

وفى الإضافة إلى العرش جاء قوله تعالى : (فتعالى الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش) .

وفى الإضافة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جاء قوله : (ماودعك ربك) ، وغير ذلك من الإضافة ، إلى أى فرد من أفراد العموم يأتى معها مايفيد العموم ، وأن الله رب العالمين .

وهنا رب الناس جاء معها (ملك الناس إله النـاس) ليفيـد العموم أيضاً ؛ لأن إطلاق الرب قد يشارك فيه السيد المطاع ، كما فى قوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) .

وقول يوسف لصاحبه فى السجن (اذكرنى عنـد ربك) أى الملك على أظهر الأقوال ، وقوله : (ارجع إلى ربك فاسـأله مابال النسوة) الآية .

فجاء بالملك والإله للدلالة على العموم ، فى معنى رب الناس ، فهو سبحانه رب العالمين ورب كل شىء ، ولـكن إضافته هنا إلى خصوص الناس إشعار بمزيد اختصاص ، ورعاية الرب سبحانه لعبده الذى دعاه إليه ليستعيذ به من عدوه ، كما أن فيه تقوية رجاء العبد فى ربه بأنه سبحانه بربوبيته سيحمى عبده لعبوديته ويعيذه مما استعاذ به منه .

ويقوى هذا الاختصاص إضافة الرب للرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع أطواره منذ البدأين : بدأ الخلقة وبدأ الوحى ، فى قوله : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق) ، ثم فى نشأته (ماودعك ربك وماقلى – إلى قوله – ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) .

وجعل الرغبة إليه فى السورة بعدها (وإلى ربك فارغب) بعد تعداد النعم عليه من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، ثم فى المنتهى قوله : (إن إلى ربك الرجعى) .

قوله تعالى : (ملك النـاس) فى مجىء ملك النـاس بعد رب الناس ، تدرج فى التنبيه على تلك المعانى العظام ، وانتقال بالعباد من مبدإ الإيمان بالرب لما شاهدوه من آثار الربوبية فى الخلق والرزق ، وجميع تلك الكائنات ، كما تقـدم فى أول نداء وجه إليهم (اعبـدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) .

كل هذه الآثار التى لمسوها وأقروا بموجبها ، بأن الذى أوجدها هو ربهم ، ومن ثم ينتقلون إلى الدرجة الثانية ، وهى أن ربه الذى

هـذه أفعاله هو ملكه وهو المتصرف فى تلك العوالم ، وملك لأمره وجميع شئونه ، ومالك لأمر الدنيا والآخرة جميعاً .

فإذا وصل بإقراره إلى هذا الإدراك ، أقر له ضرورة له بالألوهية وهى المرتبة النهاية . إله النـاس أى مألوههم ومعبودهم وهو ماخلقهم إليه ، (وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وفى إضافة الملك إلى النـاس من إشعار الاختصاص ، مع أنه سبحانه ملك كل شىء ، فيه مافى إضافة الرب للناس المتقدم بحثه ، فهو سبحانه مالك الملك كما فى قوله : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء)

وقوله تعالى : (له الملك وله الحمد)

وقوله : (له ملك السماوات والأرض) وقوله (الملك القدوس)

فهو سبحانه وتعالى المتفرد بالملك لاشريك له فى ملـكه ، كما قال تعالى : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يـكن له شريك فى الملك) فبدأ بالحمد أولا .

ومثله قوله : (فسبحـان الذى بيده ملـكوت كل شىء) بدأ بتسبيح نفسـه وتنزيهه لعموم الملك ومطلق التصرف ونفى الشريك لأن

ملكه ملك تصرف وتدبير مع الكمال فى الحمد والتقديس .

وكقوله : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) .

وبهذه النصوص يعلم كمال ملكه تعالى ، ونقص ملك ما سواه من ملوك الدنيا ، ونعلم أن ملكهم بتمليك الله تعالى إياهم كما فى قوله تعالى : (والله يؤتى ملكه من يشاء) .

وقوله : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) .

ومن المعلوم أن ملوك الدنيا ملكهم ملك سياسة ورعاية ، لا ملك تملك وتصرف ، وكما فى قوله تعالى : (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال . قال : إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم) .

والجدير بالتنبيه عليه بهذه المناسبة أن « بريطانيا » تحترم نظام الملكية إلى هذا الوقت الحاضر ، بدافع من هذا المعتقد ، وأنه لا ملك إلا بتمليك الله إياه ، وأن ملوك الدنيا باصطفاء من الله .

والآية تشير إلى ما نحن بصدد بيانه ، من أن ملوك الدنيا لا يملكون

أمر الرعية لأن طالوت ملكا ، وليس مالكا لأموالهم .

بينما ملك الله تعالى ملك خلق وإيجاد وتصرف ، كما في قوله تعالى : (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) .

وعليم قدير هنا من خصائصه سبحانه وتعالى ، فيتصرف في ملكه بعلم وعن قدرة كاملتين سبحانه ، له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير .

وتظهر حقيقة ذلك إذا جاء اليوم الحق ، فيتلاشى كل ملك قلّ أو كثر ، ويذل كل ملك كبر أو صغر ، ولم يبق إلا ملكه تعالى يوم هم بارزون ، لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

وفي سورة الفاتحة (ملك يوم الدين) .

والقراءة الأخرى (مالك يوم الدين)

في القراءتين معاً إشعار بالفرق بين ملك الله وملك العباد ، كالفرق بين الملك المطلق والملك النسبي ، إذ الملك النسبي لا يملك . والملك المطلق

فهو الملك القدوس ، والذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجع الخلائق كلهم .

ومن كانت هذه صفاته ، فهو المستحق لأن يعبد وحده سبحانه ، ولا يشرك معه أحد ، وهذا هو شعار العبد فى الركن الخامس من أركان الإسلام ، حين يهل بالتلبية : إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

قوله تعالى : (إله الناس) .

هذه هى المرتبة الثالثة فى كمال العبودية ، وإفراد الله تعالى بالألوهية .

وهذا هو محل الإحالة ، التى عناها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيما يظهر ، لأن العبد إذا أقر بأن الله تعالى ربه وخالقه ، ومنعم عليه أوجده من العدم ، ورباه بالنعم ، لا رب له سواه ، ثم تدرج بعلمه ويقينه إلى الإقرار بأن ربه هو مليكه والمتصرف فى أمره وحده ، وأنه لا يملك هو نفسه مع الله شيئاً ، ولا يملك له أحد من الله شيئاً .

وأن كل تصرفات العالم كله بأمره فلا يصل إليه خير إلا بإذنه ،

ولا يصرف عنه ضرر إلا بأمره .

وعرف في يقين : أنه عبد مملوك لمن بيده ملكوت السموات والأرض ، توصل بعلمه هذا أن من كانت هذه صفاته ، كان هو وحده المستحق لإفراده بالعبادة وبالألوهية ، لا إله إلا هو .

فيكون في خاتمة المصحف الشريف انتزاع الإقرار من العبد لله سبحانه بطريق الإلزام ، بالمعنى الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل من أجله كتبه ، وهو أن يعبد الله وحده ، وهو ما صرح الشيخ به في الإحالة السابقة .

وإذا كان الشيخ رحمه الله ، قد نبه على مراعاة خاتمة المصحف ، فإننا لو رجعنا إلى أول المصحف وآخره لوجدنا ربطا بديعاً ، إذ تلك الصفات الثلاث في سورة الناس موجودة في سورة الفاتحة ، فاتفقت الخاتمة مع الفاتحة في هذا المعنى العظيم ، إذ في الفاتحة الحمد لله رب العالمين . ومالك يوم الدين ، فجاءت صفة الربوبية والملك والألوهية في لفظ الجلالة .

وتكون الخاتمة الشريفة من باب عود على بدء ، وأن القرآن كله

فيما بين ذلك شرح وبيان لتقدير هذا المعنى الكبير .

وسيأتى لذلك زيادة إيضاح فى النهاية ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .

كلاهما صيغة مبالغة من الوسوسة والخنس ، بسكون النون .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى الوسوسة ، والوسواس لغة وشرعاً ، أى المراد عند كلامه على قوله تعالى : (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) الآية .

وبين مشتقاتهما وأصل اشتقاقهما ، وهو يدور على أن الوسوسة : الحديث الخفى . والخنس : التأخر ، كما تكلم على ذلك فى دفع إيهام الاضطراب ، حيث اجتمع المعنيان المتنافيان .

لأن الوسواس : كثير الوسوسة ، ليضل بها الناس . والخناس : كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس .

وأجاب بأن لكل مقام مقالا ، وأنه يوسوس عند غفلة العبد عن ذكر ربه ، خانس عند ذكر العبد ربه تعالى ، كما دل عليه قوله

تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطانا فهو له قرين) إلى آخره . اهـ .

قوله تعالى ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ .

اختلف فى الظرف هنا ، هل هو ظرف للوسواس حينما يوسوس ، فيكون موجوداً فى الصدور ، ويوسوس للقلب ، أو هو ظرف للوسوسة . ويكون المراد بالصدور القلوب ، لكونها حالة فى الصدور من باب إطلاق المحل ، وإرادة الحال على ما جار فى الأساليب البلاغية .

وعلى حد قوله تعالى : (فليدع ناديه) أطلق النادى ، وأراد من يحل فيه من القوم .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث تعدية الوسوسة تارة بإلى وتارة باللام ، ففى سورة الأعراف (فوسوس لهما الشيطان) ، وفى طه : (فوسوس إليه الشيطان) .

وحاصل ما ذكره فى الجمع بينهما أحد أمرين : إما أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وذكر شواهده ، وإما أن يكون وسوس له أى لأجله ووسوس إليه أى أنهى إليه الوسوسة ، ولكن هنا قال :

(فى صدور الناس) ولم يقل : إلى صدور الناس ، فهل هو من باب نيابة حروف الجر بعضها عن بعض أيضاً ؟ أم هى ظرف محض ؟ .

والظاهر أنها ظرف ، ولكن هل هو الظرف للوسواس ، أوظرف للوسوسة نفسها ؟

وبالنظر إلى كلام المفسرين ، فإن كلام ابن جرير يحتمل اعتبار للمعنيين بدون تعيين .

وأما القرطبي ، والألوسى ، فصرحا بما ظهر لهما ووصلا إليه .

فقال القرطبي ، قال مقاتل : إن الشيطان فى صورة خنزير يجرى من مجرى الدم فى العروق سلطه الله على ذلك وذكر الحديث « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه » .

وقال : إن أبا ثعلبة الخشنى قال : سألت ربى أن يرينى الشيطان ، ومكانه من ابن آدم ، فرأيته يداه فى يديه ورجلاه فى رجليه ومشاعيه فى جسده ، غير أن له خطما كخطم الكلب ؟ فإذا ذكر الله خنس ، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه .

أما الألوسى فقد صرح بالتقسيم الذى أوردناه ، فقال : الذى يوسوس فى صدور الناس .

قيل : أريد قلوبهم مجازاً .

وقال بعضهم : إن الشيطان يدخل الصدر الذى هو بمنزلة الدهليز ، فيلقى منه ما يريد إلقاءه إلى القلب ويوصله إليه ، ولا مانع عقلا من دخوله في جوف إنسان . وساق الحديث أيضاً « إن الشيطان يجرى» إلى آخره .

ومراده بالمجاز ما قدمنا من إطلاق المحل وإرادة الحال .

وذكر ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس .

والذى يظهر والله تعالى أعلم : أن الصدر ظرف للوسواس ، وأنه يوقع الوسوسة فى القلب . على ما قاله ابن عباس ومجاهد رحمهم الله .

وفى لفظ الناس هنا المضاف إليه الصدور ، اختلاف فى المراد منه ، فقيل : الإنس . لظاهر الاستعمال .

وقيل : الثقلان : الإنس والجن .

وإن إطلاق الناس على الجن مسموع ، كما حكاه القرطبى قال عن بعض العرب :

إنه كان يحدث فجاء قوم من الجن فوقفوا ، فقيل : من أنتم ؟ فقالوا : ناس من الجن ، وهذا معنى قول الفراء .

واستدل صاحب هذا القول بطريق القياس باستعمال لفظى رجال

ونفر فى قوله تعالى : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) وقوله (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن) .

وعليه يكون الوسواس المستعاذ منه يوسوس فى صدور الجن والإنس .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الوجه ، ولكنه رده وضعفه ، لأن لفظ الناس أظهر وأشهر فى الإنس ، وهو المعروف فى استعمال القرآن ، ولأنه على هذا يكون قسيم الشىء قسما منه ، لأنه يجعل الناس قسيم الجن ، ويجعل الجن نوعاً من الناس اه . ملخصاً .

وعلى كل ، فإن منهج الأضواء أن ما كان محتملا وكان أكثر استعمالات القرآن لأحد الاحتمالين ، فإن كثرة استعماله إياه تكون مرجحاً ، وجميع استعمالات القرآن للفظ الناس إنما هو فى خصوص الإنس فقط ، ولم تستعمل ولا مرة واحدة فى حق الجن مع مراعاة استعمالها فى هذه السورة وحدها خمس مرات ، حتى سميت سورة الناس .

أما القياس على لفظتى رجل ونفر ، فقد رده شيخ الاسلام ابن تيمية أيضاً بأنهما وردا مقيدين رجال من الجن ، نفراً من الجن .

أما على الإطلاق فلم يردا ، وهكذا لفظ الناس فلا مانع من

لاستعماله مقيداً ناس من الجن . أما على الاطلاق فلا .

وعليه ، فحيث ورد لفظ الناس هنا مطلقا فلا يصح حمله على الجن والإنس معاً ، بل يكون خاصاً بالإنس فقط ، ويكون في صدور الناس أي في صدور الإنس

وقد ذكر أبو السعود معنى آخر في لفظ الناس : وهو أن الناسي من النسيان ، حذفت الياء تخفيفاً لأن الوسواس لا يوسوس إلا في حين النسيان والغفلة .

وعليه ، يكون حذف الياء كحذفها من الداع في قوله : (يوم يدع الداع) ونحوه .

ولكن يبقى على هذا القول بيان من المراد بالناسي ، أهو من الإنس أم من الجن ، فلم يخرج عن الاحتمالين السابقين ، مع أن هذا القول من لوازم معنى الوسواس الخناس .

ويرد على هذا القول جمع الصدور وإفراد الناس ، والجمع لا يضاف إلا إلى جمع ، أي جمع الصدور ، لأن الفرد ليس له جمع من الصدور ، فيقابل الجمع بجمع ، أو يكتفي بالمفرد بمفرد .

وقد جاء في إضافة الجمع إلى المثنى في قوله : (فقد صغت قلوبكما) .

قال أبو حيان : وحسنه أن المثنى جمع فى المعنى ، والجمع فى مثل هذا أكثر استعمالا من المثنى والتثنية دون الجمع .

كما قال الشاعر :

فتخالسا نفسيهما بنوافذ كنوافذ العبط التى لا ترفع

وهذا كان القياس وذلك أن المعبر عن المثنى بالمثنى ، لكن كرهوا اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع بأن التثنيـــة جمع فى المعنى والإفراد ، لا يجوز عند أصحابنا إلا فى الشعر .

كقوله

* حمامة بطن الواديين ترنمى *

يريد بطنى ، وغلط ابن مالك فى التسهيل إذ قال : ونختـــار الإفراد على لفظ التثنية ، فتراه غلط ابن مالك فى اختياره جواز إضافة الجمع إلى المفرد ، كأنه قال : ولا يجوز ذلك إلا فى الشعر ، وأنه مع المثنى لكراهية اجتماع التثنيتين ، فظهر بطلان قول أبى السعود .

أما الراجح فى الوجهين فى معنى الناس المتقدم ذكرها ، فهو الوجه الأول ، وهو أنهم الإنس ، وأن قوله تعالى (من الجنة والناس) بيان لمن يقوم بالوسوسة ، أى بيان للوسواس الخناس وأنه من كل من وسواس الجنة ووسواس الناس .

ويظهر ذلك من أمور :

منها : أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته تبعاً له فهو

فى حق الناس أظهر .

ومنها : أننا لو جعلنا الناس الأولى عامة لمن يوسوس إليه كان من الجنة ، والناس مصدر الوسوسة ، فيكون من وسواس الناس من يوسوس فى صدور الجن . وهذا بعيد .

ومنها : أنه لو كان لفظ الناس يشمل الجن والانس ، لما احتيج إلى هذ التقسيم الجنة والناس ، واكتفى فى الثانية بما اكتفى به فى الأولى ، وكان يكون الذى يوسوس فى صدور الناس من الناس ، ولكن جاء بيان محل الوسوسة صدور الناس ، ثم جاء مصـــدر الوسوسة الجنة والناس ، والله تعالى أعلم .

تنبيــه

ذكر أبوحيان فى آخر تفسيره مقارنة لطيفة بين سورتى المعوذتين ، فقال : ولما كانت مضرة الدين ، وهى آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت ، جاء البناء فى الاستعاذة منها بصفات ثلاث : الرب ، والملك ، والإله ، وإن اتحد المطلوب

وفى الاستعاذة من ثلاث : الفاسق ، والنفاثات ، والحاسد ، بصفة واحدة وهى الرب ، وإن تكثر الذى يستعاذ منه .

وهذه الأخرى لفتة كريمة ، طالما كنت تطلعت إليها فى وجهتى

نظر ، إحداهما : بين السورتين ، والأخرى بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف ، سيأتى إيرادها إن شاء الله .

إلا أنه على وجهة نظر أبى حيان ، وهى أنه تعالى فى سورة الفلق جاء فى الاستعاذة بصفة واحدة وهى رب الفلق .

وفى سورة الناس جاء فى الاستعاذة بثلاث صفات ، مع أن المستعاذ منه فى الأولى ثلاثة أمور ، والمستعاذ منه فى الثانية أمر واحد ، فلخطر الأمر الواحد جاءت الصفات الثلاث .

ويقال أيضاً من جهة أخرى : إن المستعاذ منه فى السورة الأولى أمور تأتى من خارج الإنسان ، وتأتيه اعتداء عليه من غيره ، وقد تكون شروراً ظاهرة ، ومثل ذلك قد يمكن التحرز منه أو اتقاؤه قبل وقوعه ، وتجنبه إذا علم به . بينما الشر الواحد فى الثانية يأتيه من داخليته وقد تكون هواجس النفس وما لا يقدر على دفعه ، إذ الشيطان يرانا ولا نراه ، كما فى قوله : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم) .

وقد يثر عليه خلجات نفسه ونوازع فكره ، فلا يجد له خلاصاً إلا بالاستعاذة واللجوء إلى رب الناس ملك الناس إله الناس .

أما الوجهتان اللتان نوهنا عنهما ، فالأولى بين السورتين وهى مما

أورده أبوحيان : إذ فى سورة الفلق قال : (قل أعوذ برب الفلق) ورب الفلق تعادل قوله : (رب العالمين) .

لأنه مامن موجود فى هذا الكون إلا وهو مفلوق عن غيره .

ففى الزرع : (فالق الحب والنوى) .

وفى الزمن (فالق الإصباح) .

وفى الحيوانات : (الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) .

وفى الجمادات يشير إليه قوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ، وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم) .

فرب الفلق تعادل رب العالمين ، فقابلها فى الاستعاذة بعموم المستعاذ منه ، من شر ماخلق .

ثم جاء ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به ، وهو من شر غاسق إذا وقب ، والنفاثات فى العقد ، وحاسد إذا حسد .

فالمستعاذ به صفة واحدة ، والمستعاذ منه عموم ماخلق جملة وتفصيلا .

بينما في السورة الثانية جاء بالمستعاذ به ثلاث صفات ، هي صفات المظمة لله تعالى: الرب والملك والإله .

فقابل المستعـــاذ منه وهو شيء واحد فقط ، وهو الوسواس الخناس ، وهذا يدل على شدة خطورة المستعاذ منه .

وهو كذلك ، لأننا لو نظرنا في واقع الأمر لوجدنا مبعث كل فتنة ومنطلق كل شر عاجلا أو آجلا ، لوجدناه بسبب الوسواس الخناس ، وهو مرتبط بتاريخ وجود الإنسان .

وأول جناية وقعت على الإنسان الأول ، إنما هي من هـــذا الوسواس الخناس ، وذلك أن الله تعالى لما كرّم آدم ، فخلقه بيده وأسجد الملائكة له وأسكنه الجنة هو وزوجه لايجوع فيها ولا يعرى ، ولا يظمأ فيها ولا يضحى ، يأكلان منها رغداً حيث ماشاءا ، إلا من الشجرة الممنوعة ، فوسوس إليهما الشيطان حتى أكلا منها ودلاهما بغرور ، حتى أهبطوا منها جميعاً بعضهم لبعض عدو .

وبعد سكناهما الأرض أتى ابنيهما قابيل وهابيل فلاحقهما أيضاً بالوسوسة ، حتى طوّعت نفس أحدهما قتل أخيه فأصبح من النادمين .

وهكذا يسائر الانسان في حياته بالوسوسة حتى يربكه في الدنيا ، ويهلكه في الآخرة ، ولقد اتخذ من المرأة جسراً لكل مايريد .

وهاهو يعيد الكرة فى نزع اللباس عن أبوينا فى الجنة، فينتزعه عنهما فى ظل بيت الله الحرم فى طوافهم قبل البعثة ولايزال يغويه ، وعن طريق المرأة فى كل زمان ومكان ليخرجه عن الاستقامة كما أخرج أبويه من الجنة .

ولايزال يجلب على الإنسان بخيله ورجله باراً بقسمه بين يدى الله بعزته ليغوينهم أجمعين .

وإن أخطر أبواب الفساد فى المجتمعات لهى عن المال أو الدم أو العرض ، كما فى الحديث فى حجة الوداع : « ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا » إلى آخره .

وهل وحدت جناية على واحد منها ، إلا من تأثير الوسواس الخناس . اللهم لا .

وهكذا فى الآخرة .

وقد بين تعالى الموقف جلياً فى مقالة الشيطان البليغة الصريحة : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ الآية .

ولقد علم عدو المسلمين ، أن أخطر سلاح على الإنسان ، هو الشك ولا طريق إليه إلا بالوسوسة ، فأخذ عن إبليس مهمته وراح يوسوس المسلمين فى دينهم وفى دنياهم ، ويشككهم فى قدرتهم على الحياة الكريمة مستقلين عنه ، ويشككهم فى قدرتهم على التقدم والاستقلال الحقيقى ، بل وفى استطاعتهم على الإبداع والاختراع ، ليظلوا فى فلكه ودائرة نفوذه ، فيبقى المسلمون يدورن فى حلقة مفرغة ، يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى .

والمتشكك فى نتيجة عمل لايقدم عليه أبداً ، بل ما يبنيه اليوم يهدمه غداً ، وقد أعلن عن هذه النتيجة الخطيرة رئيس مؤتمر المستشرقين فى الشرق الأوسط ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، حيما انعقد المؤتمر فى [بيروت] لعرض نتائج أعمالهم ودراسة أساليب تبشيرهم .

فتشكى المؤتمرون من أن لهم زهاء أربعين سنة من عملهم المتواصل ، لم يستطيعوا أن ينصِّروا مسلماً ، واحداً ، فقال رئيس المؤتمر : إذا لم نستطع أن ننصِّر مسلماً ، ولكن استطعنا أن نوجد ذبذبة فى الرأى ، فقد نجحنا فى عملنا .

وهكذا منهج العدو ، تشكيك فى قضايا الإسلام ليوجد ذبذبة فى عقيدة المسلمين ، فمن طريق الميراث تارة ، وعن طريق تعدد الزوجات

أخرى ، وعن دوافع القتال ، وعن استرقاق الرقيق ، وعن وعن .

حتى وجد من أبناء المسلمين من يتخطى حدود الشك إلى التصديق، وأخذ يدعو إلى ما يدعو إليه العدو ، وما ذاك كله إلا حصاد ونتائج الوسواس الخناس .

فلا غرو إذا أن تجمع الصفات الجليلة الثلاث : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس .

هـذه وجهة النظر الأولى بين سورتى الفلق والناس .

أما الوجهة الثانية وهى بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف ، بقوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) .

وفى هذه البداية الكريمة بث الطمأنينة فى القلب المعبر عنها بالحمد ، عنوان الرضى والسعادة والإقرار لله بالربوبية ، ثم الإيمان بالبعث والإقرار لله بملك يوم الدين ، ثم الالتزام بالعبادة لله وحده والالتجاء إليه مستعينا به ، مستهديا الصراط المستقيم ، سائلا صحبة الذين أنعم عليهم .

ثم يأتى بعدها مباشرة فى أول سورة البقرة (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) أى إن الهدى الذى تنشده إلى الصراط المستقيم ، فهو فى هذا الكتاب لا ريب فيه ، ثم بين المتقين الذين أنعم الله عليهم بقوله : (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) .

ومرة أخرى للتأكيد : أولئك لا سواهم على هدى من ربك وأولئك هم المفلحون .

ثم تترسل السورة فى تقسيم الناس إلى الأقسام الثلاثة : مؤمنين وكافرين ومذبذبين بين بين ، وهم المنافقون .

ثم يأتى النداء الصريح وهو أول نداء فى المصحف لعموم الناس (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) ويقيم البراهين على استحقاقه للعبادة وعلى إمكان البعث بقوله (الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

وبعد تقرير الأصل وهى العقيدة ، تمضى السورة فى ذكر روع

الإسلام ، فتشتمل على أركان الإسلام كلها وعلى كثير من مسائل المعاملات والجهاد ، وقلّ باب من أبواب الفقه إلا وله ذكر في هذه السورة ، ويأتي ما بعدها مبينا لما أجمل فيها أو لما يذكر ضمنها .

وهكذا حتى ينتهي القرآن بكمال الشريعة وتمام الدين .

ولما جاء في وصف المتقين المهتدين في أول المصحف ، أنهم يؤمنون بالغيب ومنه الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، أمور الغيب تستلزم اليقين ، لترتب الجزاء عليه ثواباً أو عقابا .

والثواب والعقاب هما نتيجة الفعل والترك

والفعل والترك : هما مناط التكليف ، لأن الإنسان يمتثل الأمر رجاء الثواب ، ويكف عن متعلق النهي مخافة العقاب .

فلكأن نسق المصحف الشريف يشير إلى ضرورة ما يجب الانتباه إليه ، من أن القرآن بدأ بالحمد ثناء على الله بما أنعم على الإنسان بإنزاله ، وإرسال الرسول صاحبه به ، ثم نقله من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة ، وهو الأعظم قدراً وخطراً ، ثم رسم له الطريق الذى سلكه المهتدون أهل الإنعام والرضى ، ثم أوقفه عليه ليسلك سبيلهم .

وهكذا إلى أن جاء به بعد كمال البيان والإرشاد والهداية ، جاء

به إلى نهاية هذا الصراط المستقيم ، فاستوقفه ليقول له إذا اطمأننت لهذا الدين ، وآمنت بالله رب العالمين ، واعتقدت مجيء يوم الدين ، وعرفت طريق المهتدين ورأيت أقسام الناس الثلاث مؤمنين وكافرين ومنافقين ، ونهاية كل منهم ، فالزم هذا الكتاب ، وسر على هذا الصراط ورافق أهل الإنعام ، وجانب المغضوب عليهم والضالين ، واحذر من مسلك المنافقين المتشككين ، وحاذر كل الحذر من موجب ذلك كله ، وهو الوسواس الخناس ، أن يشككك في متعلقات الإيمان ، أو في استواء طريقك واستقامته أو في عصمة كتابك وكماله ، وكن على يقين مما أنت عليه ، ولا تنس خطره على أبويك من قبل ، إذ هما في الجنة دار السلام ولم يسلما منه ، ودلاّهما بغرور فحاذر منه ولُذْ بي كلما ألمّ بك أو مسّك طائف منه ، وكن كسلفك الصالح إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .

وقد علمت عداوته لك من بعد ، وعداوته ناشئة عن الحسد .

ولكأن ارتباط السورتين ليشير إلى منشأ تلك العداوة وارتباطها بهذا التحذير ، إذ في الأولى : ومن شر حاسد إذا حسد ، فحسد الشيطان آدم على إكرام الله إياه كما أسلفنا .

والعدو الحاسد لا يرضيه إلا زوال النعمة عن المحسود ، ولئن كانت

توبة آدم هى سبيل نجاته ، كما فى قوله تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) .

فنجاتك أيضاً فى كلمات تستعيذ بها من عدوك : برب الناس ملك الناس إله الناس ، لأن الرب هو الذى يرحم عباده ، وملك الناس هو الذى يحميهم ويحفظهم ويحرسهم . وإله الناس الذى يتألهون إليه ويتضرعون ويلوذون به سبحانه .

تنبيه

إذا كان هـذا كله خطر الوسواس الخناس من الجنة والناس ، وهما عدو مشترك ومتربص حاقد حاسد ، فما طريق النجاة منه ؟

الذى يظهر ، والله تعالى أعلم : أن طريق النجاة تعتمد على أمرين :

الأول : يؤخذ من عمومات الكتاب والسنة .

والثانى : سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

أما الأول فهو : إذا كانت مهمة الوسوسة التشكيك والذبذبة والتردد ، فإن عمومات التكليف تلزم المسلم بالعزم واليقين والمضى دون

تردد، كما فى قوله : (فإذا عزمت فتوكل على الله) ، وامتدح بعض الرسل بالعزم وأمر بالاقتداء بهم (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » .

والقاعدة الفقهية « اليقين لا يرفع بشك » .

والحديث : « يأتى الشيطان لأحدكم وهو فى الصلاة فينفخ فى مقعدته ، فيتخيل إليه أنه أحدث ولم يحدث ، فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً ، يجد ريحاً » .

ومن هنا كانت التكاليف كلها على اليقين ، فالعقائد لابد فيها من اليقين .

والفروع فى العبادات لابد فيها من النية « إنما الأعمال بالنيات » .

والشرط فى النية الجزم واليقين ، فلو نوى الصلاة على أنه إن حضر فلان تركها ، لا تنعقد نيته ، ولو نوى صوماً أنه إن شاء أفطر ، لا ينعقد صومه .

ونص مالك فى الموطإ: أنه إن نوى ليوم الشك فى ليلته الصوم غداً ، على أنه إن صح من رمضان فهو لرمضان ، وإلا فهو نافلة ، لا ينعقدصومه لا فرضاً ولا نفلا حتى لو جاء رمضان لا يعتبر له منه ، وعليه قضاؤه لعدم الجزم بالنية .

والحج : لو نواه لزمه ولزمه المضى فيه ، ولا يملك الخروج منه باختياره .

وهكذا المعاملات فى جميع العقود مبناها على الجزم حتى فى المزح واللعب ، يؤاخذ فى البعض كالنكاح والطلاق والعتاق .

فمن هذا كله ، كانت دوافع العزيمة مستقاة من التكاليف ، مما يقضى على نوازع الشك والتردد ، ولم يبق فى قلب المؤمن مجال لشك ولا محل لوسوسة .

وقد كان الشيطان يفر من طريق عمر رضى الله عنه .

أما الذى كنت سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فقوله : لقد علمنا الله كيفية اتقاء العدو من الإنس ومن الجن .

أما العدو من الإنس ففى قوله تعالى : (ولا تستوى الحسنة

ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم).

فدل على أن مقابلة إساءة العدو بالإحسان إليه تذهب عداوته، وتكسب صداقته، كما قال تعالى: (ادفع بالتى هى أحسن) السيئة.

وأما عدو الجن ففى قوله تعالى: (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم).

وهو ما يدل عليه ما تقدم من الآثار من أن الشيطان يخنس إذا سمع ذكر الله.

وعلى قوله رحمه الله: فإن شيطان الجن يندفع بالاستعاذة منه بالله، ويكفيه ذلك، لأن كيد الشيطان كان ضعيفا.

أما شيطان الإنس فهو فى حاجة إلى مصانعة ومدافعة والصبر عليه، كما يرشد إليه قوله تعالى: (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)

رزقنا الله تعالى وجميع المسلمين حظاً عظيما فى الدنيا والآخرة، إنه المسئول، وخير مأمول.

روى ابن كثير حديث أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يتعوذ من أعين الجن والإنس ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما » رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

وروى عن عبد الله الأسلمي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدره ثم قال « قل : فلم أدر ما أقول . ثم قال لي : قل . فقلت : هو الله أحد ، ثم قال لي : قل . قلت : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق حتى فرغت منها ، ثم قال لي : قل . قلت : أعوذ برب الناس حتى فرغت منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا فتعوّذ . وما تعوّذ المتعوذون بمثلهن قط » .

والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله وسلم على أفضل خلقه وأكرمهم عليه ، من اصطفاه لرسالته وشرفنا ببعثته ، وختم به رسله وكرّمنا به وهدانا لاتباعه ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعلينا معهم أجمعين . إنه سميع مجيب .

خاتمة

نسأل الله حسنها

ورحم الله مشائخنا ووالدينا وجزى الله عنا والدنا وشيخنا الشيخ محمد الأمين أحسن الجزاء، وعن أضوائه حسن الضياء وحلل البهاء .
وجزى الله بالإحسان كل من ساهم فى إكمال هذه التتمة . بتوجيه أو إرشاد أو دلالة على إحالة، أو غير ذلك حساً أو معنى ، ومن يساعد على إظهاره ونشره ، وأن يجعل عملنا ، وعمل من عمل معنا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله لنا ولشيخنا رحمه الله من الآثار التى تكتب لنا من بعدنا ، وأن يعم نفعه ، ويعظم لنا أجره ، ولمن انتفع منه ، إنه جواد كريم . والحمد لله رب العالمين .

وقد كان الفراغ منه فى آخر يوم من رمضان المبارك سنة ست وتسعين وثلاثمائة وألف ١٣٩٦ هـ . من هجرة من له كمال العزة والشرف، فى المدينة المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

اعتـــذار

إن ما أوردناه وما يورده الآخرون من وجهات نظر ، إنما هو بحسب ما يظهر من نسق السياق ، ومنطوق الكلام ومفهومه استنتاجاً واستظهاراً . ولا يحق لقـــائل أن يقول : من أجل ذلك كان على ما كان ، وكما قال ابن القيم رحمه الله : وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركهـا عقول البشر ، وإنمـا غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وأن سببه باديه إلى الخافي يسير

لطفـــا

أذكر القارىء الكريم بما ذكرته في مستهل التقديم ، من أنه جهد المقل ووسع الطاقة ، والخطأ لازم والعصمة ممنوعة والتحصيل متفاوت ، فمن اطلع على خلل سدّده وأصلح خطأه ، ومن رأى نقصاً أكمله لا إظهاراً لنقص ولا تظاهراً بعلم ، ولكن ابتغاء لوجه الله، فله مني حسن الثناء ، ومن الله أحسن الجزاء .

شكر وتقدير

وإن من الواجب على تقديم الشكر الجزيل والاعتراف بالجميل ، لكل من له على اليد فى هذا العمل الفاضل ، وأخص أولا فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز حفظه الله ، على ما كان منه من حرص وتأكيد على إتمام هذا الكتاب ، وفاء بحق الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ورجاء إتمام النفع ، وعلى ما أولانى من نصح وتكليف بهذا العمل فشرفت به ، وقد بذل الكثير من وقته ، وقرأت عليه فى بادىء الأمر بعض النماذج لما كتبت فاستحسنها وشجع على المضى مستعيناً بالله تعالى ، وعلى مساعيه الحميدة فى نفاذ طبعه على النحو السابق أجزل الله له المثوبة .

كما أشكر الجهة التى تبذل الكثير لإتمام الطبع مع عدم الرغبة فى الإعلان عنها ، فرحم الله من مات ، وأكرم الله من بقى ، وكذلك للأخوين الجليلين الشيخ محمد بن سيدى بن الحبيب والشيخ محمد الأمين ابن الحسين ، وهما من أخص تلاميذ الشيخ رحمه الله ، وكاتبا الأضواء فى حياته ، وهما اللذان كانا يقومان بالمقابلة مع الشيخ رحمه الله تعالى ، إذ استمرا معى بنفس العمل فى هذه التتمة المباركة ، فأسديا لى أعظم المساعدات فى التبييض والتصحيح والمراجعة والمناقشة ، وفيما يحال

عليه من الأضواء ، إذ هما بحق أوسع من عرفت استيعاباً للأضواء وبإحالاته ، وأكثر سماعاً من الشيخ نفسه فى حياته ، فجزاهما الله عنى وعن القراء الكرام أحسن الجزاء .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وأود أن يعلم أنه توجد آيات من موضوع الكتاب لو أعيد النظر لتناولها البحث . ولكن هذا شأن التجربة الأولى فى أغلب الأمور ، ولقد كان هذا العمل من الشيخ رحمه الله تجربة ناجحة من عالم مستوعب والفضل للأسبق .

* * *

يلى هذا إن شاء الله رسالة فى الناسخ والمنسوخ موجزة جداً . أصلها أبيات للسيوطى رحمه الله ، عشرة أبيات . أوجز فيها خلاصة ماثبت نسخه وشرحها الشيخ رحمه الله ، كنت درستها عليه وأعطانيها بخطه فبيضتها وصححتها عليه ، نلحقها لقوة ارتباطها بالتفسير .

ثم رسالة منع جواز المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز ، كان رحمه الله كتبها رداً على مناقشات أثيرت حول آيات الصفات ،

وما يدور فيها من نقاش بين مذهبي السلف والخلف ، وإبقائها على حقائقها من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل . وبين صرفها عن حقائقها بنوع تأويل على أسلوب المجاز فى اللغة العربية على ماهو متعارف .

فكان القول بالمجاز فى اللغة أقوى موجب للتأويل فى آيات الصفات . فكانت هذه الرسالة لهذا الموضوع ، وكان الغرض منها هو الحفاظ على آيات الصفات من إدخال المجاز ، وعمدة مافيها أن المجاز ، وإن كان أسلوبا لغة ، فليس كل ماجاز لغة جاز قرآناً ، وساق نماذج قلّ أن توجد إلا فى هذه الرسالة .

ثم دفع إيهام الاضطراب عن آى الكتاب :

وهذا الكتاب من أخص ما كتب فى علوم القرآن وموضوعه : الجواب عن كل مايوهم تعارضاً أو اضطرابا بين بعض آيات القرآن مع بعض ، وهذا وإن كان موضوعه من حيث هو موجود ، كمفردات ترد فى محالها من التفسير ، إلا أنها لم يوجد فيها كتاب قد تتبعها فى القرآن كله وجمعها فى محل واحد يسهل تناوله ، بل ولا يوجد التنبيه على كل ماجاء فيه فى عمومات التفاسير .

وقد كان سببه سؤال عند الدرس عن مدى التوفيق بين قوله

تعالى : (وقفوهم إنهم مسؤولون . مالكم لاتناصرون) مع قوله تعالى : (فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان) فأجاب رحمه الله باستفاضة ، وذكر لها أمثلة عديدة ، فسألته عن تأليف فيها فقال : لا أعلمه ، فكان رجائي منه أن يؤلف فيه لنفع المسلمين فوعد خيراً ثم فعل ، وقد تتبع هذا النوع فى القرآن من أوله إلى آخره

وهو أيضاً تجربة أولى موفقة ، ولو أعيدت كتابته فإن فى القرآن بعض مواطن من موضوع الكتاب

ثم فهارس الكتاب : ومنها فهرس فقهى لمواضيع الفقه الموجودة فى مواضع متفرقة فى جميع أجزائه ، قد جمعت مرتبة على أبواب الفقه ، ومبين مرجع كل مسألة فى أى جزء ، وعند أى آية ، ليسهل تناولها والاستفادة منها

وكان رحمه الله قد اطلع عليه إلى الجزء الخامس والسادس فاستحسنه ، ولم يمانع فى طبعه مع الجزء الأخير من الكتاب .

ثم بعض تقاريظ ونعى للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه شعراً من بعض أبناء .

ثم ترجمة لحياته العلمية ، لما فيها من مُثل عليا فى الجد والتحصيل ، وبالله تعالى التوفيق .

وقد وجدت للشيخ رحمه الله مؤلفات مخطوطة أخرى .

منهـا : فى الفقه المالـكى .

ومنها : فى المنطق .

ومنها : فى الفرائض .

ومنها : الرحلة ، وتسجيله حوادث الطريق ومحادثاته العلمية والأدبية مع من لقى من العلماء والأدباء في طريقه من بلده إلى المدينة المنورة ، والـكل فى محاله ، لطبعه إن شاء الله .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله وخاتم رسله سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

عطية محمد سالم

بيان الناسخ والمنسوخ

من آى الذكر الحكيم

كتبها فضيلة الوالد الشيخ الأمين رحمه الله على أبيات للسيوطى فى الإتقان،
ونقلتها عن خطه وقرأتها عليه

نص الأبيات من الإتقان :

قد أكثر الناس من المنسوخ من عدد	وأدخلوا فيه أباليس تنحصر
وهاك تحرير آى لامزيد لها	عشرين حررها الحذاق والكبر
آى التوجه حيث المرء كان وأن	يوصى لأهليه عند الموت محتضر
وحرمة الأكل بعد النوم مع رفث	وفدية لمطيق الصوم مشتهر
وحق تقواه فيما صح من أثر	وفى الحرام قتال للأولى كفروا
والاعتداد بحول مع وصيتها	وأن يدان حديث النفس والفكر
والحلف والحبس للزانى وترك أولى	كفر وإشهادهم والصبر والنفر
ومنع عقد لزان أو لزانية	وما على المصطفى فى العقد محتظر
ودفع مهر لمن جاءت وآية نجـ	ـواه كذلك قيام الليل مستطر
وزيد آية الاستئذان من ملكت	وآية القسمة الفضلى لمن حضروا

شرحها الشيخ رحمه الله بقوله :

١ — قوله : « أى التوجه » ، يشير إلى أن قوله تعالى : (فأينما تولوا فثم وجه الله) منسوخة على رأى ابن عباس بقوله تعالى : (فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام) .

٢ — وقوله : « وأن يوصى لأهليه » : أشار به إلى أن آية (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية) الآية . منسوخة. قيل بآية المواريث ، وقيل بحديث : « لا وصية لوارث » ، وقيل : بالإجماع. حكاه ابن العربى .

٣ — وقوله : « وحرمة الأكل بعد النوم مع رفث » يشير إلى أن آية (كتب عليكم الصيام) المتضمنة حرمة الأكل والجماع بعد النوم كما فى صوم من قبلنا منسوخة بآية (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) .

٤ — وقوله : « وفدية لمطيق » يشير إلى أن آية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) منسوخة بآية (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، وقيل محكمة و « لا » مقدرة ، يعنى : وعلى الذين لا يطيقونه .

٥ — وقوله : « وحق تقواه » يشير إلى أن قوله تعالى : (اتقوا

الله حق تقاته) منسوخ بقوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) ، وقيل : محكمة .

٦ — وقوله « وفى الحرام قتالى » يشير إلى أن قوله تعالى : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) وقوله : (ولا الشهر الحرام) منسوخان بقوله تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة) الآية . أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة .

٧ — وقوله « والاعتداد بحول مع وصيتها » يعنى أن قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم) الآية ، منسوخ بقوله : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » .

٨ — قوله : « وأن يدان حديث النفس والفكر » يشير إلى قوله تعالى : (إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ، منسوخ بقوله تعالى : (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) .

٩ — قوله : « والحلف » أى المحالفة ، يشير إلى قوله تعالى : (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) منسوخة بقوله تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) الآية .

١٠ — وقوله « والحبس للزانى » يشير إلى أن قوله تعالى :

(فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت) منسوخ بقوله تعالى : (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) .

١١ — قوله « وترك أولى كفر » يشير إلى قوله تعالى : (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) منسوخ بقوله تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) .

١٢ — وقوله : « وإشهادهم » يشير إلى أن قوله تعالى : (أو آخران من غيركم) منسوخ بقوله تعالى : (واشهدوا ذوى عدل منكم) .

١٣ — وقوله « والصبر » يشير به إلى قوله تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) الآية . منسوخ بما بعده وهو قوله تعالى : (ألآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) .

١٤ — قوله « والنفر » يشير إلى أن قوله تعالى : (انفروا خفافا وثقالا) منسوخ بقوله تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) أو (ليس على الأعمى حرج) الآية ، أو قوله تعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية .

١٥ — قوله : « ومنع عقد لزان أو لزانية » يشير إلى قوله

تعالى : (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك) الآية ، منسوخ بقوله تعالى : (وانكحوا الأيامى منكم) .

١٦ — وقوله : « وما على المصطفى فى العقد محتظر » يشير إلى قوله تعالى : (لايحل لك النساء من بعد ..) الآية ، منسوخ بقوله تعالى : (إنا أحللنا لك أزواجك) الآية .

١٧ — قوله « ودفع مهر لمن جاءت » يشير إلى أن قوله تعالى : (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) منسوخ ، قيل بآيات السيف ، وقيل : بآيات الغنيمة .

١٨ — وقوله « كذاك قيام الليل » يشير إلى أن قوله (يا أيها المزمل قم الليل) منسوخ بقوله تعالى : (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ماتيسر من القرآن) وبقوله تعالى : (فاقرؤا ماتيسر منه) .

وهذا الناسخ أيضاً منسوخ بالصلوات الخمس .

١٩ — وقوله « وآية نجواه » يشير إلى أن قوله تعالى (فقدموا بين يدى نجواكم صدقة » منسوخ بقوله تعالى : (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) وبقوله : (فإذْ لم تفعلوا وتاب الله عليكم) .

١٠ — قوله « وزيد آية الاستئذان مما ملكت » . آية الاستئذان

(ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) والأصح فيها عدم النسخ ، لكن تساهل الناس بالعمل بها .

٢١ — « وآية القسمة » (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) والصحيح فيها أيضاً عدم النسخ

ومثال نسخ الناسخ آخر سورة المزمل ، فإنه منسوخ بفرض الصلوات الخمس . وقوله : (انفروا خفافا وثقالا) فإنه ناسخ لآية الكف ، منسوخ بآية العذر .

* * *

تمت بحول الله رسالة فضيلة الشيخ محمد الأمين المختصرة فى بيان أبيات السيوطى الرمزية تقريباً فى هذا الفن . وهى على إيجازها واختصارها كافية شافية للطالب الدارس . أملاها علىّ فضيلته فى ذى الحجة سنة ١٣٧٣ هـ

أما المدرس والباحث المدقق والمناقش للأقوال فإن هناك المطولات لتتمة البحث لبيان إثبات النسخ على منكريه ، وبيان حكمة النسخ وبيان أقسامه ، وقوة الناسخ من كتاب أو سنة ، ومراتبه من شدة إلى ضعف والعكس . إلى غير ذلك .

فهرس

الجزء الثانى من التتمة والتاسع من الأضواء

الصفحة — الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة　　　　الموضوع

الصفحة　　　　　　　　　　الموضوع

الصفحة — الموضوع

الصفحة | الموضوع

صفحة الموضوع

الصفحة		الموضوع

الصفحة — الموضوع

الصفحة　　الموضوع

الصفحة | الموضوع

الصفحة		الموضوع

الصفحة　　　　الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
	فملا . والموازين يراد بها الموزون ويرادبهاالآية . وإحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند قوله (ونضع الموازين القسط) . إسناد الرضا للعيشة فى قوله (فى عيشة راضية) .
٤٦٣	كون الإسناد حقيقياً .
٤٦٣	قوله تعالى : (أما من خفت موازينه فأمه هاوية) . وبيان الخلاف فى المراد بأمه هل هى رأسه أم هى النار . إحالة على كلام الشيخ رحمه الله فى دفع إيهام الاضطراب .
٤٦٤	تفسير القرآن للهاوية . وبيان أن لا تعارض بين المعنيين .
٤٦٩	سورة التكاثر : معنى ألهاكم ، والتكاثر ، عام فى كل ما يتكاثر فيه .
٤٧٠	بيان مافيه التكاثر ، وبيان عموم وشمول اللفظ له .
٤٧٢	قوله تعالى (حتى زرتم المقابر) . والصحيح فيما يراد به .
٤٧٣	تنبيه : فى حكم زيارة النساء للقبور ، والراجح من الخلاف فيها .
٤٧٥	تنبيه آخر : من لطائف التفسير فى معنى (زرتم المقابر) .
٤٧٦	إنكار السلف على ما يصنع للقبور ، من المباهاة بها بالأندلس ومصر وغيرها إنكار السلف على المكثرين من زيارة القبور والمباهاة بها .
٤٧٧	بيان خطأ هؤلاء فى اشتغالهم دائما بذلك . وتنقلاتهم إليها .
٤٧٨	قوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون) الكلام على تكرر لفظ كلا هنا .
٤٧٩	الاستدلال من الآية على ثبوت عذاب القبر .
٤٧٩	إحالة على كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فى هذه المسألة . أصرح دليل فى إثبات عذاب القبر على سبيل الإجمال .
	قوله تعالى (كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) . بيان لو الشرطية وجوابها .

الصفحة		الموضوع

الصفحة الموضوع

الصفحة　　　　　　الموضوع

الصفحة　　　　　　الموضوع

الصفحة | الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة | الموضوع

الصفحة الموضوع

جدول تصويب خطأ الجزء التاسع من الأضواء

الثانى من التتمة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	١٢		حقوق الطبع محفوظة
٢٤	٦	بالسبحات	بالسابحات
٢٩	١٥	وتقدم سورة	وتقدم فى سورة
٣١	١		والقمر فى فلك والقمر كل فى فلك
٤١	٥	النصوص	لنصوص
٤٨	٩	عاقبة	عاتية
٥١	١٥	هذه	هذا
٥١	١٨	وأما أنا	وما أنا
٥٦	١٤	من شىء	من أى شىء
٥٨	٤	المجرمين	المجرمون
٦٨	٦	يجادل بغير	يجادل فى الله بغير
٧٦	١٧	وماضل	ما ضل
٨٤	١٩	خير	خيرا
٨٦	٧	حمى	حق
٩٦	١٠	ذر	ذرع
١١٢	١٥	اعرضنا	إنا عرضنا
١١٦	١٤	العلم	العالم
١٢٣	١٣	سلالا	هلالا
١٢٤	١	عنس	غبس
١٢٤	١٤	ممون	ممنون
١٣٥	١٤	بما عليها	بما عمل عليها
١٣٩	١٤	أما أشقى	أما أنا لا أشقى
١٤٠	١١	به صدغه	به فى صدغه
١٧٥	٩		وتحمدون
١٧٦	١٨	التقديم	التقدير
١٧٧	٧	إلى اللهماقدره	إلى ما قدره
١٨١	١٧	وماء آسن	وماء غير آسن
٢٠١	٧	الغيلة	الفيلة
٢٣١	٣	أنهما	أيهما
٢٥٤	٦	عمن	عن من
٢٨٥	١٥	مع يتأتى	مع ما يتأتى
٢٩٣	٣	منه	
٣٠٠	٨	قس	قسا
٣٠١	٢	مسيره	ميسرة
٣٣٢	١٤	النار إلى	إلى النار
٣٥٧	١٧	فيهم	فيها
٣٦٩	٩	القلنشدى	القلقشندى
٣٦٤	١٠	الشدباقى	الشدياقى
٤١٧	١٣	على صالح	على أن صالح
٤١٨	١٥	يعملون لا يعصون يعملون [وقوله لا يعصون	
٤١٨	١٦	قل أقول	قل لا أقول
٤١٩	٣	لم يوضع القوى يكمل القوس على الآية	
٤٢٠	١٠	عنها	عنهم
٤٢٠	١١	فيه	فيهم
٤٢٠	١٤	نوازع ثم	نوازع الشر
٤٢٠	١٨	أن يأتى بمدهم فى حق من يأتى بعدهم	

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٢٤	أول الصفحة	٢٢٤	٤٢٤
٤٢٤	١٤	فعلا	قطعا
٤٢٥	١	تجاوزوا	تجاوز
٤٢٥	٣	حسبي حسبي أكافيني	حسبنا حسبنا أى كافينا
٤٢٥	٤	ذاك	ذلك
٤٢٦	أول الصفحة	٣١٦	٤٢٦
٤٣٠	٨	موناها	موتاها
٤٣١	٨	المرسلين	المرسلون
٤٣٢	١٢	بحثان	مبحثان
٤٣٣	١١	لقو	لقوله
٤٣٥	٦	الذين	إن الذين
٤٣٥	١٥	وجل	وجمل
٤٣٩	١٧	الإبل	الخيل وقد
٤٤٠	١٥	فوسف	فوسطف
٤٤١	٦	وهذ	وهذا
٤٤١	١٢	وجد	وجدت
٤٤٢	أول الصفحة	٢٤٢	٤٤٢
٤٤٢	١	جما	جمع
٤٤٣	٤	يقرف	يغرف
٤٤٣	٥	ويتوطف	ويتوسطن
٤٤٣	١١	ترشيحا	ترجيحا
٤٤٥	٥	الشا	الشاعر
٤٤٩	١٢	كلون	وتأكلون
٤٥١	١	المديات	الماديات
٤٥١	٣	الشا	الشاعر
٤٥٣	٥	لا يخفى	لا تخفى
٤٥٨	١	القرمة	القارعة
٤٥٩	٦	زال	ولا يزال
٤٥٩	٨	ملائه	إملائه
٤٦٠	١	يزيده	يذبهن
٤٦٠	١	كالجرد	كالجراد
٤٧٢	٨	جاء	جاءت
٤٧٣	٣	فى الآخرة	الآخرة
٤٧٥	٣	إه	إنه
٤٧٦	١٢	إنى	إلى
٤٧٦	١٣	لا زيارة قبور	إلا زيارة القبور
٤٧٦	١٤	فلانا	فلان
٤٧٦	١٥	طفوها	طافوها
٤٧٦	١٧	أسفار	أسفاراً
٤٧٨	١	عليهم	عليه
٤٧٨	١٤	البعض	بعضهم
٤٨١	١١	عا	على
٤٨١	٣	تعبد	أن تعبد
٤٨١	١٠	يقين	اليقين
٤٨١	١٦	ووجهتها	وجهتها
٤٨٣	١	إخوانا	أعداء
٤٨٣	١٢	لا تزال	لا تزل
٤٨٤	١	روى	أورد
٤٨٧	٤	أنعمت	أنعمت به
٤٩١	٦	وقد ينفد	وقدر ينفذ
٤٩١	١٥	على التفسير	إن على التفسير إذ
٤٩٣	١٥	ويرشح لهذا	ويرجع هذا
٤٩٦	١-	كالآتى	فى الآتى
٤٩٩	٣-	ولم يتنافس	ولم ينافس
٥٠٠	٦	جمة برأس	بالجمة رأسا
٥٠٠	٦	البيض	الواضحات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٠١	٣	له	آية
٥٠٦	٥	باحق	بالحق
٥٠٧	١	لابنه	لقمان لابنه
٥٠٧	٤	علينا عليه	علينا وعليه
٥٢٤	١٤	موج	موجة
٥٢٦	١٥	عيسى	لعيسى
٥٢٨	٥	ممتلأة	ممتلئة
٥٢٨	١٣	إرهص	إرهاص
٥٢٩	٨	المنتصرة	المنتصر
٥٣٦	٥	قول	قول الشاعر
٥٣٩	١١	معامى بدنه	معافى فى بدنه
٥٥١	٢	دبيب ال	دبيب النمل
٥٥١	١٥	ل	بل
٥٥٢	١٢	لذى	الذى
٥٥٤	٧	عانها	ضمانها
٥٥٤	١٣	وفقرض	والقرض
٥٥٥	١٠	بوا	بواحدة
٥٥٦	٧	مض	بعض
٥٥٦	١٥	العر	العربى
٥٦٠	٨	فى قول	فى قوله
٥٧٣	٥	الفقهاء أن	الفقهاء على أن
٥٧٣	٦	على ذلك	على أن ذلك
٥٧٣	١٥	شانؤك	شانئك
٥٧٤	٤	سبحانه تعالى	سبحانه وتعالى
٥٨٠	٣	ولا نتم	ولا أنتم
٥٨٢	١٠	لم يساو	لم تساو
٥٨٥	٨	وسط	وسطا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٨٩	٦-	المفتح	الفتح
٥٩٥	١٤	مفترا	مقترنا
٥٩٦	١-	بالأنما	بالإنعام
٥٩٦	٢-	البعض	بعضهم
٥٩٨	١	وبأمر	ويأمره
٥٩٨	٦	الإيمان	الإيماء
٥٩٨	١٣	بافتح	بالفتح
٦٠٤	٨	التبات	التباب
٦٠٥	١	فما كان	فلما كان
٦٠٥	١٢	قراء	قراءة
٦٠٦	١٤	جاء به	جابه
٦٠٧	٥	لأوه	لأواه
٦١٢	٢	فرد به	فرد بل
٦٢٢	١٥	وحد	واحد
٦١٣	٢	ودلاتها	ودلالتها
٦٢٣	١٠	أو إلى ابن	أو لابن
٦١٤	أول الصفحة	٦٠٤	٦١٤
٦٢٣	٣	إلى	إلى غيره
٦٢٣	٧	قل	قال
٦٢٥	٩	سبحان ما	سبحان من لا
٦٣٥	٣	باليله	ياليلة
٦٣٩	١١	أخبرنى أنه	أخبرنى من رأى
٦٣٩	٨	البعض	بعضهم
٦٤٨	٨	الحامن	الحامل
٦٤٧	٨	ولا كفار	ولا كفارة
٦٤٦	٧	كانت معصية	إذا كانت أول معصية
٦٤٦	٧	بأبينا	لأبينا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٤٧	١٤	من	من أثر المين
٦٥٠	١	رحل	رحلا
٦٥١	٨	يكفؤ	يكفأ
٦٥٣	٥-	بداى	يداوى
٦٥٩	١٢	واستحققه	واستحقاقه
٦٦٢	١	متعالى الملك	فتعالى الله الملك
٦٦٣	٢	بدأ	بدء
٦٦٣	٧	تداد	تعداد
٦٦٤	٣	ضرورة له	ضرورة بالألوهية
٦٦٥	أول الصفحة	٥٦٥	٦٦٥
٦٦٥	٣	كمل	كمال
٦٦٦	٧	كاملتين	كاملين
٦٦٩	٣	مبانمة	مبالغة
٦٧٠	٧	على ما جار	على ماهو جار
٦٧٢	٦	إطاق	إطلاق
٦٧٢	١٦	كن	كان
٦٧٤	٧	والفمة	والغفلة
٦٧٧	١٥	يثر	يثير
٦٨١	٤	والاستغلال	والاستقلال
٦٨٣	٧	من ربك	من ربهم
٠٠٠	١٦	روع	فروع
٦٨٧	٨	فيتخيل	فيخيل
٦٨٧	٨	صوتا يجد	صوتا أو يجد
٦٨٨	٩	الفريعة	المزيعة
٦٩٢	٧	سبة	نسبة
٦٩٦	١٥	أبناء	أبنائه
٦٩٧	٧	فى محالة	فى محاولة

الكلمة الأخيرة :

الحمد لله الذى بحمده تتم الصالحات

والصلاة والسلام على رسوله فخر الكائنات

وبعد :

فهذا هو الجزء التاسع – والأخير – من تفسير [أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن] لمؤلفه العالم الجليل الشيخ محمد الأمين الجكنى الشنقيطى (م ١٣٩٣ هـ) رحمه الله رحمة واسعة كفاء ماقدم للمكتبة الإسلامية من آثار علمية نفيسة .

هذا هو الكتاب بأجزائه التسع ؛ سواء منها ماأتمه الشيخ بنفسه ، وذلك حتى نهاية الجزء السابع ، أو أتمه تلميذه العالم المحقق الشيخ عطية محمد سالم على أسلوب شيخه ومنهجه وذلك فى الجزءين الأخيرين ، الثامن والتاسع.

هذا هو الكتاب الذى شرفت مطبعة المدنى (المؤسسة السعودية بمصر) أن تكون القائمة بإخراجه وتقديمه لقراء اللغة العربية حيث كانوا من أرض الله .

ولا شك أنه عمل نعتز به ، وليس هناك شىء أفضل من القرآن وعلومه نعتز به ونتنافس فيه .

حيا الله العالم الجليل الذى وقف عمره المبارك على خدمة القرآن ومعارفه ، ثم توج أعماله بهذا الأثر النفيس .

وحيا الله تلميذه الذى أتم ما بدأه شيخه وسار على نهجه فى غير ماقصور ولا تقصير .

وحيا الله الكرام الباذلين ، الذين أنفقوا أموالهم فى سخاء على هذا العمل المشكور ، ويسروه لطلاب العلم ، وجعلوه وقفا لله .

وتحية كبيرة عظيمة مخلصة إلى الإمام الجليل ، والعالم الحجة ، سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الذى كان لجهوده الموفقة أكبر الأثر فى إشاعة هذا الخير ، وإذاعته بين الناس .

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ؟

مدير المطبعة

محمود على صبح المدنى

الفهرس الفقهي لكامل أضواء البيان

قد جمع هذا الفهرس مباحث الفقه المنثورة فى أضواء البيان ، ورتبت فيه حسب الأبواب الفقهية ، ومبين فيه عنوان البحث ورقم الجزء والصحيفة والسورة .

وذلك تسهيلا للدارس وتوفيراً للوقت .

وبالله التوفيق ؟

الفهرس الفقهي لكامل أضواء البيان

كتاب الزكاة

الصيام

كتاب الحج

كتاب النكاح

الجهاد

القضاء